رواية

دنيا ميخائيل

وشْم الطائر



الرافدين

وَشْم الطائر

دنيا ميخائيل

The Bird Tattoo

By Dunya Mikhail

الطبعة الأولى: حزيران، 2020 (1000 نسخة)

بيروت - بغداد



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

دار الرافدين@daralrafidain

ISBN: 978 - 9922 - 634 - 12 - 8

رواية

وَشْم الطائر

دنيا ميخائيل



www.daralrafidain.com

ليس من قبيل المصادفة توافق الرواية
مع واقع ناس يعيشون معنا في هذا الزمان.

الفهرس

رقم 27

كان أعضاءُ التنظيم قد أخذوا من الأسيرات كل حاجياتهن بضمنها خواتم الزواج الذهبية، لكن خاتم زواج هيلين لم يكن خاتماً، كان وشم طائر. سمعتْ، وهي تحدّقُ في إصبعها، أحدَهم ينادي بصوت عالٍ «27، رقم 27.» لم تعرف هيلين في البداية بأنّ ذلك رقمها. وحين نادى مرة أخرى، ظنّتْ بأنه غاضب لأنها خرجتْ من مكانها في الطابور وركضتْ نحو أمينة. لم تصدّق عينيها حينما لمحتْ صديقةَ طفولتها الأعز أمينة هناك في الجهة الأخرى من القاعة. وأمينة كذلك فتحت فمَها غير مصدّقة. لكن لم يدم عناقهما الدامع سوى ثوان إذ جاء صوتهُ الهادر مُعلناً «27 مُباعة.» كان يشير إلى هيلين بيد، وباليد الأخرى يحمل صندوقاً من الورق المقوّى معبأً بهواتف الأسيرات. صرختْ به أمينة «اتركْها،» وبالكاد سُمعَ صوتُها ففي تلك اللحظة كانت الهواتف النقالة ترنّ كلّها في الصندوق رنيناً عالياً قادماً من الأهالي القلقين لأن نداءاتهم بلا جواب.

ذلك الرجل، بقميصه الأسود الطويل حتى الركبة وسرواله المرتفع فوق كاحل القدم، دفعَ أمينة بقوة فسقطت على الأرض. إنحنت هيلين إليها لتساعدها على النهوض فسحب الرجلُ هيلين من يدها بالقوة وسحلها خلفه نحو غرفة أخرى. دفعها إلى الأرض وخرج وهو يغلق الباب وراءه. نساء أخريات كنّ هناك جالسات على الأرض ورؤوسهن إلى أسفل وعليهن بطاقات ذات أرقام، مثل تلك الكواكب البعيدة التي لا أسماء لها، فقط أرقام. المرأة الواحدة التي بلا رقم كانت تجلس إلى طاولة مكتب، ناولتْ هيلين ورقة وقالت: هذه وثيقة زواجكِ. سيأتي زوجكِ بعد قليل.

أعادت هيلين الورقة من دون أن تنظر إليها وقالت: أنا متزوّجة أصلاً.

أبو تحسين اشتراكِ أونلاين وهو في الطريق إلى هنا، قالت المرأة.

هيلين لم تسمع في حياتها عن سوق لبيع النساء ولو لم ترهُ بعينيها لما صدّقت بوجوده في أي زمان ومكان. ومما زاد من استغرابها أنّ بناية السوق هي مدرسة. إسمها «زهور الموصل» كما هو مدوّن على لافتتها الأمامية وهي تشبه تماماً مدرستها الإبتدائية التي كانت قد درستْ فيها مع أخيها التوأم آزاد. ما كانت حتى المديرة ست إلهام الشديدة جداً ستستوعب فكرة سوق لبيع النساء. بالنسبة لست إلهام، كل مَن يَعلك لا أخلاق له حتى لو فعل ذلك في أثناء الفرصة، لذلك تعرّضَ آزاد إلى توبيخ منها عندما رأته يعلك في ساحة المدرسة. كان آزاد المغرم بالعلكة أم السهم يتصوّر بأنّ العلكة لا تختلف عن باقي الحلوى التي كان يتناولها باقي الطلاب في الفرصة من دون مشكلة. وقف آزاد مرعوباً في مكتب ست إلهام فبإمكانها أن تضربه بالمسطرة من الجهة الحادة على يده مثلما رآها تفعل لبعض الطلاب لأنهم تأخروا في الدخول إلى الصف بعد أن رنّ الجرس فكان ينبغي أن يكونوا في مقاعدهم قبل المعلّم كي يقفوا له احتراماً عندما يدخل الصف. ولكن آزاد لمحَ، مندهشاً، ست إلهام وهي تبتسم في نهاية استجوابها له عندما عرفتْ مَن أعطاه العلكة. قالت: سلّم لي على خالك أستاذ مراد وقل له العلك ممنوع. الآن إذهب إلى الصف.

هذه الغرفة تشبه مكتب المديرة بطاولتها المرتّبة التي تجلس إليها الآن المرأةُ التي بلا رقم وهي مشغولة بإدارة عملية بيع الأسيرات. «إلبسي هذه الملابس. سيأتي المصوّر بعد قليل،» قالت وهي تُناول كيساً لإحدى الأسيرات. إستغربت هيلين من التناقض الكبير في الملابس التي يفرضها عليهن أعضاء التنظيم. ففي البداية عليهن أن يرتدين النقاب الأسود الذي لا تظهر منه سوى العيون، وبعد ذلك عليهن ارتداء ملابس خلاعية لتصويرهن وعرضهن للبيع. طلبَ المصوّر من هيلين أن تمسح دموعها قبل أن يلتقط الصورة.

في صفوف أخرى استخدمَ أعضاءُ التنظيم طاولات المدرسين للإشراف على اختيار الصبيان للتدريب العسكري في ساحة المدرسة الأمامية. في تلك

الساحة نفسها، كان الأساتذة والطلاب يجتمعون صباحات الخميس لمراسيم رفع العَلَم. الآن ترفع المنظّمة علمَها الأسود بدلاً من العلم العراقي وتتلو نشيد الولاء للدولة الإسلامية بدلاً من النشيد الوطني.

خلال الأشهر الثلاثة التي مضت عليها لحد الآن في الأسر، فهمتْ هيلين تدريجياً قوانينَ ذلك السوق الغريب. عندما يأخذها أحدهم إلى صف مجاور ويرجعها إلى مكانها فوراً بعد الاغتصاب معناه أنّه أخذها لمتعة مؤقتة، قلّبَها مثلما يقلّب الزبون بضاعة في السوق. ولكن إذا قرّر أحدهم شراءها فلابد له من دفع مبلغ لإدارة التنظيم وفق عقد شراء مختوم بختم الدولة. مزادها يبدأ من 75 دولاراً فما فوق لأنها في خانة أعمار الثلاثينات. يمكن للمشتري أن يمنحها لآخر ضمن عقد «إيجار» فيتخلّى عنها لرجل آخر مؤقتاً ثم يسترجعها. ويحقّ له أيضاً أن يُرجعها إلى السوق أو يبدّلها بأخرى. أحد الذين اشتروها كان يبيعها مؤقتا كلما احتاج إلى المال ثم يسترجعها وفي النهاية أرجعها إلى السوق قائلاً «هذه تصرخ في نومها، يمكن بها جنّي.»

كنَّ 120 امرأة تقريباً محشورات في قاعة تلك المدرسة في الموصل. بإمكان الداخل إلى القاعة أن يعرف أي النساء منهن اغتُصبت أكثر من غيرها من خلال عدد الرضوض على جسدها. بعضهن يحاولن الاختباء خلف بعضهن الآخر ولكن الحرّاس لا تفوتهم أية واحدة. في الليالي بعد أن تُغلق مزادات البيع، يأتي الحرّاس ويأخذون مَن شاؤوا للمتعة المؤقتة. يدفعون المقاعد الدراسية جانباً ويغتصبوهن واحدة مقابل الأخرى. تعرّفتْ هيلين على أسيرات أخريات من خلال النظرات التي يتبادلنها أثناء اغتصابهن. يتحدثنَ بعيونهن ويتفاهمنَ من خلال الدموع. مرّة في أثناء اغتصاب جماعي في وضح النهار صرخت أسيرة بهم «كفى، تقبلون واحداً يفعل هكذا بأمهاتكم وأخواتكم؟»

ضربها أحدهم على الفور بالحائط حتى انهارت. تبعته امرأة أخرى وهي تصرخ بكلمات غير مفهومة. بصقتْ عليه. قلّدتْها هيلين وبصقت على رجل بقربها. تلتها أسيرة أخرى بنفس الشيء. بصقت كل أسيرة في تلك الغرفة على كل مَن استطاعت فيما يشبه حملة بصاق على المغتصِبين. بهتَ الرجال لردّة الفعل الجماعية عليهم. ضربوهن بكل قوتهم. ولكن في النهاية ساد هدوء

في الغرفة وقد بدا على الرجال الإنهاك من ضربهم للأسيرات أو ربما من فقدانهم لماء الوجه، فغادروا الغرفة واحداً بعد الآخر بينما الأسيرات تبادلن نظرات تشجيع كأنهن يربتن على أكتافهن المبقّعة بالرضوض والألم. بعضهن لم يستطعن الحراك أياماً بعد ذلك.

الصمت هو اللغة الثالثة بين الأسيرات إضافة إلى العربية والكردية. أصغر الأسيرات ليلى في العاشرة من عمرها لا تعرف من العربية سوى كلمة «تفتيش» التي تعلّمتها لأن كل مرة تسمعها من تلك المرأة التي تدخل الغرفة وتعلن «تفتيش» فتصطفّ النساء واحدة جنب الأخرى فتبحث المرأة بداخل ملابسهن للتأكد من عدم حيازتهن لأية آلة حادة. إزدادت دورات التفتيش يوماً بعد يوم لأن حالات الانتحار بين الأسيرات وصلت حداً استفز أعضاءَ التنظيم لأنهم فشلوا في العثور على ما تستخدمه النساء في قطع شرايين أيديهن وإنهاء حياتهن.

ريحانة حاولت شنق نفسها بحبل عثرت عليه في زاوية القاعة. تلك كانت قاعة الرياضة عندما كانت المدرسة مدرسة، وذلك الحبل كان يُستعمل للعبة القفز بالحبل. ركضتْ إليها إحدى عضوات التنظيم وتمكّنت من أخذه منها بالوقت المناسب. أنقذتْ حياتها ثمّ ضربتْها بذلك الحبل نفسه. تلك كانت المفتّشة نفسها التي كانت خلال الإسبوع الأول من الأسر قد مرّت بالأسيرات واحدة واحدة لتسألهن «هل أنتِ متزوجة؟» وَ «متى جاءت الدورة الشهرية آخر مرة؟» إحدى الأسيرات أجابتها «لماذا هذا السؤال؟» فصرخت أخرى «لماذا؟» ثم ثالثة بصوت أقوى «لماذا؟» فتراجعَت المفتّشة خطوة إلى الخلف وصرخَت بهن: لأنّ قانون الدولة يمنع بيع الحوامل.

من المفترض أن تُهدى ريحانة مجّاناً للمقاتلين لغرض الخدمة فقط وذلك حسب قائمة الأسعار التي أقرّها التنظيم لمن تجاوزت الخمسين من عمرها لكن نظرتها المنكسرة التي تعود بها إليهن بعد أن يأخذها أحدهم توحي بأنّ بعض المقاتلين كان يخرق قوانين منظّمتهم. «ماما ريحانة،» هكذا صارت ليلى تسمّيها منذ تلك الليلة المظلمة في الإسبوع الثاني من الأسر حينما

عادت ليلى إلى الغرفة عارية وهي تتأوه من الألم والذل. رموا ملابسها خلفها، إلتقطتها إحدى الأسيرات وألبستها لها وهي تقول «ربّي يأخذ بثأر هذه البنت وثأرنا جميعاً.» قالتها بالكردي فلم تفهم المراقِبة عبارتَها. ولأنّ ريحانة كانت عاملة في المطبخ، أسرعت إلى ليلى بطاسة من الماء وسهرت عليها حتى الصباح. فتحت ليلى عينيها لترى ريحانة وهي تمسح لها جبينها بفوطة مبلّلة في محاولة لخفض الحمّى التي أصابتها. تبادلتا نظرة بها شيء من الامتنان والأسى. ريحانة تتحدّث باللغة العربية ولا تفهم اللغة الكردية ولذلك تستعين بهيلين لتترجم بينها وبين ليلى. ليس دائماً وإنما في الأوقات التي يصدف أن تمرّ دونما اغتصاب لأي واحدة منهن الثلاثة. لا تأتيهن رغبة للكلام بعد الاغتصاب. يدخلن في صمت لا يقطعه سوى تحية مغتصِب لصاحبه المغتصِب الآخر، تأتي نشازاً مثل ضحكة في عزاء.

عرفتْ ريحانة من خلال ترجمة هيلين بأنّ ليلى لم ترَ أهلها منذ ذلك اليوم عندما ضفرت لها أمُّها شعرها وخرجوا مع باقي أهالي القرية باتجاه الجبل. لم تتحدّث بالمزيد فكلّهن يعرفن المتبقي وكيف فصلوا الرجال عن النساء، والكبار عن الصغار، والبنات من سن التاسعة فما فوق عن باقي أفراد عوائلهن.

وفي يوم إنقطعت ليلى عن الكلام تماماً حتى مع هيلين لأنهم وجدوا ريحانة ميتة. لم تكن بحوزتها آلة حادة ولا حبل. لم يعرفوا كيف ماتت. «قتلها الحزن،» قالت إحدى الأسيرات. إنهالت دموع ليلى بالجريان على خدّيها. أجلستها هيلين في حضنها وهي تبكي كذلك. أبقتها في حضنها أطول ما استطاعت بالرغم من الألم الذي بظهرها من ضرب أبو تحسين الذي كان قد اشتراها وأرجعها. بدأت تضفر شعر ليلى من جديد وهي تستدعي كيف أخذها أبو تحسين إلى بيته في حلب وكيف تقيّأتْ عليه وهو يمارس الجنس معها. كانت طوال الطريق تشعر بالغثيان حتى تقيّأتْ بمجرد وصولها إلى بيته. ضربها بالعصا على ظهرها حتى انهارت فلم تشعر بنفسها إلا وهي في المستشفى ويدها مشدودة إلى المغذّي. ناولتها الممرضة حبة دواء مع قدح من الماء وهي

تسألها «كيف الحال؟» فأجهشت هيلين بالبكاء وأجابت: لستُ من هنا. دخيلك ساعديني حتى أرجع إلى أهلي في العراق.

نظرت الممرضة إلى اليمين وإلى اليسار وهمستْ: كيف أساعدكِ؟

فقط اخرجيني من هنا إلى الشارع.

آسفة لا أستطيع أن أفعل هذا. هل تريدين التحدّث مع أهلك بالتلفون حتى يساعدوكِ؟

نعم، الله يخليكِ.

سأجلب تلفوني النقال في أثناء استراحتي.

نظرت الممرضة في ساعتها وأضافت: بعد ساعة ونصف.

سمعت هيلين صوت انفجار بعيد وهي تحسب الدقائق التسعين وتحاول أن تتذكّر أي رقم من أرقام معارفها لتعطيه للممرضة. إلياس لابد أخذوا منه تلفونه فهو لم يرد على نداءاتها منذ أسروه، وأمينة أسيرة كذلك، تلفونها في ذلك الصندوق الذي جمعوا به تلفونات الأسيرات. لا تعرف أي رقم آخر.

سحبت الممرضة التلفون من جيبها ببطء وهي تنظر إلى أسرّة المرضى المجاورة وكأنها تسحب مسدّساً. قالت لهيلين: سأترك هذا معكِ خمس دقائق وأعود حالاً.

ولكن انتظري أرجوكِ، لا أعرف أي رقم. هل تعرفين مفتاح رقم العراق من هنا؟

آه، لا. إذن فيما بعد. سأسأل، قالت الممرضة وأعادت التلفون إلى جيبها، وفي تلك اللحظة دخلت طبيبة إلى الردهة متوجّهة نحو سرير هيلين. التقطت ورقة مثبّتة على لوح صغير عند سرير هيلين. قرأتْها وقالت: بإمكانك الخروج الآن.

ممكن أظل يوماً آخر؟ سألتها هيلين.

ليست بكِ حاجة لذلك، أجابت الطبيبة، ثم أن هناك جرحى في الطريق إلى هنا وقد لا تكفي أسرّة المستشفى.

نزلت هيلين من سريرها على مضض. رافقتها الممرضة إلى ردهة الاستقبال وهناك وجدت أبو تحسين بانتظارها. جمدت هيلين في محلّها عندما رأته بينما تقدّم باتجاهها. قالت الممرضة: إنتظري، سأكتب لكِ رقم تلفوني في حال عندكِ سؤال.

سمعها أبو تحسين. قال: لا، لن يكون عندها أي سؤال. هي ستخرج من هنا وتعود إلى بلدها.

صحيح؟ سألته الممرضة.

أدار أبو تحسين ظهره للممرضة وأشار لهيلين بيده لتخرج معه. قبل أن تعبر هيلين العتبة إلى الشارع نظرت وراءها وكانت الممرضة ماتزال واقفة هناك تنظر باتجاهها.

أوقفَ أبو تحسين سيارة أجرة وانتظرَ أن تصعد هيلين إلى المقعد الخلفي ليصعد هو إلى جانب السائق. ربما خشي أن تتقيأ عليه مرة أخرى. تساءلت هيلين مع نفسها: هل حقاً سيعيدها إلى وطنها كما قال للممرضة؟ بعد ربع ساعة تقريباً سمعت السائق يذكر بأنّ هناك بعض التصليحات في الطريق إلى الموصل فأشرق أمل بداخلها مثل مصباح في غرفة معتمة. هم في الطريق إلى الموصل إذن وليس إلى بيته في حلب.

إستغرقت الرحلة إلى الموصل عشر ساعات تقريباً، وقد لاحظت هيلين اللافتة التي تبين بأنّ الطريق السريع صار إسمه «طريق الخِلافة.» أخيراً توقّف السائق أمام بناية المدرسة - المزاد نفسه الذي اشتراها منه أبو تحسين. أعادها إلى السجن نفسه إذن ومع ذلك تنفست الصعداء لأنها ستلتحق بباقي الأسيرات، ولو مؤقتاً لحين بيعها مرة أخرى. أو مَن يدري، ربما تحدث

معجزة من السماء فتتمكن من العودة إلى بيتها. تحتاج إلى معجزة لتشمّ رائحة أهلها مرة أخرى.

هذه مريضة ولا تصلح لي، قال أبو تحسين للحارس في ساحة المدرسة الأمامية.

عرض عليه الحارس أن يبدّلها بأخرى ولكن أبو تحسين اختار أن يسترجع نقوده.

في اليوم نفسه الذي ماتت فيه ريحانة، عرضوا هيلين للبيع مرة أخرى. ضجّت ساحة المدرسة بزبائن لهم لحى طويلة جداً كأنهم خرجوا تواً من كهوف بالية في القِدَم. نظرت هيلين في وجوه الأسيرات الأخريات عساها تعثر على أمينة مرة أخرى. هل اشترى أحدهم صديقتها العزيزة؟ تساءلت هيلين وهي تلمح شخصاً ضخماً يتقدّم نحوها فأحنت رأسها كي تتجنّبه.

نصف جمال الإنسان

في هذه اللحظة جُلَّ ماتخشاه هيلين أن يصبح الرز ليّناً أكثر مما ينبغي أو غير مطبوخ بما فيه الكفاية فلا يكون على مرام عيّاش. هي ليست ماهرة بالطبخ حتى أنّ أمّها قالت مرّة لأبيها بأن على هيلين أن تتزوج طبّاخاً وإلا سيموت كلاهما من الجوع، فأجاب أبو هيلين مازحاً «أو تنقذينهما أنتِ بأن تسرعي إليهما بطبق الباذنجان.» ضحكت أمها وقد فهمتْ قصده فهو يحب أن يتندّر بمبالغتها بطبخ الباذنجان وإضافته إلى أغلب أكلاتها.

نقعت هيلين الفاصوليا البيضاء اليابسة أيضاً لتطبخ مرقاً فعليها تهيئة العشاء قبل مجيء عيّاش من الشغل. هل سيأتي بمفرده اليوم أم بصحبة أصدقائه؟ تساءلتْ مع نفسها. وهل سيتعاطى المخدّرات قبل العشاء أم بعده؟ كيف سيكون مزاجه؟ ماذا لو كان يومه سيئاً في الشغل وفوق ذلك لم يرق له هذا الأكل؟ هل يوبّخها فقط أم يضربها؟ الأسوأ من ذلك أن يبيعها مرة أخرى.

كانت قد سمعتْهُ قبل يومين يتفاوض على بيعها مع أحدهم على الهاتف ولكن يبدو أنّ الصفقة لم تتّم فلم يأتِ أي شخص لاستلامها. طلب عليها أربع ورقات من فئة المئة دولار ثم أخفض السعر إلى ثلاث ورقات. قال «والله تسوى أكثر، حلوة ومطيعة وشاطرة، ولكني مستعجل ببيعها.» هو لم يذكر للطرف الآخر على الخط بأنها لا تجيد طبخ الرز.

من بين كل مشتريها، عيّاش أحسنهم. خلال الأسابيع الستة التي بقيت فيها معه، لم يضربها بتلك الوحشية التي تملأ جسدها بالرضوض، وحينما يغتصبها فهو يفعل ذلك بمفرده وليس جماعياً. بل إنه يتحدّث معها ويستمع إليها أحياناً.

كانت هيلين قد فزعتْ من عيّاش في البداية عندما رأته في المزاد. وحين أحنت رأسها لتتجنّبه، رأت أقداماً مختلفة الأحجام تروح وتجيء أمامها. ركّزت على قدميه الضخمتين جداً وسرواله الأسود الذي يرتفع شبراً عن قدميه، تمتمت بقلبها «يا رب، لا تدع هذا يشتريني. أي واحد ولا هذا.»

إقتربت قدماه أكثر فانتابها فزع من ثباتهما أمامها تحديداً. ولكنه لم يفتح فمها ولم يكشف عن أسنانها ولم يشمّها كما فعل غيرهُ. سألَ «بكم هذهِ؟» فأجابه الرجل الواقف على الطرف «بأربعمئة، لك ياامولانا بنصف السعر.» فتح عيّاش محفظة نقوده وأخرج ورقتين من فئة المئة دولار وأعطاهما للبائع. عندذاك فهمت هيلين أنّ دورها جاء إذن لتغادر المدرسة وتتبع المشتري الجديد. ستسير خلفه دونما كلام فهي تعلّمت بأنّ الاعتراض لن يفيدها بشيء. لم تتعلّم ذلك بسهولة. تعلّمته بالضرب والإهانات فلم تبقَ في جسدها ولا في روحها بقعة غير مزرقّة. كما أنّ نظرة ليلى الدامعة خلفها اخترقت قلبها محدثة شهقة عميقة.

من الواضح أنّ هذا المالك الجديد له رتبة كبيرة فهم ينادونه مولانا كما كانوا ينادون السلاطين في قديم الزمان وهي لم تسمع تلك الكلمة سوى في المسلسلات التاريخية. كان في انتظارهما سائق في سيارة فخمة سوداء مما أكّد انطباعها عن مكانته. جلس عيّاش في مقدّمة السيارة بجانب السائق وهيلين في المقعد الخلفي مرتدية النقاب الأسود الذي أعطوه لها فلا يظهر منها سوى عينيها. إنشغل الرجلان بالحديث بينهما وانشغلت هيلين بالنظر عبر النافذة إلى مدينة استطاعت أن تميّز ملامحها مثلما كانت ستميّز شخصاً أليفاً على فراش المرض.

بدت الموصل مدينة شاحبة، صامتة، وبطيئة الحركة بشكل لم تشهده من قبل، فقد خفّ الازدحام وسكت ضجيج الأغاني المنبعثة من المحلات، وحلّت لافتات سود محل الإعلانات الضوئية التجارية. حتى نهر دجلة الذي يجري هناك تحت الجسر بدا تلك اللحظة وحيداً منزوياً تماماً عن كل ما يجري فوقه.

هذه الشوارع التي تراها الآن من خلال نافذة السيارة هي نفسها التي سبق لها أن تمشّتْ فيها حرّة طليقة مرتدية ملابس من اختيارها وأحياناً من تصميمها مستعينة بمجلات الموضة. مرّة أعجبتها صورة فتاة مرتدية بنطلون جينز ممزّقاً قليلاً فمزّقت بنطلونها من الركبة، ولم يكن ذلك شائعاً في منطقتها ولذلك عندما رأتها أمها فيما بعد ظنّتْ بأنه ممزّق من كثرة استهلاكه فعرضتْ أن ترقّعه لها. من هذا الشارع تحديداً اعتادت هيلين أن تشتري الأزرار والأقمشة والخيوط. أغلب زبائن هذا الشارع من الخيّاطات وكذلك بعض المتبضّعين ممن يحتاجون إلى تصليح شيء، حذاء مثلاً أو ساعة أو مذياع. محلات المصلّحين صغيرة لا تتجاوز مساحتها مترين في ثلاثة فليس فيها سوى طاولة وكرسي ومصباح. لايزال الناس يسمّونه شارع الملك غازي بالرغم من أنّ الحكومة غيّرت اسمه رسمياً إلى شارع الثورة. لم تكن تعرف مَن هو الملك غازي لكن جارتها شيماء المعروفة بأم حميد قالت لها مرّة بأن الملك غازي كان دائماً يحب أن يتباهى بنفسه ولذلك عندما كان طالباً في سن السادسة عشر نزلَ بطائرته إلى مستوى منخفض جداً فوق مدرسته لمجرّد أن يراه زملاؤه في تلك الطائرة التي أسماها الانكليز البساط السحري.

محلات الملابس بدت مألوفة لهيلين ولكن المانيكان ألبسوها النقاب كما ألبسوا هيلين فصارتا متشابهتين جداً غير أنَّ المانيكان لم تكن معروضة للبيع. «النقاب طهارة ونقاء» و «معاً نرعى شجرة الخِلافة» من العبارات المكتوبة في لافتات كبيرة استرعت انتباه هيلين. وبعد ذلك بمسافة عدة أمتار رأت عبارة مكتوبة بخط اليد ومكرّرة على أكثر من حائط. كانت بخط عريض جداً فيمكن قراءتها حتى من بعيد. العبارة تقول «أحبج ندّاوي.» تخيّلتْ كيف خطّ ذلك العاشق على جدران المدينة حبّه لندى أو نادية التي يدلّعها بندّاوي. هل أرادَ لعبارتهِ أن تكون معادلاً لتلك اللافتات الجادّة الأخرى أم أنه أراد أن يخرّب الجدران فصبغها بخط متعرّج وكبير جداً بتلك العبارة البسيطة؟ أم أنه مجرد عاشق خارج عن طوره؟ صوت عيّاش المفاجيء قطع تفكير هيلين ففي تلك اللحظة صرخ من نافذة السيارة بواحدة تسير على الرصيف: أنتِ يا امرأة، غطّي شعركِ.

مضت الشوارع إلى الخلف وتوارتْ عن عيون هيلين كما توارتْ حياتها السابقة، والمقود ليس بيدها لترجع إلى تلك الحياة. مع ذلك، سترجع بأول فرصة، فكّرت مع نفسها، ستجد ثقباً في الجدار وتنفذ منه عائدة إلى أهلها. قطعَ عيّاش سلسلة أفكارها مرة أخرى لأنه فجأة أمرَ سائقه بأن يتوقّف. نزلَ من السيارة متوجهاً صوب محل ملابس نسائية في سوق النبي يونس. صاحب المحل كان يتحدّث مع زبونة ولكن عندما قاطعهما عيّاش تغيّرت تعابير وجه الرجل من الابتسام إلى الفزع. لم تسمع هيلين الحديث الذي دار بين الرجلين ولكن من الواضح بأن صاحب المحل كان خائفاً ويتوسّل. لم يتحدّث عيّاش مع الزبونة وهي بدورها تركت قطعة الملابس التي كانت تفاوض عليها وخرجت مسرعة من المكان. فهمت هيلين من خلال حديث عيّاش مع السائق بعد أن عاد إلى السيارة بأنه أعطى تنبيهاً لصاحب المحل لأنه كان يتحدّث مع الزبونة بمسافة أقل من مترين، وهي مخالَفة عقوبتها 25 جلدة.

وفوق مخالفته للقانون كان يلاطفها ويناديها «عيني،» قال عيّاش.

بلا أخلاق، قال السائق.

بعد بضع دقائق، سمعوا رجلاً يصرخ بأعلى صوته «شوف هذي دعّوشة!» مشيراً بيده إلى مانيكان كبيرة أمام محل ملابس نسائية. هذه المرة ضغطَ السائق على كابح السيارة وتوقّفَ من دون أن يأمره عيّاش بذلك، ربما لأنه خمّن بأن الموقف يستدعي التدخّل. هيلين خمّنت بأنه رجل مجنون، فلا أحد يجرؤ على إطلاق مثل تلك الألقاب التهكّمية في مكان عام كهذا إلا إذا كان قد فقدَ عقله.

حين قفز عيّاش من السيارة متوجهاً إليه، ضحكَ الرجل المجنون قائلاً «وأنت حضرتك دعّوش؟»

غطّت هيلين عينيها بكلتا يديها كي لا ترى بقية المشهد فقد ضرب عيّاش ذلك الرجل ضرباً مبرحاً ومع ذلك رأت كيف أسقطه أخيراً على الأرض وصعد فوقه وهو يخنقه ويضرب رأسه بالأرض. هذه المرة لم يعلّق عيّاش بشيء

عندما عاد إلى السيارة. داس السائق على دواسة البنزين، وفي المرآة الجانبية ظهرَ الرجل ملقيّاً على الأرض دونما حراك وهو ينزف.

أخيراً دخلت السيارة إلى حي سكني، بين بيوته بعض الدكاكين الصغيرة المتفرّقة. طلبَ عيّاش من السائق أن يتوقّف عند دكّان عليه لافتة مكتوب عليها «هنا يُباع طرشي وزيتون.» ظنّت هيلين بأنّ عيّاش دخل ذلك الدكّان ليشتري شيئاً، ولكن لم يكن الأمر كذلك. خرجَ رجلٌ مسنّ من الدكّان برفقة عيّاش وأنزلَ لافتة الواجهة الأمامية. عاد عيّاش إلى السيارة وهو يدمدم «لا يعرفون بأنّ الطرشي وكل ما يُخمَّر ممنوع.»

في ذلك الشارع السكني نفسه، توقّفت السيارة أمام بيت من طابقين حنّي اللون. أشار عيّاش بيده إلى هيلين لتدخل البيت بينما وقف بجانب السيارة يتحدّث مع السائق. كان الباب نصف مفتوح فدخلت هيلين البيت.

كان بيتاً مؤثّثاً فيه رائحة ناس غير موجودين. شعرت بضيق نفس شديد بالرغم من إعجابها بالمكان وذوق أهله وخاصة الأرضية المفروشة بسجّادة عليها موتيفات من الطراز الفارسي، والإناء الخزفي التركوازي على الطاولة الخشبية المستديرة. الوسائد على الأرائك دافئة الألوان ومتماشية مع السجّادة. صندوق الألعاب على جانب الأريكة أعطى هيلين إحساساً عميقاً بالحزن متخيّلة أطفالاً اضطروا إلى ترك ألعابهم وبيتهم. على الطاولة الجانبية كانت هناك قطعة خبز يابسة. من الواضح أنّ أهل البيت غادروا على عجل ولم يأخذوا شيئاً معهم، لا الأشياء الكبيرة كالتلفزيون الذي يتوسط الجدار ولا الأشياء الصغيرة كذاك الصندل الناعم عند الباب. أوشكت هيلين أن ترى حتى بصمات أصابعهم على أثاث البيت وذكرياتِهم بين تلك الجدران. رأت في ذهنها كيف هربوا بالملابس التي عليهم فقط، تماماً مثلما خرج أهل منطقتها وتفرّقوا بضربة قوية مثل كريات البليارد.

كانت هيلين قد خرجت بمفردها يوم أُسِرَت، لكنها سمعت من أسيرات أخريات عن قوافل الناس الذين خرجوا من بيوتهم باتجاه الجبل. منهم مَن

وصل ومنهم مَن لم يصل فقد واجهتهم سيارات داعش في الطريق.

في غرفة المعيشة، أطالت هيلين النظر إلى لوحة خط عربي مؤطّرة ومعلّقة على الجدار الذي بجانب الباب. تأمّلتها ولكن وجدت صعوبة في قراءتها لأنها منفّذة بخط فني مبالغ به. تمعّنت بها كلمة كلمة وأخيراً استطاعت أن تقرأ أول كلمة «نصف» ثم «جمال» ثم «الانسان.» حاولت أن تحزر التكملة ولكنها لم تستطع. حاولت مرة أخرى وقد ازداد فضولها لمعرفة ماذا بعد «نصف جمال الإنسان» ولكن الفن في رسم الكلمة جعل حروفها غير واضحة أبداً. كلماتها مشتَغَلة كصور وليس كحروف مجرّدة. جفلتْ إذ سمعت خطوات عيّاش قادمة من الخارج باتجاهها. خفضت نظرها إلى الأسفل بينما ذهب عيّاش يقطع الغرفة جيئة وذهاباً. أخيراً توقّف أمامها وقال: إسمي عيّاش.

لم تقل هيلين شيئاً ولكنها لمحت لحيته الطويلة المجعّدة ورأسه الذي بلا رقبة.

أنا تونسي فرنسي، أضاف.

ظلّت هيلين ساكتة.

سار مرة أخرى إلى ناحية التلفزيون ثم عاد إلى حيث كان أمامها.

تركتُ زوجتي وابنتي في فرنسا، قال بلهجته التونسية المطعمة بالفرنسية.

نظر إلى ناحية الشباك وقال: جئتُ ألبّي نداء الله.

ظلت هيلين ساكتة فأضاف: زواجي بكِ مهمّة جهاديّة في سبيل الله. الدولة متفضّلة عليك لأنك ستصبحين مسلمة فتتطهّرين.

تمنّت هيلين لو كان بمقدورها مصارحته بأنه لو تركها في سبيل الله لكان ذلك الفضل الحقيقي عليها.

أنتِ كافرة وهذا ليس ذنبكِ فأنتِ ولدتِ هكذا، قال.

أشاحت هيلين بنظرها إلى الجهة الأخرى.

كنتِ ستدخلين الجحيم لو أنكِ بقيتِ إيزيدية.

ظّلت هيلين ساكتة.

خذي حمّاماً وتعالي إلى غرفتي، ختم كلامه وذهب إلى غرفة النوم.

في الحمّام، تأخذ هيلين وقتها لأنها تعرف بأن الحمّام ستعقبه الصلاة ثم الاغتصاب. ذلك هو نمطهم. بعض الفتيات انتحرن في حمّام تلك البناية التي حبسوهن فيها في البداية عندما سرقوهن من القرى. نظرت هيلين إلى وجهها في مرآة الحمّام المؤطرة بنقوش فضيّة. تعجّبتْ كيف أنّ وجهها لايزال طبيعياً بالرغم من كل تلك التجاعيد بداخلها. أغلقت عينيها فقد أحرقتهما الدموع فغسلت وجهها مرة أخرى. لو طاوعها قلبها لانتحرت هي الأخرى، ولكن كيف يطاوعها قلبها وهي متعلّقة بأحبائها؟ لو فقط تنجو من هذا الزمن الصعب، الزمن الذي لا تستطيع فيه أن تحيا ولا أن تموت.

في غرفة النوم، وقفتْ بجانب عيّاش لأنه دعاها للصلاة معاً. آه يا إلهي، ساعدني أرجوك، أرجعني إلى أهلي، بحق رب العالمين وطاووس ملك، تمتمتْ هيلين بقلبها. لم تعرف إن كانت تصلّي أم تتوسّل.

ما أن انتهى من صلاته حتى أمرَها أن تخلع ملابسها وتتمدّد على الفراش. هيلين استجابت مثل آلة ضغَطَ أحدُهم على زر تشغيلها. لم تعد ترفض وتقاوم مثلما كانت تفعل في الأيام الأولى من أسْرِها، ولم تعد تتوسّل أن تُترك وشأنها. انكمشت وتكوّرتْ لأنه كان يحدّق في جسدها كله.

رفعَ يدها اليسرى وتفحّصَ وشم الطائر.

ماهذا؟ سألها

قصة طويلة، أجابته.

أريد أن أسمعها، قال.

ظلّت هيلين ساكتة فكرّر عيّاش طلبه بأن تحكي له قصتها. خطرَ على بالها أن تستغل رغبته بالاستماع إليها فترتدي ملابسها. ولكنه سبقها بأن خلع ملابسَه فتصورت هيلين بأنه غيّرَ رأيه ولا يريد أن يستمع إليها. واضح أنه يريد أن يمارس الجنس معها. لكنه رفع غطاء السرير وغطّى به جسديهما إلى النصف وأعاد السؤال: ما قصة الوشم؟

تردّدت هيلين متسائلة مع نفسها إن كان يريدها فعلاً أن تحكي له حكايتها. هل يمكنها أن تثق فيه؟ هل هو منهم حقاً؟ مَن هو عيّاش هذا؟ لا يبدو عليه بأنه ينوي أن يغتصبها أو يضربها. لماذا إذن أمرَها أن تستحم وتخلع ملابسها؟ وما غرضه إذا لم يكن منهم؟

في وسط تساؤلاتها، كرّرَ عيّاش طلبه مُضيفاً: يمكنك أن تقولي لي أي شيء. لا تخافي.

أنتَ مع داعش؟ سألتْهُ.

ليس إسمهم داعش وإنما الدولة الإسلامية في العراق والشام. أنا مسؤول أمني في الحسبة، قال عيّاش موضِّحاً بأنَّ الحسبة هي شرطة الأخلاق. الدولة منحتني هذا المكان وهي التي تدفع فواتير الماء والكهرباء. الدولة الإسلامية مرتّبة وتجبي الضرائب من الأعمال التجارية حسب الربح. الدولة توّفر حاجاتنا اليومية لكي نعمل من أجل قضية وليس من أجل لقمة العيش.

امتنعت هيلين عن توجيه سؤالها إليه: ماهي القضية التي تجاهدون من أجلها فتذبحون الناس وتأسرونهم وتهجّجونهم من بيوتهم؟

بعد دقيقة من الصمت، بدأ عيّاش يلمسها. ندمت هيلين على صمتها فربما لو حكت له قصة حياتها لانشغلَ عن اغتصابها بالاستماع إليها؟

قال: ستدخلين الجنة، تعرفين؟

تذكّرتْ ما قاله لها أحدهم مرة بأنها في الجنة لن تكون إنساناً بل حورية لإمتاع المؤمنين.

لا، لن أدخل الجنة. سأكون في جهنم، هيلين أجابت عيّاش. أرادت أن تقول بأنها تفضّل أن تكون في جهنم إذا كان هو وجماعته في الجنّة.

لماذا؟ أي خطيئة ارتكبتِ؟ سألها.

إحتارت هيلين في الإجابة.

خرجتِ مع رجل بالسر؟ سألها.

نعم، مرّة فعلتُ ذلك.

يعني كنتِ على علاقة معه؟

خافت هيلين من ذلك السؤال فأجابت بسرعة: لا، هو كان على علاقة معي.

جمدتْ مثل صخرة وهو يتحسّس جسدَها. لم تدعه يشعر بآلامها في أماكن الرضوض وكانت متعَبة جداً فلا تقوى على مقاومة أي شيء. ستدعه يفعل ما يشاء فهو سيفعله إن شاءت أم أبت. وربما عيّاش هذا ليس كباقي الوحوش الذين أسروها قبله. ربما كان إنساناً وسُحِرَ إلى داعش. ربما قوة أخرى ستُرجعه إلى أصله كإنسان مثل بطل قصة الحسناء والوحش. جسدهُ الضخم فوقها يقطع أنفاسها وهي تشتهي أن تبكي. يأتي أهلها على بالها. لا يعرفون أين هي الآن، وكم سيغضب أبوها لو عرف بكل هذا الذي يفعلونه بها. كان أبوها رقيق القلب ويسامحها مهما فعلتْ وخاصة لدى رؤيته لدموعها. حتى في ذلك اليوم عندما كسرتْ كاميرا الأطفال ذات الصور الكرتونية، كان قد جلبها أحدُ أقاربهم هدية لأخيها آزاد وجلب لها دمية لم تعرف في البداية ماذا تفعل بها، لذلك سألتْ أخاها «تتبادل؟» هزّ رأسَه رافضاً وظلّ ينظر عبر عدسة الكاميرا البلاستيكية وهو يدوس على زر جانبي فتنقلب الصورُ المخزونة فيها. دزينة من الصور التي تتكرر بلا نهاية ولا شيء أكثر لكنها كانت كافية لتثير فضول الطفلين. طلبتْ منه أن يدعها تتفرّج هي أيضاً ولكنه ظلّ يضغط على زر الكاميرا متجاهلاً طلبها. انتشلت هيلين الكاميرا من يد أخيها وركضت. ركض وراءها وصار يطارد أحدهما الآخر حول البيت. سقطت الكاميرا من يدها

وانكسرت فعبس أخوها غاضباً ودفعها بقوة. ولذلك عندما رآهما الأب وهما يتعاركان بجانب الكاميرا المكسورة بدا أكثر غضباً على أخيها لأنه لم يكن يبكي مثلها.

هي لا تعرف أين آزاد الآن. هل يبحث عنها؟ هل عرفتْ أمُّها بأنها مختطفة؟ تخيّلتها وهي ترنّم تلك الترنيمة الحزينة التي بين النشيد والنشيج مثلما تفعل كلما ندبت شخصاً مفقوداً، سواء كان قريباً أو غريباً، ففي بيتهم كان يتسامر الجيران في كل نهاية اسبوع، وفي آخر الجلسة حين يحلّ الظلام يغنّون. صوت أمها جميل دائماً، وهي تغنّي فرَحاً وهي تغنّي حُزناً. أحياناً كانوا يتجمّعون في بستانهم المجاور لبيتهم مثلما يحلو لأبيها لأنه يحب أن يدعو ضيوفه إلى قطف التين طازجاً من الأشجار. كان أبوها معروفاً جداً بين كل سكّان القرية لأنه الوحيد بينهم الذي كان يعرف كيف يختن الأولاد بتلك الخفّة والمهارة. لم يولد ولد في قريتهم وبعض القرى المجاورة إلا وجاؤوا به إلى أبيها من أجل الختان. هكذا كان يكسب رزقه إضافة إلى الهدايا التي كان يجلبها أهل الولد إلى بيتهم، ولو أنّه لم يكن يوفّر شيئاً مما يكسب إذ كان يصرفه في العزائم ويغدق على ضيوفه بكل ما يملك وكان يتقصّد أن يعزم المزارعين ممن لم ينبت زرعهم في ذلك الموسم فيعطيهم من مالهِ. مرة جاء إلى بيتهم أحد المزارعين وملأ غرفة جلوسهم بالرمّان لأنَّ اباها رفض أن يستعيد منه المال الذي سبق أن أعطاه له وقت الحاجة. في ذلك اليوم نفسه، جاء خالها مُراد إليهم من المدينة وطلبَ من أمها أن تذهب بصحبتهِ إلى عائلة البنت التي كان يريد أن يتزوّجها. واقترح الخال أن يصطحب هيلين وآزاد أيضاً لأنهما دائماً يحبّان أن يذهبا إلى مدينة سنجار. «أنا آتي،» قالت هيلين بفرح، بينما رفض آزاد أن يذهب معهم لأنه كان قد اتّفقَ مع صديقه أن يذهب معه إلى البستان فهناك شجرة عليها حيّة، يقول آزاد بأنهما يتحدّثان إليها ويلعبان معها. أبوها قال لخالها: لن تذهبوا إلى أي مكان إلا إذا أخذتم كلَّ ما قدرتم حمله من أكياس الرمّان هذه. خذها واهدها لأهل خطيبتك يا مراد.

حملتْ أم هيلين كيسين من الرمان وفعلت هيلين مثلها، وناول الأب كيسين آخرين لمراد، ومضوا في طريقهم. في المدينة، أخذهما الخال إلى

السوق بعد أن تركوا الرمان في بيته. وضعَ هيلين الصغيرة على كتفه فصارت فوق مستوى البضائع وزحام الناس، وقد عطست مراراً على رأسه بسبب استنشاقها التوابل التي كانت معروضة بأكياس مفتوحة كبيرة. توقّف أمام إعلان لفلم جديد في السينما التي كانت على بعد شارعين من السوق فاقترح أن يذهبوا لمشاهدته. إنذهلت هيلين أمام شاشة السينما الكبيرة وقد تبادل خالها ابتسامة مع أمها لأن هيلين كانت جالسة كالكبار ساقاً على ساق. لدى عودتهم إلى بيتهم في القرية، ركضتْ هيلين إلى أبيها وقالت: ماما خافت من الفلم وأنا ما خفت.

الأطفال لا يخافون. عندما تكبرين ستخافين من الأفلام المرعبة مثل أمّكِ، أجابها.

ولكن هذا الفلم المرعب الذي أشاهدهُ وأنا كبيرة يرعبني يا أبي. هو حقيقة أعيشها. لو كانت حياتي فلماً لارتعبتُ من تفاصيله. هل تتذكّر يا أبي كيف غضبتَ حين صفعتْني المعلّمة يوماً وأنا بكيت؟ منعتَني بعدها من الذهاب إلى المدرسة حتى أقنعتُكَ بأنها «لم تكن صفعة قوية، لم أشعر بها يا أبي.» وأنتَ قلتَ «لا أقبل أن يمدّ شخصٌ يدَه عليكِ أيّما كان.» لو تعرف يا أبي، كم واحداً صفعني بغيابك، كم واحداً اغتصبني. هل تتذكّر يا أبي، مرة في الليل، على سطح بيتنا، كيف كنتَ تنظر إلى الأعلى وسألتكَ «أين تنظر؟» أشرتَ إلى فوق. قلتَ لي «لكل شخص نجمة هناك في السماء. انظري، تلك نجمتك. متألقة مثلكِ. أريدكِ دائماً عالية مثل تلك النجمة. لا تحني رأسكِ أبداً يا هيلين.»

لو فقط أضع رأسي على كتفك وأبكي عليه يا أبي. لا تُنزلني من حضنك أرجوك.

تنساب الدموع من عيني هيلين وهي تناجي أباها الغائب.

كان عيّاش قد انتهى منها قبل قليل والآن فاجأها بأن مسحَ دموعها.

لماذا تبكين؟ لأني تزوجتكِ؟ سألها.

لا، تذكّرتُ أهلي.

بعد أكثر من شهر من إقامتها في ذلك المنزل، غامرت هيلين أخيراً بأن فتحت التلفزيون. كانت قد قاومت تلك الرغبة لأنّ عيّاش حذّرها من مشاهدة التلفزيون خشية أن تتسرّب إلى أسماعها الأغاني وبرامج الكفّار. لكن رغبتها القوية في مشاهدة الأخبار جعلتها تقوم بتلك المجازفة في ذلك المساء. أرادت أن ترى فيما إذا كان العالم الخارجي على عِلم بما يجري لها وللناس في هذا الجزء من العالم. كانت فترة تلاوة القرآن حين فتحت التلفزيون، وبالرغم من احساسها بأنّ استماعها للقرآن لن يعرّضها للخطر، ظلّت تنظر ناحية الشباك خشية أن يكتشف الحارس فعلتها أو أن يرجع عيّاش في أية لحظة. بعد القرآن، ظهرَ فلم كرتون. أطفأت التلفزيون متأمّلة أن تصادف فترة الأخبار حينما تفتحه المرة القادمة. لكنها بعد عشر دقائق لمحتْ عبر النافذة عيّاش وهو يتحدث مع الحارس بجانب السيارة. حين دخلَ البيت، قالت له هيلين «أردتُ أن أسألك إذا كان بالإمكان مشاهدة البرامج الدينية وأفلام الكرتون مثلاً في التلفزيون. أنا وحدي هنا والوقت بطيء.»

لا، سنقوم بتسليم أجهزة التلفزيون للمنظمة، قال عيّاش بنبرة صارمة، ولكن إسمعي، هناك عائلة جديدة في طريقهم إلى هنا، فالمنظّمة منحت الطابق الثاني من هذا البيت لرجل من الشيشان يلقّبونه بأمير الصحراء فهوَ وقّع على عقد امتلاك زوجة ومتعلّقاتها وأطفالها. أمير الصحراء رجل موهوب ومصمّم أزياء من الطراز الأول وقد صمم للدولة ملابس رجالية لا تختلف عن موديل زمن الخلفاء الراشدين.

متى يأتون؟

ربما بعد يومين أو ثلاثة لحين تخرج المرأة من المستشفى. أُغمي عليها في الطريق فاضطرَّ أمير الصحراء أن يأخذها إلى المستشفى. وهناك اكتشفوا أنّ سبب الاغماء هو الجفاف الشديد وهي لم تطلب ماء. على أية حال تحسّنت

حالتها ولكنها ستنام في المستشفى يوماً أو يومين. سوف تتسلّين معها حينما تأتي.

لم تستطع هيلين النوم ليس فقط لأن عيّاش يشخر بقوة وإنما لأنّ النوم لا يأتيها بسهولة. منذ اليوم الأول الذي أُسِرت فيه وهي تعاني من الصحو المستمر فعندما تغلق عينيها، تصحو أكثر. ليس الصحو بمعنى عدم النوم وإنما الصحو بمعنى التذكّر. يتجلى أحبّاؤها كلما تغلق عينيها. لكنها الليلة تفكّر أيضاً بالأسيرة التي ستلتحق بها في هذا المكان.

في الصباح، أخبرها عيّاش أنّ شخصاً في طريقه إلى البيت ليأخذ التلفزيون إلى المنظّمة. ظلت هيلين في غرفة النوم بينما ذهب عياش ليساعد ذلك الرجل في حَمل التلفزيون إلى البيكب. حين سمعتْ صوت صفق الباب عرفتْ بأنّ عيّاش خرج، فتركتْ فِراشَها وتوجّهت إلى غرفة المعيشة وقد لاحظتْ الحيز الفارغ الذي كان فيه التلفزيون سابقاً. اقتربتْ من الباب الأمامي. كانت تعرف بأنه مُقفَل ولكن تولّدت لديها هذه العادة فتجرّب كل ساعة أن تفتحه بلا جدوى. الباب المقفل هو مجرد جدار آخر. فلتنسَ الأبواب. ماذا عن النافذة؟ ماذا لو تكسرها؟ أن تكسر زجاج النافذة أسهل من كسر الباب. كانت قد فقدتْ الكثير من وزنها مؤخراً وربما يمكنها النفاذ عبر المساحة الصغيرة بين قضبان النافذة الحديدية. اقتربت أكثر من النافذة لتتفحّصها جيّداً. مساحة صغيرة ربما تكفي لتعبر منها إلى حياتها. النافذة جدار أرحم من الباب، على الأقل يمكنها أن ترى شيئاً من خلالها. ولكن ذاك الذي تراه في هذه اللحظة هو نفسه الشخص الذي لا تريد أن تراه. إنه السائق الذي جلبها مع عيّاش إلى هذا المكان وهو مكلّف بحراستها. كان واقفاً بجانب سيارته الشوفرليت أمام البيت يتحدث بالتلفون. تمنّت هيلين لو يختفي فجأة فتكسر زجاج النافذة وتركض. كم ستركض! حتماً دونما توقّف. كان صباحاً مشرقاً لكن ما الذي تعنيه الصباحات المشرقة للسجناء؟ مشرق أو غير مشرق، ما الفرق هذه اللحظة؟

إلتقطت هيلين منشوراً من المنشورات على الطاولة. كانت رزمتها أكبر البارحة. لابد أنّ عيّاش أخذ منها معه ليوزّعها على سكّان المنطقة لكي يعرفوا بأنَّ «على الموظفين أداء القسم على طاعة الدولة والتوبة من المهمات الحكومية السابقة. على المواطنين تسليم أجهزة التلفزيون والدش لأنها تبث برامج محرَّمة من خارج منطقة التنظيم. الموسيقى حَرام ماعدا تلك المصاحبة للأناشيد الدينية.» قلبت هيلين الصفحة وقرأت خطبة أمير المؤمنين عن «القيم التي تسعى الخِلافة إلى تحقيقها مثل إعادة توزيع الثروات ومحاربة الفساد» وعن «الدولة التي ستُعيد أمجاد الخِلافة»

في المطبخ، فتحتْ هيلين الخرانات لترى ما بداخلها وتحديداً أي آلة مناسبة لكسر النافذة. من تحت بطاقات تجارية وقوائم مشتريات متفرقة، لمحتْ ألبوم صور صغير مكتوب على غلافه «ألبوم العائلة.» فتحتْهُ وتصفحّتْ صور العائلة التي سكنتْ هذا البيت. بعضها بالأبيض والأسود مثل هذه التي تظهر فيها زهرة إلياسمين أمام واجهة البيت. لم تكن متأكّدة بأنّها صورة هذا البيت فهي لم ترَ واجهته سوى مرة واحدة حينما دخلتْه. بعدها صورة امرأة كبيرة السن وراحة يدها منبسطة تبدو كأنّها تتحدّث مع شخص لا يظهر في الصورة. إمرأة أخرى أصغر سنّاً شعرها قصير جداً ترتدي نظارة طبية تظهر في عدة صور ملوّنة. هنا مع بنتين صغيرتين في حديقة عامة وأشجار عملاقة في خلفية الصورة. إبتسامتها حلوة جداً. عندما يبتسم شخصٌ في الصورة، تبقى الابتسامة هناك مدى العمر بالرغم مما يحدث في الواقع والذي قد لا يدعو أحياناً للإبتسام. هذا الرجل ربما هو الأب ولو ليس معهم في أي من تلك الصور العائلية الأخرى. يبدو أنه كان يمتلك أو يشتغل في محل لبيع السجّاد والأنتيكات لأنه في الصورة يجلس مُحاطاً بمختلف البُسط ذات الزخارف الشرقية ولوحات من فن الخط. هذا يفسِّر وجود قطع السجّاد الجميلة في هذا البيت، في إحداها منمنمات لأشخاص محاطين بطيور فاردة أجنحتها الملوّنة. حتى الساعة على جدار المطبخ شكلها كلاسيكي وذات إطار مزخرف، ولو متوقّفة عند الساعة العاشرة وعشر دقائق. عقرباها مثل يدين تتضرعان لتغيّر ما، والزمن عاطل.

فتحت هيلين الثلاجة وأغلقتها. كانت جائعة فهي لم تأكل شيئاً منذ صباح البارحة ولكنها لم ترغب أن تأكل. كأن حواسها معطّلة فلا تعرف كيف تشعر بأي رغبة. مثل شبح بلا رغبة في هذا العالم سوى رؤية ناسها الحقيقيين الذين تعرف. لو كانت شبحاً فعلاً لامتلكت شفافية الأشباح في الحركة والتنقّل. أما أن تجد نفسها مع موتى ينامون معها في قبورهم التي تفوح منها رائحة جثثهم فلابد أنه كابوس لا تدري متى ستصحو منه. في ذلك الكابوس كانوا مرتدين نظارات قاتمة جاؤوا بها من القرن السابع ولذلك يرون الحياة بمنظار ذلك الزمان ويريدونها أن ترى معهم عالمَهم الميت وينكرون عليها عالمَها الذي فيه ناس يخصونها، ناس تحبهم وتفتقدهم بألم. هي مستعدة أن تدفع نصف عمرها مقابل أن تعرف فقط بأنّهم على قيد الحياة.

قطعت المسافةَ بين المطبخ وغرفة المعيشة عدة مرات بدون غاية، وعندما استدارت وقع نظرُها مرة أخرى على لوحة الخط العربي على الجدار. وقفت أمامها وقرّرت بإصرار أن تقرأها كاملة، وهذه المرة نجحتْ في ذلك. إذن تلك هي المقولة «نصف جمال الإنسان لسانهُ.»

هيلين تدرك جيداً بأنّ تلك المقولة لا تشملها هنا، بل عليها أنْ تلتزم الصمت ولا تستخدم لسانَها بالمرة بحضور أصدقاء عيّاش فلا يجوز أن يسمع الرجال الغرباء صوتَها فذلك حرام من وجهة نظرهم. عليها أن تقول الأشياء في قلبها فقط.

حين وصل الزوار ذلك المساء، كان صوتها حبيس حنجرتها وهي حبيسة حجرتها. في الحقيقة لها ثلاث حجرات يمكنها التنقل بينها، المطبخ والحمّام وغرفة النوم. هيّأت لهم الطعام في المطبخ ولكن لن تأخذه إليهم في غرفة المعيشة فلا يجوز لهم أن يروها. عيّاش يأتي ويأخذ صينية الطعام إليهم. حضّرت الشاي في «القوري» الكبير الذي سيُصفر وينفث البخار بعد قليل. سيمتزج صفيرُه مع صوت أناشيدهم الدينية التي تسمعهم يتلونها بحماس كمدائح للدولة وصنائعها، فليس عليهم أن يحبسوا الأشياء في قلوبهم.

أمير الصحراء الشيشاني كان من بين الضيوف الذين صاحبوا عيّاش إلى غرفة المعيشة في ذلك المساء، ولذلك عندما جاءها عيّاش إلى المطبخ

لاستلام الشاي، سألته هيلين بصوت واطيء جداً عن العائلة الجديدة: هل جلبهم الأمير الشيشاني معه؟

لا، ربما غداً، أجابها ومضى بصينية أكواب الشاي الزجاجية.

تترّقب هيلين أن تلتقي بالمرأة التي ستشاركها هذا السجن. لم يكن انتظاراً عادياً. كان توقاً لشخص مثلها، لصوت حبيس آخر. شعرت بأن تلك المرأة صديقتها القريبة بالرغم من أنها لم تقابلها بعد. ستجعل سجنها أقل وحشة بل ربما تهربان معاً. سترتديان النقاب وتخرجان إلى الشارع فلا تثيران الشبهات. هناك شرطة في كل مكان ولكن لن تعرفهما مادام لن يظهر منهما سوى العيون. ربما حتى عيّاش لن يعرفها إذا رآها في الشارع. على أية حال، هو سيكون مشغولاً بمراقبة ضبط النظام في المدينة والتأكّد من اتّباع أحكام التنظيم مثل إطالة اللحى للرجال وارتداء الملابس الشرعية للنساء وفرض غرامة على كل من يبيع ملابس غربية وخاصة التيشرتات التي عليها كتابات أجنبية. وفي أوقات صلاة الجمعة، إذا رأى ولداً في الشارع سيصرخ به ليلتحق بالجامع. وإذا استهزأ أو ضحك أحدهم في أثناء الصلاة سيستدعيه عيّاش إلى حبس تأديبي. وإذا عثر على مدخّن فسيعاقبه بخمسة وعشرين جلدة مضافاً إليها جلدات بعدد السجائر الناقصة من علبة الدخان. أما إذا رأى فتى يرتدي سروالاً لا يرتفع شبراً عن قدميه فإنه سيعاقب أهل الولد وتحديداً أباه بعشرين جلدة ومثلها من الجلدات للزوج الذي ترتكب زوجته غلطة في ملابسها كأن يظهر منها شيء تحت النقاب. عيّاش يتسلّم مئة دولار في الشهر مقابل عمله الذي يساهم في إصلاح المجتمع، حسب قوله. المنظّمة تدفع كل مصاريف معيشته اليومية فلا يحتاج أن يصرف المئة دولار تلك، كما شرح لهيلين، لكنها تعرف بأنه يصرفها على المخدّرات فقد تناولها أمام عينيها وأجبرها أن تتناول منها أيضاً، تقريباً في كل ليلة من ليالي الاسبوع الماضي. من الواضح أن المنظّمة لم تمنع تداول المخدّرات، ولكن هيلين أرادت أن تتأكّد فسألتهُ: فقط التدخين ممنوع، أليس كذلك؟

الكحول أيضاً ممنوع، أجابها وهو يحدّق فيها بتركيز شديد مما جعلها تخمّن بأنه يريد أن يقول شيئاً مهمّاً، ولكنها لم تتوقع المفاجأة التي تفوّه بها: سأطلق سراحكِ يا هيلين وأعود إلى عائلتي لأن ديننا يقول مَن يُطلق سراح عبد فلهُ أجر في السماء.

جفلتْ هيلين لدى سماعها ذلك وانتظرت أن يقول المزيد. سألها وهو يفرك جبينه بيده: ما رقم تلفون أهلكِ؟ سأبيعكِ لهم فأنا أحتاج إلى مبلغ من المال لكي أتمكّن من السفر. مَن يأتي إلى هنا لا يمكنه أن يعود. هناك مهرّب موثوق ولكنه يطلب أجراً كبيراً.

هل من الممكن الاستعانة بدليل تلفونات كردستان؟ فربما أعثر على رقم أحدهم، قالت هيلين.

سأرى وأخبركِ فيما بعد، أجابها.

متى؟

لا أدري. قلتُ لكِ فيما بعد.

نام عيّاش فوراً بعد أن غادر أصدقاؤه البيت وقد بدا عليه الإنهاك حتى أنه لم يقم بالصلاة ولا الاغتصاب هذه المرة. كادت هيلين أن تفقد صبرها بأن يأتي الغدُ بوعودهِ، ولا تدري لماذا ظلّت تفكّر في الياسمينة التي رأتها في ألبوم الصور. في الصباح حين غادر عيّاش البيت، أسرعتْ إلى النافذة لترى إذا كانت الياسمينة هناك فعلاً. لم تجدها، والأهم من ذلك لم تجد الحارس كذلك. قالت لنفسها هذه فرصة هروب جيدة. يمكنها أن تكسر زجاج النافذة بأية آلة قوية قد تعثر عليها في هذا المنزل. ستمشي بسرعة حتى تصل إلى الشارع العام وهناك ستوقف تاكسياً. ليس معها أي نقود ولكن عندما يوصلها صاحب التاكسي ستطلب منه أن ينتظر قليلاً كي تجلب له المبلغ من بيتها أو من بيت جارتها أم حميد. إذا قبضوا عليها في الطريق فمعنى ذلك أن يعيدوها إلى عيّاش وسيكون عليه إذا نفّذ قانون التنظيم بدوره أن يرجمها حتى الموت.

حتى لو لم يرغب عيّاش فعلاً بقتلها فإنه سيفعلها لأنه إن لم يفعل فستعاقبهُ المنظّمة بتلك العقوبة نفسها. هو بنفسه كان قد أعلمها بذلك. ربما من الأفضل لها أن تنتظر عيّاش ليساعدها في الهرب بطريقة أسهل ولو أكثر كلفة. ولكن ماذا لو غيّر رأيه؟ أو ماذا لو كان كلام الليل مجرد عارض من عوارض المخدّرات؟ لا، لن تنتظره.

أسرعت هيلين إلى المطبخ تبحث عن سكين لتكسر به زجاج النافذة.

المكعّبات

إرتدت هيلين النقاب ومضت عائدة إلى غرفة المعيشة وبيدها سكين كبير. وهناك جمدت في مكانها لأنها تفاجأتْ برؤية طفلة صغيرة جالسة بجانب صندوق الألعاب. كانت الطفلة منهمكة تماماً باللعب وظهرها باتجاه هيلين، تركّب مجموعة من المكعبات فوق بعضها البعض فترتفع مثل بناية عالية ثم تميل وتسقط جانباً. بدأت مرة أخرى وبنتْ ما يشبه بيتاً ثم دفعت الجدران إلى الأرض حيث تجلس فصار البيتُ المكعّبُ شكلاً مستوياً ذا بعد واحد. بدت مندمجة تماماً بالبناء والهدم حتى أنها لم تنتبه إلى وجود هيلين.

ظلت هيلين في مكانها، والسكين لايزال بيدها، فقد خشيت إذا تحرّكتْ أن تفزع منها الطفلةُ وتهرب مثلما تفعل فراشة رقيقة عندما يحاول أحدهم الاقتراب منها. تخيّلتْ هيلين وهي تنظر إلى مكعبات الطفلة لو أنها تفعل الشيء نفسه فتهدم هذه الغرفة، لو تستطيع إزاحة الجدران مثلما تفعل هذه الطفلة ببساطة بلعبتها، لو ينقلعُ السقفُ فترى السماءَ فوقها. ربما تسمع السماءُ صلواتِها بشكل أفضل إذا زال السقف. لو تنهدم الجدران فتركض إلى الهواء الطلق عائدة إلى بيتها. ليس إلى بيتها، في الواقع لا أحد في بيتها، إنما إلى بيت جارتها أم حميد. كانت هيلين قد تركت ابنتها معها وتريد أن تتأكّد بأنها بخير. ابنتها ليس لها إسم بعد، فقد وُلدت وهيلين في قمة تشوّشها فلم تتمكن من التفكير بإسم لها. يا تُرى أي إسم كان إلياس سيختار لها لو أنه كان هناك يوم ولادتها؟ كان سيفرح كثيراً أن يعرف بأنها أنجبتْ بنتاً مثلما كان يتمنّى. ياسر وُلد اسمُه معه فمنذ اللحظة الأولى نظرَ إليه أبوه إلياس وقال «ياسر.» ولأنها تعرف إعجابَه بلاعب كرة القدم ياسر رعد، لم تستغرب الإسم. كانت قد

سمعتهُ مراراً منه حينما يتوتّر وهو يشاهد اللعبة فيستنجد بلاعبه المفضل ليسجل هدفاً ويصرخ «يلّا ياسر!»

تغمض هيلين عينيها الدامعتين وتتذكّر. لابدّ أنّ جارتها قلقة عليها لأنها لم ترجع منذ ذلك اليوم الرهيب. ربما لن تتساءل ابنتُها عن غيابها فقد تركتها وهي حديثة الولادة. لكنها أرضعتها من ثديها وربما شعرت بغياب الثدي عنها؟

حين تراجعت هيلين إلى الخلف قليلاً، انتبهت الطفلة إليها فصرخت من الفزع وركضت بسرعة إلى الطابق الثاني. مضت هيلين إلى النافذة وهي تنظر إلى صورتها المنعكسة على الزجاج كامرأة ملثمة بالنقاب وتحمل سكيناً كبيراً كالساطور فلا عجب أن تهرب منها الطفلة! لمحت السيارة الشوفرليت متوقفة أمام البيت.

نزل السائق من السيارة وتوجّه إلى البيت فأسرعت هيلين بوضع السكين على الطاولة. دقّ على الباب دقتين ثم دخل وقال لها: اليوم عيّاش في مهمة جهاد ولن يعود حتى الغد فهل تحتاجين شيئاً؟

لا، شكراً.، أجابت.

سأكون هنا في المنطقة إن احتجتِ إلى شيء، قال ومضى عائداً إلى السيارة.

أعادت السكين والنقاب إلى مكانيهما وتوجّهت إلى السلالم. توقّفت تحتهما عساها تسمع صوت حيوات هناك في الأعلى صوتاً يعلمها بأنها ليست الوحيدة على قيد الحياة في هذا القبر. ليس من اللائق أن تصعد هي إليهم فماذا لو كان أمير الصحراء معهم؟ هؤلاء الرجال لا يشبهون الناس الذين عرفتْهم في حياتها لا من قريب ولا من بعيد. كانت هيلين وباقي البنات في قريتها يختلطن بالأولاد دونما مشكلة. وحتى عندما انتقلتْ إلى المدينة بعد الزواج، لم يسبّب لها الرجالُ أي خوف أو توجّس. ثم أنها لم تقابل بحياتها شاباً بمثل تلك اللحية الطويلة كالتي عند الداعشي. فقط بعض شيوخ المعابد كانوا يطلقون لحاهم بهذا الشكل ولكن أولئك كانوا طيبين لا يؤذون أحداً. من أين جاء هؤلاء؟ وكيف سُمح لهم أن يفعلوا كل هذا بأهل المنطقة؟ وهل صحيح ما

قاله عيّاش بأنهم في المستقبل سيحكمون العالم كلّه حتى الصين؟ ولكن يا تُرى لماذا قفز اليوم هكذا من الفراش عندما رنّ تلفونه وخرج على عجل؟ اختلطت مشاعرها بين التوجسّ والارتياح لمعرفة أنه لن يأتي اليوم فهي منذ أشهر لم تنعم بأن تُترك لشأنها دونما اغتصاب فشعرت بأنها اليوم مُنحت استراحة في ذلك السجن الغريب الذي يعاقبون فيه الضحايا وليس المجرمين. ومع هذا أرادتْهُ أن يعود فعساه يفي بوعده ويطلق سراحها.

كان الماء يغلي في «القوري» عندما سمعتْ هيلين وقعَ أقدام فأطفأت الفرن ومضت باتجاه غرفة المعيشة. نزلت امرأة من على السلالم وخلفها ولد وبنت، البنت نفسها التي كانت قد فزعت من هيلين قبل ساعة. أومأت المرأة برأسها لهيلين فقالت هيلين: مرحبا. أنا هيلين، أسيرة مثلكِ.

نظرت إليها المرأة نظرة حزينة ولم تردّ بشيء.

رجعت هيلين إلى المطبخ ثم عادت بسرعة وقالت: الشاي جاهز، تشربين؟

أومأت المرأة برأسها علامة الإيجاب. ناولتها هيلين كوبَ الشاي. نظرت إليها المرأة بإمتنان وقد جلست ولم تقل شيئاً. أشارت هيلين إلى الثلاجة وقالت: يوجد خبز وجبنة المثلثات.

نظرَ الولد إلى هيلين وكأنّه يريد أن يقول شيئاً ولكنه أدار وجهه وتمتم شيئاً لأمّه. في تلك اللحظة فهمتْ هيلين أنّ المرأة خرساء إذ لمحتْها تجيب إبنها بيديها. انبهرت هيلين بالولد إذ فهَمَ إشارات أُمّه دونما تلكّؤ وترجمها لهيلين. قال: أمّي تقول لكِ شكراً.

ابتسمت هيلين للمرأة الخرساء التي ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة. اشتهت أن تشرب معها قهوة فعادت إلى المطبخ وبحثت في الخزائن عن البُن. لم تعثر على أي أثر لقهوة ولكن وقع نظرها على مجلتين محشورتين بين مناشف يدوية. ارتجف قلبها لدى رؤيتها عنوان المجلة الثانية. «نينوى»

المجلة الشهرية التي كان يشتغل فيها إلياس. ربما هذا هو العدد الأخير من المجلة فتاريخه حزيران 2014 كما هو مدوَّن على الزاوية اليسرى من الغلاف يتزامن مع دخول قوات داعش إلى الموصل. وهم ألغوا صدور تلك المجلات التي على صفحاتها صور نساء سافرات مصيرهن نار جهنم كما يقولون. وقعَ نظرها على موضوع بعنوان «كيف تتخلصين من آلام الدورة الشهرية.» منذ وقت الأسر وهي تتنفس الصعداء كلما أتتها الدورة فهي بالتأكيد لاتريد أن تحبل. لاتزال تحتفظ ببعض حبوب منع الحمل فهي تخبئها تحت ملابسها مثل كنز. كانت ريحانة قد أعطتها لها ولأخريات بعد أن عثرتْ عليها وعلى أدوية أخرى في خزانة المطبخ الذي كانت تشرف عليه. تراها شربت جرعات كبيرة من تلك الأدوية وماتت؟ لا أحد يدري.

هيلين تذكّرتْ ليلى ونظرة الأسى العميقة التي كانت في عينيها حينما غادرت هيلين السوق برفقة عيّاش. تمنّت لو أنها ادّعت بأنّ ليلى ابنتها فربما كانوا سيسمحون لها بأن تصطحبها معها ولكن فات الأوان.

قلبت هيلين صفحات المجلة بحثاً عن أي شيء بقلم إلياس. المشكلة أنه كان أحياناً ينشر من دون أن يضع اسمه على المقالات. توقّفتْ عند موضوع بعنوان «ضربة شمس» متسائلة مع نفسها إن كان بقلم إلياس. مالت إلى «الكاونتر» وقرأتْ:

كان يوماً حاراً لا يشبه باقي أيام الربيع عندما أُعلنت الحرب الجديدة بوصفها «عملية تحرير العراق.» وصلت درجة الحرارة إلى المئة بالفهرنهايتي وكان الغبار شديداً مما جعل قائد القوات الأمريكية يتردّد في المضي بقواتهِ إلى بغداد، ولكن السماء بدت عادية بالنسبة للعراقيين الذين اعتادوا على ضربات الشمس والحروب، فلم يجدوا فيها ما يوحي بأي حدث غريب. ما كان يمكن لأي عراقي أن ينظر إلى السماء ويتخيّل مثلاً بأن جنوداً أجانب سيأتون بدباباتهم إلى هذه الشوارع الخطرة التي تبعد آلاف الأميال عن البلدان التي جاؤوا منها. حين وصل الأمريكان، لابد أنهم أُصيبوا بصداع من الشمس القوية ومن ازدواجية ردود أفعال بعض المواطنين العراقيين. ففي اليوم الأول احتفلوا بقدوم العم سام ووزعوا الحلويات، وفي اليوم التالي صرخوا «لا، لا

للاحتلال الأمريكي.» بعض الناس الذين فقدوا وظائفهم اخترعوا وظيفة جديدة لأنفسهم أسموها «مجاهدين.» أول مهمة من مهماتهم قتل المترجمين الذين يشتغلون مع الأمريكان. وصفوا أولئك المترجمين بالخونة وأسموا تلك المهمة «مقاومة.» المهمة الثانية خطف الناس ومطالبة أهلهم بفدية وهذه العملية أسموها «جمع تبرعات.» والمهمة الثالثة إرهاب الناس كي يهربوا من بيوتهم. تلك العملية أسموها «توفير مساكن للمؤمنين.» الآن ازدهر عملهم وصارت المنظّمة دولة لها علم وقوانين وبطاقات هوية مختومة. بل صارت تستقطب موظفين من كل أنحاء العالم. مهمتها الجديدة إلغاء ذاكرة الناس. لذلك اخترعت أسماء جديدة لكل شيء. مسرح شكسبير مثلاً صار إسمه مسرح شيخ زبير. محل الهَدايا صار محل الهِداية. مركز القضاء صار مركز قضاء وقدر.

كان للموضوع إسلوب إلياس الساخر في الكتابة فعلاً. ضمّت المجلة إلى صدرها وسرحت بعيداً. نسيت للحظة أين هي. لم تنتبه حتى سمعتْ صوتَ الولد. سألها «من هذا آخذ؟» كان قد جاء إلى المطبخ ليلتقط قطعةَ خبز من فوق الطاولة. فتحت هيلين الثلاجة وناولته جبناً. بدا لها بعمر ثمان أو تسع سنوات. من المؤكد أنه أصغر من عشرة لأنها سمعت من عيّاش بأنّ الأولاد بعمر عشر سنوات فما فوق لا يبقون مع أمهاتهم إنما يلتحقون بمعسكرات التدريب.

ما اسمكَ؟ سألتْه هيلين.

زيدو.

وما اسم أمك؟

إسمها غزال وأختي الصغيرة إسمها جوان، أجابها وهو يضع قطعة الجبن بداخل الخبز، ثم أضاف «كانت أمي تتكلّم سابقاً، فقدتْ النطق منذ ذلك اليوم حينما قتلوا أبي وعمّي وخالي أمام أعيننا وأخذوا أختي الكبيرة أيضاً.» بعد أن قال ذلك، وضع السندويشة جانباً.

ندمت هيلين لأنها فتحت جرحه. هي تعرف تماماً عن أي يوم يتحدّث. أغلقت عينيها ورأت المشهد نفسه الذي كان يراه زيدو. شاهدت المجزرة

وكأنها أمامها على شاشة تلفزيون. مشهد رمي الرجال في الحُفَر وإطلاق النار عليهم. الفتيان في اصطفافهم بلا قمصان بأيديهم المرفوعة، وأعضاء التنظيم يتفحّصونهم فيأمرون الذين نما لهم شعر تحت آباطهم بأن يلتحقوا بالمعسكرات والآخرين الذين بلا شَعر بأن يذهبوا مع أمهاتهم إلى «المضافة» لحين تهيئتهم للبيع. تُبقي هيلين عينيها مغلقتين على مشهد الأطفال الممسكين بأطراف أثواب جدّاتهم ورفضهم الإنفصال عنهن. لن ينفصلوا أبداً فقد دفنوهم أحياء معاً.

أسرعت غزال إلى المطبخ وحضنت هيلين.

أخذوا زوجي أيضاً، لا أعرف إذا كان حيّاً أم ميتاً، قالت هيلين والدمع يسيل على وجنتيها مثل ينبوع ساخن.

تخيّلتْ لو كان إلياس حيّاً، لما تحمّل أن يعرف كل هذا الذي يحدث لها. في أثناء مخاض ولادة ياسر كان إلياس خارج الغرفة يبكي لألمها. القابلة قالت لها فيما بعد: هذه أول مرة أرى رجلاً بهذا الإنفعال. كم يحبكِ!

بكت غزال معها وخرجت منها حشرجة بلا كلمات. رسمتْ إشارة بيدها. فهمت هيلين معناها فهي تقول لها «نهرب من هنا.» أومأت هيلين برأسها علامة الموافقة. لديهما الملابس اللازمة للهروب ورجلاهما غائبان. لم يرجع عيّاش ولا أمير الصحراء ذلك المساء. الأسيرات صرن يعرفن بأنه عندما لا يأتي الرجال إلى البيت ولا يتسامرون مع أصدقائهم ولا يتعاطون المخدّرات ولا يتلون الصلوات ولا يشاهدون مقاطع من أفلام إباحية في تلفوناتهم ولا يغتصبون الأسيرات فذلك معناه أنهم في جبهات القتال.

مشت هيلين إلى النافذة فرأت الحارس متكئاً إلى سيارته يتحدث بالتلفون. فكّرت بطريقة لتبعده ولو مؤقتاً عن المكان. ارتدت النقاب مرة أخرى وفي نيّتها أن تحتال على الحارس بأن تطلب منه أن يشتري لهم بعض الخبز. لكنه فاجأها بأن طرقَ الباب طرقتين. فتحه وقال لهيلين: جاءني تواً بلاغ بأن عيّاش استشهد اليوم في المعركة ولذلك عليكِ أن تعودي إلى المضافة. أنا مكلّف بإيصالكِ إلى هناك.

صُدمت هيلين لدى سماعها ذلك. قالت له: هل يمكن أن أنتظر هنا يوماً أو يومين كي أحضر دفنه؟

لم يعثروا على جثتهِ. يجب أن تأتي معي الآن، أجابها.

لا، لن آتي. سأبقى مع غزال! صرخت هيلين.

هذا أمر وما عليك سوى التنفيذ وإلا لن يروا جثتكِ أنتِ الأخرى.

أوشكت هيلين أن تنهار من الصراخ فحضنتها غزال وهي تبكي معها.

يلّا بسرعة، قال الحارس.

لم تتحرك هيلين، أخرج الحارس مسدّسه ووجّهه نحوها. رفعت غزال يدها وأنزلتها، أمسكت يد هيلين وسحبتها نحوها. بكت الطفلة جوان وهي ترى الحارس يقترب من هيلين والمسدس بيده. دفع غزال إلى الخلف وأمسك ذراع هيلين وسحبها خلفه بالقوة إلى الخارج. أغلق الباب وراءه بالمفتاح وسحل هيلين عبر باحة المنزل الخارجية وفي الوقت نفسه أطلق رصاصة متعمّداً نحو السماء. دفعها إلى المقعد الخلفي وأغلق الباب وراءها. انطلق بسرعة كبيرة، وعند رأس الشارع ضغطَ بقوة على كابح السيارة لأنّ طفلاً كان في منتصف الشارع. ركض رجل من الدكان القريب هناك وانتشل الطفلَ وهو يرفع يده شاكراً السائق. قرأت هيلين لافتة على واجهة الدكان مكتوب فيها «هنا يُباع دبس وراشي.» تذكّرتْ بأنّ ذلك هو الدكّان نفسه الذي كان يبيع طرشي وزيتون.

مَن ينتشلها من الخطر هي أيضاً؟ تساءلت هيلين وهي تلعن بداخلها ذلك السائق الذي أفسد عليها فرصة الهروب مع غزال.

وشْم الطائر

في مقعد السيارة الخلفي، تأمّلتْ هيلين بعينيها الدامعتين وشْمَ الطائر على إصبعها. فركتْهُ برفق. كان شائعاً بين أهالي قريتها أنّ ضياع خاتم الزواج هو نذير شؤم قد يؤدي إلى انفصال الزوجين. ولذلك سرت إشاعة في القرية بأنّ العاشقَين هيلين وإلياس استغنيا عن ارتداء الخواتم لأنّهما خشيا أن ينفصل أحدهما عن الآخر. فذلك ما حدث لخال هيلين الذي انفصل عن زوجته بعد شهر من ضياع خاتمه، ففكروا بأنّ الوشم دائمي ولا يمكن أن يضيع أبداً. ولكن في الحقيقة لم يكن ذلك هو ما جعل هيلين وإلياس يكشفان في حفلة زفافهما، وسط دهشة المدعوين، عن وشْم الطائر على البنصر الأيسر لكل منهما بدلاً من خاتم الزواج المتعارف عليه. السبب الحقيقي هو أنّ طائراً معيناً كان سبباً للقائهما الأول وصارَ فيما بعد رمزاً لحبّهما.

مضت 15 سنة على ذلك اليوم عندما إلتقت هيلين بإلياس. كانت في العشرين من عمرها، في طريقها من الوادي إلى بيتها في قرية حليقي على سفح الجبل. توقّفتْ في الطريق لأنها لمحت طائرَ القبج أمامها واقعاً في الفخ مربوطاً من قدمه الصغيرة بخيط شفّاف ملوّن مغروز في الأرض قرب شجرة التين. سمعت هيلين من أهلها الكثير من الحكايات عن شغف الصيادين بهذا الطائر الجميل وكيف أنّ جمالَهُ نقمة عليه فلا ينعم بحريته طويلاً إذ ينتهي سجيناً في قفص. لكن من حسن الحظ أنَّ أهالي حليقي التي يتواجد فيها بكثرة لا يصيدون الطيور ولا يأكلونها لأنهم يتطيّرون من ذلك، بل أنهم يقيمون طقساً سنوياً يحرقون فيه أقفاصاً خالية ويرقصون حول النار لاعتقادهم بأن ذلك الإحتفاء الذي يسمونه عيد الطيور من شأنه أن يبعث تطميناً لطيور منطقتهم التي ستنقر فيما بعد على نوافذهم كإشارة بأن هناك أخباراً في

الطريق إليهم. ويستبشر الحليقيون بأنّ حرق الأقفاص الخالية سيطردُ الشرَّ فتكون تلك الأخبار القادمة جيّدة على الأغلب. حتى طريقة تحرّك الحليقيين تتماهى مع حركة طيورهم فهم يتحركون معاً على هيئة جماعات مثل أسراب الطيور. حينما يمضي سرب طير إلى ينبوع ماء، يسبقه عادة طائر متطوع. يشرب من الماء وينتظر قليلاً فإذا تأكّد من خلو المنطقة من الصيّادين أعطى بشدوهِ إشارةً للسرب للقدوم بسلام إلى الماء. كالقرويين، طائرهم بسيط لكن مكابر. إذا أصابته طلقة صيّاد تراهُ يطير طيراناً عمودياً إلى أعلى ارتفاع ممكن حتى ينزف آخر قطرة من دمه قبل أن يسقط إلى الأرض كحجر. وعندما يُصاب بجرح، يتثنّى من الألم بحركات يبدو بها وكأنه يرقص. أهالي حليقي يسمونها «رقصة الألم» ويقلّدونها أحياناً على أنغام حزينة.

لا يخلو بيت من بيوتهم من الناي أو الطبل أو الطمبور حتى لو افتقرَ إلى كلّ شيء آخر، فلا بد من وجود آلة من تلك الآلات على الأقل، وإلا كيف يمكنهم أن يعزفوا ويغنّوا ويمرّروا تلك الأغنيات أباً عن جد؟ أغلبهم لا يعرفون القراءة والكتابة فالمدارس بعيدة عن منطقتهم ولكنهم، صغاراً وكباراً ذكوراً وإناثاً، يغنون أو يعزفون على آلة من تلك الآلات الموسيقية. كلما تغيب الشمس، يجلسون معاً حول القناديل المشتعلة ويبدأون الغناء. لكن عندما يموت أحدهم، يكون غناؤهم حزيناً ومصحوباً بالناي فقط. تسليتهم الثانية بعد الغناء هي سرد القصص. منها قصص حقيقية حدثت لأقاربهم وأخرى متخيَّلة وتبدأ بعبارة «كان ياما كان.» بعض قصصهم الحقيقية أكثر غرابة من تلك المتخيَّلة.

هيلين، كباقي سكّان القرية، ألِفتْ رؤية طيور القبج قرب أشجار التين، ولكن تلك كانت المرة الأولى التي ترى فيها طائراً واقعاً في مصيدة. دعت كومةَ الحطب تسقط من يدها على الأرض وانحنت تفكّ أسر الطائر. خفق جناحه عدة خفقات قبل أن يطبق برقّة على يدها وكأنه يشكرها. ما أن فكّت الخيط حتى خطا الطائر عدة خطوات متعثّرة. مسدّتْ ريشه المخطّط من الجهة اليسرى فأفردَ جناحيه وطار في الهواء الطلق. في تلك اللحظة جفلت هيلين لأنها سمعتْ شخصاً يصرخ خلفها بغضب: أنتِ، هناك. ماذا تفعلين؟

استدارتْ لترى شاباً يركض نحوها.

حقاً؟ أنتِ تعرفين ماذا فعلتِ؟ سألها.

لم تجبه هيلين فاستمرَ: منذ ساعة وأنا أنتظر أن يقع هذا الطائر في الفخ وعندما تحقّق هذا أخيراً، طيّرتهِ بكل بساطة؟

لم أعرف بأنه طائرك. حرام كان شبه ميت. ماذا لو أنها أُم وتريد أن تلتحق بفراخها؟ أنتَ تقبل أن تفرّق بينهم؟

لا تعرف هيلين لماذا قالت ذلك، ولكنها لم تتصوّر أن تؤثّر عليه كلماتها إلى ذلك الحد. بدا مصدوماً في البداية ثم نظر اليها نظرة عميقة حزينة. أشاح بنظره عنها نحو جهة التلال المبقّعة بالأخضر. حين عاد بنظره إليها، كانت عيناه دامعتين.

ابتعد خطوات وجلس على الأرض قرب شجرة التين. خفضَ رأسَه ساندأً جبهته بيديه. جلست هيلين بالقرب منه وهي محتارة ماذا تفعل أو تقول. فكّرتْ أن تتركه لعلّه يحتاج أن يبكي لوحده، لذلك التقطت حطبَها ومضت في طريقها. بعد عشرين متراً تقريباً، توقفتْ واستدارت نحوهُ. كان لايزال في تلك البقعة نفسها كأنه حلَّ محل ذلك الطائر الأسير. تردّدت لحظة ثم رجعتْ.

حين نهض ماسحاً دموعه، فرحتْ هيلين، تماماً كفرحها لحظة صعود الطائر من أمامها إلى الأعالي، وطيرانه بعيداً.

نظر اليها وقال: ماتت زوجتي مؤخراً تاركة ابننا الصغير. ماتت وهي ترضعه. كلماتكِ جاءت كالملح على الجرح.

آه، للأسف. شيء محزن فعلاً، أجابت هيلين وقد سقطت كومةُ الحطب من يدها.

التقطها عنها وقال: دعيني أحملها عنك إلى حيث تريدين.

شكراً ولكن بيتي بعيد، هناك على الجبل، قالت وهي تشير بيدها إلى الجبل.

لا بأس من ذلك، لو عندكم شربة ماء سأكون ممتناً.

عندنا شراب اللبن شنينة إذا أردت.

أومأ برأسه وعيناه تلمعان من أثر الدمع.

مشيا بصمت لساعة من الزمن عبر المنطقة الجبلية الوعرة وهو شيء اعتادت عليه هيلين فهي تنزل أحياناً برفقة صديقتها أمينة للتسلية وأحياناً لرعي الأغنام معها، أو لجلب الماء أو الحطب إلى البيت، ولكنها اليوم تسير بخفّة وبيدين فارغتين. صعدا الجبل الذي صخوره صلبة ولكن أليفة كالتجاعيد على وجوه الأجداد. بعد مسافة 500 متر تقريباً، قال إلياس وهو يلهث: لم أعرف بوجود مَزارع على الجبل.

توقّفت هيلين عند شجرة طماطم على جانب الطريق وقطفت واحدة حمراء. سألتهُ: تريد؟

أنزلَ إلياس كومة الحطب من يده، كدّسها على صخرة كبيرة، والتقط حبة الطماطم من يدها قائلاً: شكراً، ممكن نستريح هنا قليلاً؟

جلستْ على صخرة كبيرة ومستوية. جلس بجانبها وهو ينظر إلى شجيرات صغيرة نمت بين صخور الجبل. نظر إليها وقال: دائماً أرى هذا الجبل من بعيد ولم يخطر ببالي يوماً أن أتسلّقه.

جئتَ من بعيد؟

من الموصل. إسمي إلياس.

إنتظرَ أن تعرّفه بنفسها أيضاً ولكنها بدلاً من ذلك أطلقت صافرة قوية.

جفلَ فأخبرتْهُ بأنها صفرت لأهلها لكي تعلمهم بقدوم ضيف. قامت ففعل مثلها. في تلك اللحظة، التفت حيّة كبيرة على جذع شجرة صغيرة أمامهما. إلياس سحب هيلين من يدها وهو يصرخ: انتبهي!

لكن هيلين ضحكتْ وقالت: لا تخف، سأحمل الحيّة معي إلى البيت. هي فأل حسن.

حين اقتربتْ من الحية، صرخ بها إلياس: لا، لخاطر الله، أنا أخاف من الحيّة.

بعد لحظة بدا إلياس وكأنه ندمَ على قوله ذلك فاستدرك قائلاً: في الحقيقة، لا أخاف من الحيّة، ولكن لا أعرف كيف أتعامل معها فلم يسبق لي أن رأيتُ واحدة في البرية.

ابتسمتْ وقالت: لا بأس، سترى الكثيرَ منها في منطقتنا ولكنها مسالمة لا تؤذي.

سارا مبتعدَين عن مكان الحية وهي تقول: سنصل بعد قليل.

وضعت أصابعها على فمها وأطلقت صافرة أخرى ولم تمضِ لحظات حتى وصلت إلى أسماعهما صافرة أعلى وأقصر من الأولى.

قالت: ذلك أبي أجابني بأنه يرحّب بك.

أخبرها إلياس بأنه لا يعرف من هذه المنطقة سوى تلك الفسحة المستوية التي يذهب إليها عادة من أجل صيد القبج وبيعه في الموصل مما يضيف إلى ما يكسبه من كتابة المقالات للمجلات. أحياناً لا تُنشَر مقالاته فيلجأ إلى كسب المال من صيد الطيور وبيعها. «ولكني لم أتصوّر وجود حياة هناك فوق الجبال،» قال لها وهو يتجنّب أفعى أخرى مستلقية على جذع شجرة.

تسارعت خطواتهما تلقائياً بنزولهما من الجهة الأخرى من الجبل نحو الوادي الذي انفتح أمامهما فجأة كمساحة شاسعة خضراء سيقطعانها ليصلا إلى قريتها المنسوبة إلى قبيلة حليقي التي تسكن منذ زمن قديم لا أحد يعرف تاريخه بالضبط مثلما لا يعرفون عمرَ أشجارهم الموغلة بالقِدم. جرت تغييرات كثيرة في العالم خلال كل تلك القرون ولكن ليس في منطقة حليقي، فعلى الأقل لحد وصول إلياس إلى بيتهم ذلك اليوم في صيف عام 1999 لم يكن

عندهم تلفونات ولا إنترنيت ولا كهرباء. أما الماء فيجلبونه من الينابيع المتبعثرة حول القرية. إلياس يعرف بأن الحياة بسيطة جداً في القرى المجاورة لمدينته ولكنه تفاجأ بمدى بدائية العيش في منطقة وادي حليقي تحديداً. بدت له طريقة حياتهم شيئاً فنطازياً وغير قابل للتصديق في العالم الصاخب على حافة القرن العشرين.

أخبار العالم بالنسبة لهم محدودة بما يأتي به قادم من المدينة كإلياس فيصفرون للجيران كي يأتوا ويرحّبوا به ويسمعوا آخر الأخبار وكأنهم يستمعون إلى المذياع، ثم يعودون إلى رعي الأغنام والحِرف اليدوية والإعتناء أحدهم بالآخر. إذا لمح أحدهم بيتاً دونما نار تنّور مشتعلة سيهرع إلى ذلك البيت بالخبز لأنه يعرف بأن التنور المنطفيء لا يعني سوى أنّ أصحابه بلا طحين ذلك المساء.

سيلاحظ إلياس عدم وجود تلفزيون ولا راديو لديهم فيتساءل بداخله فيما إذا كان مزاجهم رائقاً هكذا بسبب عدم مشاهدتهم للأخبار والكوارث المحلية والعالمية أم بسبب طريقة حياتهم المسترخية؟ فهُم لا يصحون على منبهات ساعة وإنما على تغريد الطيور، لا مواعيد عمل محدّدة لديهم ولا أقفال، يتركون أبوابهم مفتوحة طوال الوقت للشمس والزوّار. حتى الحروب التي توالت على البلد لم تمسّ وادي حليقي بأكثر من كونها خبراً من الأخبار القادمة من بعيد فيضربُ الحليقيون لدى سماعها كفاً بكف ويُديرون رؤوسهم يميناً ويساراً علامة التأسّف والاستنكار. لا شرطة ولا صافرات إنذار ولا سجون ولا دخان سيارات. أطفالهم يلهون في الخارج ولا يخشى عليهم أهلهم من الضياع ولا من الغرباء. في الحقيقة، لا غرباء في وادي حليقي ولا أسرار فالكلُّ يعرف كلَّ شيء عن الكل في تلك البقعة النائية المنشغلة عن حسنات العالم وسيئاته.

الناي فوق القطعة الخشبية المعمولة كطاولة في زاوية غرفة المعيشة الكبيرة هو أول شيء لمحَه إلياس عند دخوله بيت هيلين. ما أن وصلا حتى استقبله أبو هيلين بقبلتين على الوجنتين مرحبّاً به كأنه قريب من أقربائه. صافحتهُ أم هيلين فقبّلَ إلياس يدها كما يفعل القرويون لكبيرات السن. دعتهُ

للجلوس على الأرض وتحديداً على غطاء سميك عليه شرشف مخيّط من قصاصات أقمشة متفرقة وملوّنة، كانت باقي أغطية الجلوس في الغرفة ذات لون واحد مائل إلى البني الفاتح. خلعَ إلياس حذاءه عند الباب وجلس. على الجدار أمامه كانت لوحة مؤطرة من قماش مطرّز بخيوط على رسوم لأشخاص رافعين أيديهم إلى الأعلى وفوقهم نجوم مختلفة الأحجام. لم يعرف حينذاك بأنَ هيلين هي التي غرزت الخيط على تلك الرسوم، فقد تعلّمت فن الإيتامين في درس الرسم. كانت من بين القليلات في القرية ممن ذهبن إلى المدرسة. أقرب مدرسة من وادي حليقي تقع على بعد أربع ساعات على الأقل. أولاً ثلاث ساعات مشياً على الأقدام من أجل النزول من القرية إلى المنطقة المستوية ومن هناك ساعة على الأقل بالسيارة للوصول إلى قرية سنوني التي فيها مدرسة. خال هيلين، مُراد، هو الذي اقترح أن يسجّل آزاد وهيلين في المدرسة التي كان يعلّم فيها. اعترضت أم هيلين في البداية قائلة بأنّ الطريق طويل وقد ينتهي الدوام قبل الوصول إلى المدرسة. أقنعها مراد مُقترِحاً أن يذهبا ثلاثة أيام في الاسبوع ويعملا واجب الدروس في البيت في الأيام المتبقية فالمدرسة تسمح بدوام جزئي للطلاب الساكنين في المناطق التي بلا مدارس. عرضَ مراد كذلك أن يبقيا معه خلال أيام الدوام فتلك فرصة لقضاء وقت مع الجد والجدة أيضاً.

لم يكن حب هيلين للمدرسة من أجل الدروس وإنما من أجل الرِحلة إلى المدرسة بتفاصيلها التي تبدأ صباحاً على ظهر الحمار الذي يوصلهما، هي وآزاد، إلى المنطقة الترابية، ومن هناك يأخذهما الخال مراد بسيارته البيكب. تصعد هيلين مع آزاد إلى بدن السيارة الخلفي المكشوف. تمضي المباني بسرعة إلى الخلف وهما في مكانهما يصعدان وينزلان بفعل طسّات الطريق فيضحكان كلما وقع أحدهما إلى الخلف أو إلى الأمام. في نهاية النهار، يعطيهما الجد بعضَ الحلوى، والجدة مرات تقول له «أخشى أن يشبعا بهذه فلا يأكلان الطعام الحقيقي.» تعلّمت هيلين من جدّها لعبة الكونكان بينما كان آزاد يفضّل الخروج مع الخال.

لم يكملا الدراسة بعد المرحلة الإبتدائية لكن ظلت هيلين تمارس الرسم. صارت رسوماتها وغرز الخيوط الملونة علـى القماش معروفة في المنطقة.

كان إلياس يتأمّل تلك اللوحة في غرفة المعيشة عندما جلبت إليه هيلين دلواً من الماء ليغسل يديه ووجهه. جلس على دكة أمام الدار مثلما لوحت له بما عليه أن يفعل. فتح يديه فسكبت عليهما الماء، وحين انتهى من الغسل ناولته منشفة بيضاء. عندذاك أطلق أبو هيلين صافرات عالية ومُكرّرة. استدار إلى إلياس قائلاً: أعلنتُ تواً عن حفلة هنا مساء اليوم على شرفك لكي يلتقيك ويسلم عليك جيراننا.

هذا كرم كبير ولكني لا أريد أن أكلّفكم كما أني قد لا أرى دربي عند العودة ليلاً، قال إلياس.

نحن دائماً نجتمع مع الجيران وخاصة عندما يزورنا ضيف. أصدقاؤنا يحبون ذلك، قال، كما أننا نتوقّع منك أن تبيت عندنا الليلة فلا يجوز أن نعرّضك لمخاطر الطريق ليلاً ومن الأسلم قطع الطريق بعد طلوع الشمس صباحاً فللنهار عيون كما يُقال.

أخشى أن تقلق أختي فأنا تركت إبني لديها على أن أعود وآخذه اليوم وإلاّ لأسعدني جداً أن أمضي وقتاً معكم. ماذا لو ذهبتُ وعدتُ مرة أخرى بعد يوم أو يومين؟ سأل إلياس.

أو بعد ثلاثة أيام أحسن لأن سيصادف عيد الطيور وهي فرصة لكي تشاركنا احتفالنا بحرق الأقفاص. هل رأيتَ طيورنا في طريقك إلى هنا؟ هي تطير قريباً من الأرض فلا تحب الإبتعاد كثيراً عن موطنها ولكن المشكلة يأتي صيّادون من مدن وقرى مجاورة بين حين وآخر بأفخاخ ينصبونها لتلك الطيور، قال أبو هيلين.

خفضَ إلياس رأسه لدى سماعه ذلك بعد أن القى نظرة خاطفة على هيلين فخفضتْ نظرها هي أيضاً.

نادت عليها أمّها من المطبخ قائلة «هيلين، تعالي.» وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمعَ فيها اسمَها. لا يعرف لماذا فرحَ ذلك الفرح العارم عند سماعهِ اسمها.

عادت هيلين من المطبخ وهي تحمل صينية وقدّمت له شراب اللبن - شنينة - ومعجنات التين.

استلذّ إلياس بطعم التين فقال وهو جالس معهم على الأرض: لم أذق بحياتي شيئاً أطيب من عجينة التين هذه.

إستعدلت رمزية أم هيلين بجلستها عند سماعها ذلك وقالت: هذا من عمل يدي. هناك تاجر يزورنا شهرياً من سنجار ليشتري مني كميات من هذه المعجنات فهو يوزّعها على الأسواق.

قال شمّو أبو هيلين: حتى على أسواق بغداد والموصل!

منذ الآن وصاعداً سأبحث عنها في أسواق الموصل وأتذكّركم، قال إلياس وهو ينظر إلى هيلين وهي جالسة بجانب والدها، ثم نهض تأهباً للمغادرة.

انتظر لحظة، قال له شمّو، وتوجّه مسرعاً إلى المطبخ.

ابتسم إلياس لهيلين وقد نهضت مثله. كانت تشبه أمها كثيراً أو بالأحرى هي النسخة المعاصرة لأمها فلا تضع غطاء الرأس الأبيض المدوّر ولا ترتدي مثلها الثوب التقليدي الفضفاض المشدود بشريط كتاني حول الخصر وإنما تنورة طويلة وقميصاً قطنياً. شَعرها القهوائي نازل إلى الكتف بتجعيدات صغيرة. متوسطة الطول مثل أمّها ولكنها أميل إلى النحافة.

عاد شمّو بكيسين كبيرين مليئين بفطائر التين الصغيرة وقلادة من التين المجفف إضافة إلى عجينة تين على شكل طائر كبير بداخل كيس من النايلون الشفاف.

هذا كثير جداً، قال إلياس. ولكن شمّو ناوله الأكياس بإصرار.

شكراً، قال إلياس.

يا هلا، أجاب شمّو.

ربما ثقيل حملها سيراً على الأقدام يا أبي، قالت هيلين.

فكّرَ في ذلك وأجاب «عندي حل.» ثم خرج مسرعاً من الغرفة.

بعد دقائق عاد وهو يسحب حماراً خلفه.

هذا الحمار خبير بالطرقات وهو دائماً يحمل ضيوفنا إلى أمكنتهم ويعود، قال شمّو وهو يمسّد ظهر الحمار، بإمكانك أن تركبه ونشدّ عليه الأكياس وعندما تنزل من الجبل إترك الحمار فهو يعرف كيف يعود.

لوّح لهم إلياس بيدهِ من فوق الحمار قائلاً: مع السلامة.

يا هلا، أجابه شمّو.

الحليقيون لا يقولون «مع السلامة.» فقط «مرحبا» و «يا هَلا.»

أحمر

بعد أن ترجّل إلياس من فوق الحمار وتركه يمضي عائداً إلى الجبل، وقف على الطريق الترابي في انتظار أن تمرّ سيارة تنقله إلى الطريق المبلّط. التفت عدة مرات إلى الوراء ليطمئن بأنّ الحمار صاعد في طريقه الصحيح حتى اختفى هذا عن أنظاره. بعد ربع ساعة لمح عن بعد سيارة فرفع يده ملوّحاً. تباطأت السيارة وتوقّفت أمامه.

إلى أين بالخير؟ بادرهُ السائق، كانت سيجارة بفمه المغطى كله بشوارب كثة.

لو توصلني إلى الشارع العام أكون ممنوناً منك.

إصعدْ.

صعد إلياس إلى جانب السائق فضغط الأخير فوراً على دواسة البنزين مُسبّباً رجّة قبل أن يقول: طريقي ناحية سنوني، يفيدك؟

جداً، فهناك كراج سيارات أركب منه إلى الموصل.

تمام. أوصلك إلى الكراج إذن.

سأتعبك معي.

بسيطة. سنكون هناك بأقل من نصف ساعة.

ممنون منك.

هلا، قال السائق، ونفث سحابة كبيرة من دخان سيجارته.

سأله إلياس: أنت من هذه المنطقة؟

من قرية حردان. تعرفها؟

سامع بها.

ليس مثلها مكان، حياة! قال وسحبَ نفساً عميقاً ونفثه في الهواء.

تعرف قرية حليقي؟ سأله إلياس.

نعم. منطقة جميلة أيضاً ولكن بعيدة، على حافة البلد. ليست حتى على الخريطة! فيها الكثير من أشجار التين.

وطيور القبج، قال إلياس.

طيور القبج تحب التين ولذلك تتجمّع هناك، قال السائق، يُقال بأنّ تغريدهم آسر بسبب تذوّقهم للتين اللذيذ الذي يُسكرهم. حياة! قال بتنهيدة.

كنت هناك تواً، هذه أول مرة أصعد إلى القرية. أحببتُها.

ناسها غير شكل. يرحبون بك سواء كنتَ غريباً أو قريباً. عندهم لبن لامثيل له. حياة!

نعم، والله صحيح.

رمى السائق السيجارة وأشعلَ أخرى ثم قال: مَن تعرف هناك؟

عائلة تعّرفتُ عليهم تواً. الأب إسمه شمّو وزوجته رمزية.

شمّو المطهرجي؟

لا أعرف إذا كان مطهرجياً.

بلى. مَن لا يعرفه؟ هو من أحسن الناس.

نعم هو كذلك.

وجد إلياس تناقضاً بين ملامح وجه السائق المكشّرة وروحيته المنطلقة وكيف كل مرة يقول «حياة!» ويصبح وجهه أكثر عبوساً كلما أخذ نفساً من سيجارته. بعد أن رمى سيجارة أخرى من نافذة السيارة، فتحَ الراديو. «مثل المطر سقط حبك في قلبي» كانت بداية الأغنية، لكن السائق غيّر المحطة إلى نشرة الأخبار. تمنّى إلياس لو تركه يستمع إلى باقي الأغنية لكنه خجلَ أن يطلب ذلك من السائق. جاء صوت المذيع الجاد: «حسب تقرير اليونيسيف الأخير، معدل وفيات الأطفال في العراق الآن هو الأعلى في العالم. مع ذلك أصدرَ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قراراً بإبقاء الحصار الإقتصادي على العراق وهذه هي المرة الأربعين التي يصوّت فيها المجلس على هذا القرار خلال التسع سنوات الماضية.» وبعد فاصل موسيقي قصير، استأنف المذيع: «العراق يعلّق الآمال على الفريق العراقي لكرة القدم للمشاركة في أولمبياد سيدني 2000 وسيلعب اليوم مع نظيره الأردني على ملعب مدينة الملك عبدالله الثاني في عمّان ضمن المجموعة الآسيوية الثالثة.» ختمَ المذيع نشرة الأخبار قائلاً: «سيشهد العالم هذا الصيف آخر خسوف للقمر في القرن العشرين وسوف تستغرق الظاهرة ثلاث ساعات فوق أوربا والهند والشرق الأوسط علماً أن العراق وسوريا هما البلدان العربيان الوحيدان اللذان سيشهدان الخسوف الكامل وستكون الظاهرة أوضح مايمكن فوق سهل نينوى.»

أوه، خسوف. لازم نتهيأ، قال السائق وضغطَ بسرعة على البريك لأنّ خروفاً عبرَ الشارع. إرتدَّ إلياس إلى الأمام والخلف جراء الوقفة المفاجئة ثم قال: هذا ضائع أم هارب من القطيع؟

لم ينتظر جواباً إنما السائق أجابه وهو يضحك: أو مجرد يشّم الهواء بمفردهِ.

ساد بينهما صمت بعد ذلك فانشغل إلياس أثناءه بالنظر إلى الأراضي البور الشاسعة على جانب الطريق.

أحتاج أن أعبئ السيارة الآن، قال السائق معرجاً إلى محطة وقود.

نزل إلياس وتوجّه الى دكان المحطة. عاد يحمل قنينتي كوكا كولا وكيسين صغيرين من الفستق المملّح ليشارك بها السائق.

أحب الفستق، قال السائق.

أوشك إلياس أن يقول «حياة!» لكنه اكتفى بالابتسام.

في كراج السيارات، شكرَ إلياس السائقَ وتوجّه بسرعة إلى سيارة بسعة 18 راكباً، كان سائقها واقفاً بجانبها ينادي: يلّا بعد نفرين!

صعد إلياس وصعدت بعده امرأة بيدها كيس بلاستيكي كبير. انتظر السائق لحين وصلت المرأة إلى مقعدها فقد كانت تمشي ببطء شديد. تظهر بعض خصلات شعرها الرمادي من تحت إيشارب أزرق، وعلى ظهرها المحني سترة طويلة الأكمام بالرغم من الجو الحار. ولم تمضِ ثلاث دقائق على انطلاق السيارة حتى سألت تلك المرأة السائقَ من مقعدها: أين مقر الجنود؟

خالة ماكو هكذا مقر، أجابها السائق، إلى أي منطقة تريدين أن تذهبي؟

لا أدري. الحجي أعطاك عمره، وصيّته إرجاع الكيس إلى المقر.

أي كيس؟ سألها السائق.

هذا هو الكيس، بداخله كل شيء، البدلة الخاكية والخوذة والحزام والبسطال. لبسَهم طوال حياته. الآن لا فائدة فيهم.

كيف تقولين هذا يا خالة؟ سألها السائق وهو يغيّر مساره في الشارع ليجتاز سيارة بطيئة، ثم أضاف: إذن أين النضال والعروبة والتضحية؟

لا تقلق يا إبني، كلها موجودة في الكيس. أنت بس خذني إلى هناك.

في وقفة الباص الأخيرة، سألت المرأةُ: وصلنا؟

الراكب بجانب إلياس قال للسائق: حرام، عد بها إلى بيتها والأجرة عليَّ.

دقّ إلياس جرس بيت أخته الكبيرة سناء وما أن فتحت الباب حتى ناولها كيساً من معجنات التين.

من أين جلبتَ هذا؟ سألتْهُ.

من قرية حليقي.

لم أسمع بتلك القرية.

وأنا ايضاً لم أعرف بوجودها من قبل. لكنها خاصة جداً.

عجباً، ما الذي أخذك إلى هناك يا أخي؟

طائر القبج. سأذهب مرة أخرى بعد ثلاثة أيام وحينها أحتاج أن أترك يحيى عندكِ. ماشي؟

ماشي طبعاً. لازم أمامك مهمّة صيد كبيرة.

لا، لن أصيد طيراً بعد اليوم.

حدّقت في عينيه وقالت: أمورك غريبة اليوم. ماذا ستفعل هناك إذن؟

سأحتفل مع أهل المنطقة بعيد الطيور وربما أكتب موضوعاً للمجلة عن ذلك الطقس الخاص، أجاب إلياس.

في تلك اللحظة اشتغلت المبردة محدثة ضجيجاً ونافخة هواء ساخناً في البداية ثم بارداً فقالت سناء: الحمد لله رجعت الكهرباء. قتلنا الحر.

في زاوية الغرفة، كان يحيى الذي أكمل الشهر الثامن من عمره يلعب مع رولا التي تكبره بثلاث سنوات، تهفّيه بمروحة يدوية من القش فيأخذها منها ويضعها في فمه وهي تقول «عيع.» جلسَ إلياس على ركبتيه بقربهما. قال لرولا «اغمضي عينيكِ» ففعلتْ. ألبسَها قلادة التين.

إحزري ما هذه؟ سألها.

تحسّستها بيديها وعيناها مغلقتان، قالت: ما هذه خالو؟

فتحت عينيها فقال: بإمكانكِ أن تأكلي هذه القلادة.

كلّها أم فقط واحدة؟ سألت.

اقتربت منها أمها سناء وقالت «كل مرة تينة واحدة فقط يا حبيبتي.» ثم همست لإلياس «أتراهن معك ستختفي هذه القلادة قريباً.»

كانت سناء قد انتقلت من قضاء سنجار إلى الموصل عام 1995 عندما حصل زوجها كَريم على وظيفة في قسم التسجيل في جامعة الموصل. وبعد ذلك بسنة لحق بهما إلياس وزوجته فأهل زوجته كانوا يسكنون في الموصل أيضاً وهو حر الحركة لأنه يعمل من البيت على نظام المكافأة. تدمع عيناه كلما تذكّرَ كيف ماتت زوجته وهي تُرضع يحيى. اشتكت من ألم في قلبها ولكن قالت حتماً سيزول بعد دقيقة أو دقيقتين. ماتت وبكى الطفلُ الوليد في حضنها وكأنه فهمَ ما حدث.

الآن يحيى في حضنه وهو يسير إلى بيته الواقع على بعد شارعين من بيت سناء. ما أن وصل حتى وضع يحيى في سريره الصغير واستلقى هو في سريره المجاور. أخذه ذهنهُ مباشرة إلى وادي حليقي. وجد نفسه مبتسماً لرؤيا هيلين واستلطفها جداً.

في الفجر أوقظه بكاء يحيى فأسرع بعمل الحليب له. الشيء الغريب أنه في تلك اللحظة التي فتح فيها عينيه على بكاء يحيى، فكّر في هيلين أيضاً. وحتى وهو يُطعم إبنهُ لم يتوقّف عن التفكير فيها. وجد نفسه يتوق للتمشّي معها حتى لو رافقتهما الحيّة. فيما بعد، سينزل إلى السوق ليشتري هدية لأهلها. فكّرَ أن يأخذ إليهم بعض الحلويات كي تتذوّقها هيلين أيضاً، ثم غيّرَ رأيه لأنّ الهدية التي تـُأكَل ستنتهي وهو يريد لهدّيتهِ أن تدوم ولكنه احتار بما يختار.

حاملاً يحيى على كتفه، أمضى إلياس نصف نهار في سوق السراي من أجل العثور على تلك الهدية. كان يوماً من أيام الصيف الحارة لكن أسقف

السوق المزخرفة المرتفعة حجبت حرارة الشمس عن المتبضّعين. مرَّ بدهاليز السوق يميناً ويساراً حتى استراح عند كافيتريا الحدباء المعروفة بعصير الرمان الطبيعي المخلوط بالجوز المطحون. مرّ النادل من أمام طاولة مقابلة وهو يدق بملعقة صغيرة على استكان الشاي. ضحك يحيى لتلك الحركة فانتبه النادل وجاء نحوهما وهو يطرق على استكان الشاي ويهز رأسه بطريقة تهريجية ليحيى الذي ظل يكركر. طلبَ إلياس شاياً لنفسه وعصير رمان ليحيى.

تدلّل عيني تدلّل، ردّدَ النادل ليحيى.

صدح صوت ناظم الغزالي من جهاز المذياع الكبير وهو يغنّي «يا أم العيون السود» وقبل أن تنتهي الأغنية وقفَ إلياس آخذاً يحيى في حضنه. دفع الحساب وخرج مسرعاً لأنه عرفَ أخيراً ماذا يريد أن يشتري. ترك سوق السراي متوجّهاً إلى زقاق الحمّام الذي يؤدي إلى دكان جبّار للأجهزة الجديدة والمستعملة. مثلما توقّع إلياس، كان صوت ناظم الغزالي يصدح من الدكان فصاحب المحل معروف بحبه لغناء الغزالي ولا يشغّل شيئاً غيره. على الجانب الأيمن من الدكان مذياع قديم على شكل صندوق مزخرف طوله متر وبجانبه أجهزة راديو أخرى كبيرة الحجم أيضاً من ماركات فيليبس وماركوني تبدو كلها للديكور أكثر مما هي للاستخدام اليومي. في الجهة اليسرى أجهزة أصغر حجماً وأكثر استخداماً. اختارَ إلياس مذياعاً أحمر اللون من ماركة القيثارة المصنوع محلياً وذهبَ ليشتريه. سمعَ زبوناً ممسكاً بمثله ولكن بلون أبيض يسأل صاحب المحل: بكم هذا الراديو أبو الوشّة؟

أجابه البائع: بسبعين ألف دينار. الوشة في البداية فقط وتختفي. الراديو الاجنبي ضعف السعر.

عندما جاء دور إلياس قال للبائع مبتسماً: أبو الوشّة مع بطاريات من فضلك.

لم يستطع إلياس النوم تلك الليلة حتى الثانية صباحاً ربما لأنه شربَ الكثير من الشاي مع المقالة الجديدة التي بدأَ بكتابتها بعد منتصف الليل. كتبَ: حين تشرق شمس الصباح على قرية حليقي تكون خيوطها جديدة ومنعشة كأنها تشرق هناك أولاً قبل أي مكان آخر في العالم. وعند الغروب تتجمع الظلال تحت الأشجار وبين البيوت وتهبّ نسمات من الهواء الرقيق فلا حاجة إلى استخدام المراوح. منطقة ساحرة، بالرغم من وعورتها، إذ تتنوع طبيعتها بين التلال والوديان والصخور وتلك الينابيع التي تجري تحت الأرض مثل مشاعر في الخفاء. اكتشاف جمالها نشوةٌ وكأنك تواً عرفتَ سرّاً قديماً من شأنه أن يُحدث فارقاً في حياتك. لم تتغير الحياة في هذه القرية خلال القرون الماضية إلا قليلاً. ولو أضفناها إلى الخريطة لرسمناها في الزاوية الشمالية الغربية من جبل سنجار بالقرب من حدود سوريا بين السلاسل الجبلية المطلة على الوادي.

توقّفَ عن الكتابة لأنه قرّرَ أن يكمل المقال بعد رحلته المرتقبة في اليوم التالي. ولكن ما لم يخطر في بالهِ أن يمرض يحيى بالحصبة في صباح اليوم التالي. هو طفل هادئ لا يبكي الا لسبب معين وهذه المرة بكى لأن جسمه كله كان يحكّه فقد تبقّع بالأحمر وارتفعت درجة حرارته فركض به إلياس الى العيادة. أوصى الطبيبُ دواءً خافضاً للحرارة وقال بأن يحيى سيحتاج إلى اسبوع على الأقل من الرعاية حتى يشفى.

ارتاح إلياس وهو يرى تحسّن حالة يحيى يوماً بعد يوم فصار يلاعبه ويمازحه قائلاً: ما أتت حصبتك ياحبيبي إلاّ الآن؟

ينام الطفل ويذهب إلياس بفكرهِ إلى هيلين: تُراها تفكّر فيه مثلما هو يفكّر فيها؟ هل افتقدته لأنه لم يحضر في الموعد المتّفق عليه؟ لماذا تفتقده وهي لم تره أكثر من سويعات محدودة؟ كيف حصل هذا له إذن وهو أيضاً لم يرها أكثر من تلك السويعات؟

لم يخرج إلياس من البيت خلال الاسبوع وفي اليوم الثامن حضرت سناء وسألته عند الباب: عجباً ما جئتَ ولا جلبتَ يحيى عندي. رولا تسأل عنه أيضاً.

كان مريضاً بالحصبة وهي معدية، أجابها وهو يرافقها إلى المطبخ حيث كان يحضّر الطعام ويحيى بالقرب منه في كرسيه العالي، الآن شفيَ وسيراهُ الطبيب يوم الأثنين ليتأكد بأنه شفي تماماً. إذا سارت الأمور على ما يرام أجلبه عندك صباح الثلاثاء الباكر لكي أقوم برحلتي إلى القرية قبل أن تشتد أشعة شمس النهار.

كان يحيى في كرسيه العالي ووجهه ملطّخ بآثار الشوربة. اقتربت منه سناء وقالت: لا شيء فيه، مثل الوردة.

لو رأيتهِ قبل اسبوع كان وردة حمراء من الحمّى، قال إلياس.

في ذلك المساء، وضع إلياس ابنه في سريره وجلس هو على السرير المجاور ليفكّر في القرية الجبلية التي تأخذ الزوار مئة سنة إلى الوراء. لقد تأخّرَ على عيد الطيور، فهل من اللائق أن يزورهم مع ذلك؟ أما التساؤل الأهم بالنسبة له: هل تفرح هيلين بقدومه أم إنه بالنسبة لها مجرّد زائر آخر؟

مشى إلياس نحو مطبخه حيث احتفظ بطائر قبج أنثى في قفص. فوق عينيها خط أسود كالكحل وريشها مخطط بتدرجات اللون البني، وصوتها يمنح المكان حيوية خاصة. هي غالية الثمن لو باعها كباقي الطيور التي باعها. ولكنه احتفظ بها للسلوى طوال السنة الماضية. يا تُرى هل تسامحه هيلين وأهلها لو عرفوا بأنه يحتفظ بطائر في قفص؟

لم يكن يوم الثلاثاء المصادف 10 آب 1999 مختلفاً عن باقي أيام الصيف اللاهبة لكنّ الشمس ملأت قلب إلياس بالحيوية والسعادة على نحو غريب. مضى غرباً باتجاه الجبل حاملاً الهدية الحمراء في حقيبة على ظهره.

توقّف عند نبع الماء في وادي حليقي حيث أخذ يشرب بيده. النبع إشارته فمنه يبدأ المسار صعوداً إلى القرية التي تبدو صغيرة من بعيد وكأن الطريق إليها بلا نهاية. تبدو بيوت القرية مرسومة رسماً دقيقاً على سفح الجبل فلا يدرك الناظرُ للوهلة الأولى بأنّها مبنية من صخور الجبل نفسها. كلها متشابهة بأشكالها المربعة وسطوحها المستوية ونوافذها الصغيرة وأبوابها المصنوعة من خشب خام غير مصبوغ. تفصل بين مجاميع البيوت بمسافات متوازنة أشجارُ التين واللوز والبلوط والتوت والبطم، وعلى التلال المنبسطة تنتشر مراعي الغنم.

بعد ساعتين من المسير، جلس إلياس على صخرة وقد انتابه هاجس بأنه ضائع. خُيّلَ إليه بأن الطريق استغرق وقتاً أطول من المرة السابقة عندما كان مع هيلين. نظر حواليه فرأى قطيع غنم غير بعيد.

سار باتجاهه وسأل راعية الأغنام: تعرفين بيت هيلين؟

هيلين فتاة بعمري؟ سألته وعلى وجهها ابتسامة العارف. على خدها شامة ولها ضفيرة شعر طويلة.

نعم، أجاب وقد بدا عليه الخجل.

أشارت الفتاة بيدها وقالت: ترى تلك التلة هناك؟ بعدها ممشى للبغال مصفوفة بحجر وبعدها بساتين التين. اعبر البساتين حتى تصل بستان السمّاق. بَعده بيت هيلين.

شكراً.

هلا.

في أثناء سيره تابعاً إرشادات الراعية، شعرَ إلياس بأنه في حلم رائع حيث تراءت الطيور وهي تردّد اسمَ هيلين مرات ومرات. استحضرَ وجهَها الذي على شكل قلب. هناك صفاء داخلي ينعكسُ على وجهها. بدت له شُجاعة وواثقة من نفسها، ولو غريبة بعض الشيء فهي تُصفر ولا تخاف الأفاعي. ربما

تبدو غريبة الأطوار بالمقاييس العامة، ولكنها جذابة. التناقض بين لون عينيها العسليتين وبشرتها الحنطية المائلة للسُمرة يزيدها جاذبية. ولكن بعيداً عن كل ذلك، ثمة شيء حيوي ونادر خاص بها وحدها لا يعرف كيف يوصفه.

عندما ابتلعَ الحوتُ القمر

لم يطرق إلياس الباب فقد كان مفتوحاً على مصراعيه ولا حركة تدل على وجود شخص بالداخل فظلَّ واقفاً عند الباب بضع دقائق حتى سمع صافرة طويلة إلى حد ما. استدار إلى حيث الصوت فرأى رمزية أم هيلين وراحة يدها اليسرى على فمها. سارت باتجاهه بثوبها الأبيض العريض المشدود من الخصر بحزام كتاني أصفر وعمامة الرأس المدوّرة البيضاء. سلّمتْ عليه بحرارة وقبل أن يردّ السلام وصلت إلى أسماعهما صافرة من بعيد ثم صافرة أخرى تختلف نبرتها فكأنها تتكون من مقطعين وليس واحداً.

تلك جارتي، قالت، دعوتُها لشرب الشاي فأجابتني بأنها ستكمل ما بيدها وتأتي لاحقاً.

هذا لطيف. ولكن ظننتُ بأنّي سمعتُ صافرتين.

نعم، لأنَّ جارتي تلك بعيدة ولذلك قامت جارتي الأقرب بتمرير الرسالة إلى الجارة الأخرى وأرجعت لي الجواب.

ابتسم إلياس وقد بدا له صفيرهم متناغماً مع نقنقة طيور القبج وكأنّ أحدهم الصوت والآخر الصدى.

قال: آسف، تأخّرتُ اسبوعين فقد مَرِضَ ابني وإلا ما كنتُ سأفوّت فرصة الإحتفال معكم بعيد الطيور.

لا تهتم بذلك. اليوم عيد أيضاً فكلما أتانا ضيف يصبح يومنا عيداً. المهم كيف صار إبنكَ؟

بخير، شكراً. كانت عنده حصبة والآن شفيَ منها.

الحمد لله، قالت رمزية وهي تمدّ يدها نحو البيت، تفضّل. شمّو في بستان السمّاق وسيأتي إلى البيت بعد قليل.

هل بالإمكان التمشّي إليه؟ سألها.

لمَ لا؟ البستان قريب هنا. دعنا نتمشّى إليه.

أنا ضعتُ تقريباً ولكن راعية دلّتني إلى بيتكم من خلال بستان السمّاق، قال إلياس وهما يتمشيان.

لا يوجد بستان سمّاق آخر غيره في القرية. كان تيناً من قبل ولكنه من الإهمال تحوّلَ إلى سمّاق.

لم أعرف بأنّ التين يمكن أن يتحول إلى سمـّاق، قال إلياس.

السمّاق ينتعش في التربة المهمَلة اليابسة التي فيها مشاكل، أوضحتْ له، لذلك يوجد عندنا مَثَل يقول راح التين وجاء السمّاق وذلك في وصف إبن عاق لأب عاقل.

أها. السمّاق أبو المشاكل إذن ولكنه لذيذ خاصة مع البصل.

ضحكت أم هيلين وقالت: نعم، صحيح. نحن نتبّل به الكثير من أكلاتنا. حتى أُم خيري تأتي أحياناً لتأخذ من هذه النبتة إذ تقول بأنها مضادة للإلتهابات. هي ذكيّة ماشاء الله لا يعبر عليها مرض إلا وتجد له حلاً.

هي طبيبة؟ سألها.

أم خيري طبيبة القرية ولو أنها لم تدرس في المدارس إنما ورثت العلم عن أبيها فتعرف كيف تعالج بالأعشاب. الحصبة مثلاً تعالجها بورق الزيتون. وإذا عجزتْ عن معالجة مرض تعطيك مهدئاً من الأعشاب المغلية لحين النزول إلى مستوصف سنجار.

حين دخلا البستان، كان شمّو مائلاً بجسمه إلى شجيرة صغيرة وبجانبه آزاد.

نادت رمزية: تعال يا آزاد، سلّم على ضيفنا.

بعد السلام والعناق، فرك شمّو ورقة خضراء بيضوية ومدببة النهاية بيده وقال لإلياس «شمّ هذه.»

استنشقها إلياس وقال «تشبه رائحة الليمون.» ثم أضاف «ليتني أساعدك اليوم بشغل البستان فيسعدني أن أتعلّم أكثر.»

ليس الآن فعلينا أن نتهيأ للعشاء وبعد ذلك جلسة الشاي مع الجيران، قال شمّو واستدار نحو رمزية وسألها: أخبرتِ الجيران ليأتوا، أليس كذلك يا رمزية؟

أومأت رمزية برأسها وقالت: أنا أسبقكم إلى البيت لأطبخ البرغل.

وكذلك استأذن آزاد قائلاً: سأكون مع دخيل إلى وقت العشاء.

لو أحببتَ أن تساعدني بشغل البستان يمكننا أن نعود غداً قبل خسوف القمر، قال شمّو لإلياس.

آه صحيح، غداً 11 آب يوم الخسوف الكامل، قال إلياس، ستكون الرؤية أوضح شيء هنا فوق الجبل.

خير إن شاء الله، سنفعل ما بوسعنا لإنقاذ القمر من الحوت، قال شمّو وبدأ يجمع في سلة من القش تلك الثمار الحمراء الصغيرة من عناقيد زهرية لا تعلو كثيراً عن تربة الأرض. توقّف ليشرح لإلياس: بذور السمّاق الطازجة هذه نأخذها معنا. سنرشّها بالماء والملح ونغطّيها بقطعة قماش من دون أن تمسّ الثمار ونتركها يوماً أو يومين وحين تجف نضعها في غربال ونفركها حتى نعزل القشور عن البذور وبعد أن نتخلّص من البذور نترك القشور في الظل قليلاً حتى تصبح بلونها الأحمر الجميل الذي تعرفه. ربما بإمكانك أن تأخذ منها معك إلى الموصل.

أَحب السمّاق الأحمر. وبالمناسبة عندي لكم هدية حمراء أيضاً، قال إلياس وهو يرفع الكيس الذي بيده.

يا تُرى ماذا؟ انتظر، دعنا نذهب إلى البيت أولاً كي يراها الجميع، قال شمّو مبتسماً.

في أثناء سيرهما خارج البستان، على بعد خمس شجيرات من البيت، صادفا ازاد مرة أخرى. كان يمسّد أفعى مع شاب آخر. توقّف شمّو لحظة وقال لإلياس: آزاد ودخيل صادقا تلك الأفعى منذ الصِغَر فهما يمرّان بها كل يوم في الطريق إلى البيت وهي كأنها تعرفهما وتنتظرهما فتنزل إلى ذلك الغصن تحديداً أمامهما حينما يمرّان.

هيلين قالت لي بأن الأفاعي هنا مسالمة، قال إلياس متأملاً أن يسمع شيئاً بخصوص هيلين، لكن شمّو اكتفى بقوله: نعم مسالمة فعلاً.

كانت رمزية تشوي الباذنجان على الفحم حينما دخلا البيت. بعد ربع ساعة دخل آزاد وتوجّه مباشرة إلى منقلة الفحم. التقط الباذنجان من قمعه وبدأ بنزع جلده المشوي بينما وضعت رمزية زيت الزيتون على قدر مسطّح كبير لتقلي الباذنجان المشوي المقشَّر. أطلق شمّو صافرة وتمنى إلياس أنها لمناداة هيلين. تحققت أمنيته فبعد دقائق دخلت هيلين وهي تحمل قِربة ماء. سلّمت عليه ومضت إلى المطبخ ثمّ عادت وبيدها كمية من خبز رقاق. نثرت عليه بعض الماء فأصبح ليّناً. وضعتْها على سلة قش يدوية وأضافتها إلى باقي الطعام الذي كان فوق فَرشة على الأرض. دخل شمّو إلى المطبخ وجلب قدر البرغل، وسأل «رمزية، هل نسينا شيئاً؟» فجلبت زوجته مسحوق السمّاق.

تمام. يلّا إلياس تفضّل، قال شمّو.

جلسوا حول فرشة العشاء وانتظروا أن يبدأ إلياس كما هي عادتهم حينما يأكلون مع ضيوف. وضع إلياس بعض السلطة في صحنه ففعل الكل مثله. رشّت هيلين بعض السمّاق فوق سلطتها فقلّدها إلياس.

قال شمّو لإلياس «لا تدع الباذنجان يفوتك» فأخذ منه إلياس. لفّوا الباذنجان بالخبز الرقيق ففعل إلياس مثلهم.

حين انتهوا من الطعام، قال إلياس: جلبتُ هذه الهدية على أمل أن تعجبكم.

وضع أمامهم راديو القيثارة الأحمر وأضاف: ربما يسلّيكم هذا لأن فيه أخبار العالم.

بدت عليهم الإثارة كلهم ففرحَ إلياس خاصة عندما عادت هيلين مع آزاد إلى الغرفة لمشاهدة المذياع.

لا يوجد راديو في القرية سوى في بيت عليكو، قالت رمزية، وهو يخاف عليه كثيراً ولا يسمح لأي شخص بلمسهِ، يسمّيه الصندوق السحري.

أدارَ إلياس مؤشرَ المحطات وأوقفهُ عند أغنية لديميس روسوس بعنوان «فار أوَي.»

قفزَ آزاد وعملَ حركات راقصة على نغمات الأغنية فضحكوا كلهم.

هذه هدية رائعة، قالت هيلين.

أيّدها شمّو قائلاً: شكراً يا إلياس لهذا الصندوق السحري.

سعيد لأن أعجبكم هذا، أجاب إلياس وقد راوده شعور بالرضى لجلبه المذياع بالرغم من شحّة مكافآت عمله ذلك الشهر.

عند المغيب، أشعل آزاد قنديلاً وهيلين قنديلاً آخرَ، وضعاهما أمام البيت كإشارة إلى استعدادهم لاستقبال الضيوف. حمل شمّو «قوري» الشاي الكبير ووضعه على منقلة فحم مشتعلة أمام البيت وبقربها صينية كبيرة فيها استكانات شاي زجاجية وحاوية مكعبّات السكّر.

بدأ الزوار يتوافدون إلى تلك المساحة الكبيرة الخالية التي تظلّلها أشجار التوت وهم يحملون آلاتهم الموسيقية. أمام كل بيت من بيوتهم توجد مثل تلك المساحة المفتوحة للزيارات والتسامر. أركنوا آلاتهم تحت شجرة التوت وذهبوا يصبّون لأنفسهم الشاي ويتحدّثون مع بعضهم البعض. كان أغلب الرجال يرتدون زياً متشابهاً هو سروال عريض وسترة من نفس اللون والقماش مع حزام من قماش عريض بلون مختلف. على رؤوس بعضهم طاقيات من قماش أبيض. لم تضع الشابات أي غطاء على رؤوسهن. فقط كبيرات السن وضعن عمامات الرأس العريضة. سار شمّو مع إلياس ليعرّفه على الزوار. تقدّم نحوهما شاب له شارب ولحية خفيفة وسلّمَ عليهما، فعرّفهُ شمّو على إلياس قائلاً: هذا عبدالله ابن أختي وهو يسكن في سنجار.

إلياس أخبرَ عبدالله بأنه بالأصل من سنجار أيضاً. وهما يتحدثان، بدا أنهما متقاربان جداً بالطول، 180 سنتمتراً تقريباً، ولهما نفس لون البشرة الحنطي. يرتدي كلاهما قميصاً أبيض وبنطلوناً معاصراً ماعدا أن بنطلون عبدالله من قماش رمادي وبنطلون إلياس جينز أزرق. ربما إذا خسرَ الياس بضعة كيلوات من وزنهِ لأصبح برشاقة عبدالله.

هذه قرية طفولتي، قال عبدالله، ولذلك أزورها بين فترة وأخرى.

متى انتقلتَ إلى سنجار؟ سأله إلياس.

قبل أكثر من عشرين سنة إذ انتقلَ والدي إلى سنجار ليعمل مع أخيه في زراعة الخضار، وكان حلمهُ أن يمتلك حديقة ولكنه مات قبل أن يحقّق ذلك، وأنا سعيتُ بعده لتحقيق ذلك الحلم نفسه.

أراد إلياس أن يسأله فيما إذا تحقّقَ حلمه أم لا، لكن عبدالله استأذن منه لأن رجلاً آخر ناداه. نظرَ إلياس باتجاه هيلين فرآها واقفة بجانب فتاة بدت أليفة الملامح بالنسبة له. بعد لحظات عرفَها فهي الراعية التي دلّته إلى هذا المكان. مشى إليهما فعرّفتهما هيلين قائلة: أمينة صديقتي، إلياس ضيفنا.

إلياس صافحَ أمينة وقد غمرته النشوة لأن هيلين لفظت اسمَه.

شكراً لكِ، كنتُ ضائعاً ودليتِني إلى هنا، قال موجّهاً كلامه لأمينة.

هناك ثلاث بنات إسمهن هيلين في هذه القرية، قالت أمينة، لكنني خمّنتُ بأنك تسأل عن بيت صديقتي الأقرب.

ابتسم ثلاثتهما. تساءل إلياس مع نفسه فيما إذا حكت هيلين لصديقتها شيئاً عنه. هل تكنّ له شيئاً خاصاً؟ هل تعرف كم يشعر بالفرح بحضورها؟

بدأ الزوار يجلسون على الأرض على شكل قوسين، قوس الكبار خلف قوس الأطفال.

حان وقت الجلوس، أليس كذلك؟ سألهما الياس.

نعم، أجابت هيلين، سيحكي أحدهم حكاية وسيكون من حق المستمعين أن يسألوا أسئلتهم في النهاية.

أومأ إلياس برأسه وتحرّك إلى الجانب ليفسح لهما مجال الإلتحاق بالآخرين. لمحَ تلويحة من شمّو يدعوه ليجلس بجانبه ففعل. كان عبدالله يجلس متقرفصاً أمام الجمع فقد كان دوره ذلك المساء أن يحكي حكاية. حين توجّهت الأنظار كلها إليه بدأ عبدالله الكلام: كان ياما كان في قديم الزمان إمبراطور إسمه جنكيز خان. كان يتوسع بامبراطوريته عن طريق سفك الدماء وإبادة القبائل واحتلال المدن. وعندما صار على فراش الموت أوصى حفيدَه هولاكو بأن يستكمل الفتوحات التي بدأها في غزو آسيا. نفّذ هولاكو وصية جدّهِ بأعنف ما استطاع. وفي ذلك الوقت، كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية وملتقى العلماء من كل مكان، وصلت شهرتها إلى أسماع القريبين والبعيدين بمن فيهم هولاكو فقرّر أن يحتلّها. توجّه إليها بجيشه وحاصرها. دمّر أسوارها وقتل الآلاف من سكانها وهدم معالم الحضارة والعمران فيها. وكان أول شيء استهدفه مكتبتها المعروفة باسم بيت الحكمة. رمى كل تلك الكتب التي تعبَ العلماءُ والأدباء في تأليفها في نهر دجلة حتى اسودَّت مياه النهر من الحبر. وحين رأى بأنّ أهل المدينة كانوا في قمة الغضب، طلب منهم هولاكو أن يأتوا بأكبر عالِم في بغداد لمقابلته. لم يقبل أي من العلماء أن يقابل الحاكم الظالم ماعدا عالِم واحد شاب لم تنبت لحيته بعد، قبلَ أن يذهب إليه بشرط أن يأخذ

معه جملاً ومعزة وديكاً. في يوم المقابلة نظرَ إليه هولاكو من فوق إلى تحت وسأله: لم يجدوا عالِماً أكبر منك ليرسلوه إليَّ؟ فأجابه الشاب: إذا كنتَ تبغي كبيراً فعندي جمل وإذا أردت ملتحياً فعندي معزة وإذا أردتً واحداً عالي الصوت فهناك ديك أيضاً في الخارج ينتظر.

أدرك هولاكو بأنه أمام شخص غير عادي. فرك ذقنه وقال: هل تعرف سبب قدومي إلى هنا؟

أجابه الشاب: أفعالنا وذنوبنا هي التي جاءت بك إلينا. لم نقدّر نعمة الله علينا فأوغلنا في صنع المشاكل بدلاً من حلّها.

إذن أنتم تريدون أن تخرجوني من هنا؟ سأله هولاكو.

إذا ابتعدنا عن الخلافات فيما بيننا لن تتمكّن أنت من البقاء هنا، أجابه الشاب.

توقّف عبدالله عن الكلام فرفعت بنت يدها للسؤال. أومأ عبدالله برأسه وهو ينظر باتجاهها فقالت: لماذا هولاكو استهدف المكتبة أول شيء؟

لأنه كان يعرف بأن المكتبة هي رمز تباهي أهل بغداد وقوّتهم في ذلك الزمان، أجابها عبدالله، كانوا يقولون بأن العالم كله ينفتح بين يديك لحظة فتحك الكتاب.

ليس عندي كتاب لأفتحه، قالت البنت.

وهنا رفع ولد صغير يده وقال: كيف أرى العالم كله في كتاب؟

كل شيء في الكون مكتوب بحروف صغيرة، قال عبدالله، والحروف تشكّل كلمات ومعان تأخذك إلى أي مكان في العالم وأنت في مكانك جالس تقرأ.

رفع إلياس يده فنظر إليه عبدالله منتظراً سؤاله. قال إلياس: عندي فكرة. أنا أعرف بأنّ المدارس بعيدة من هنا. مارأيكم أن أتطوّع لتعليم القراءة والكتابة لمن يرغب بذلك؟

جرت وشوشة بين المستمعين وصاروا يتحدثون كلّ من مكانه من دون أن يرفعوا أيديهم لأنّ نشوتهم أنستهم التقليد المتّبع. من موقعه في منتصف الساحة خاطبَ عبدالله الجمع: أرجو منكم السكوت لحظة لأني أريد أن أقول شيئاً لضيفنا.

حين سكتوا، استأنف عبدالله: بالنيابة عن قبيلة حليقي أشكرك يا إلياس لمبادرتك هذه. الذين يعرفون القراءة والكتابة هنا هم أقل من أصابع اليد الواحدة وربما بإمكانهم على قلّتهم أن يساعدوك في هذه المهمّة الكبيرة.

عاد بكلامه إلى جماعته القرويين سائلاً: مارأيكم أخواني وأخواتي؟

قال شمّو مازحاً: عبدالله أحسن مَن يلقي خطبة بيننا.

ضحك عبدالله وقال: أنا مستعد لمساعدة إلياس بالقليل الذي أعرفه.

نظر إلياس إلى هيلين مبتسماً ففهمت إشارته. قالت: أنا أتطوّع.

آزاد أيضاً يعرف القراءة والكتابة، قالت رمزية.

استجاب آزاد قائلاً: لا مانع عندي.

قال شمّو: يا إلياس، بيوتنا مفتوحة لك كما تعرف ولكن أخشى أن نكلّفك الكثير من الوقت وأنت على بعد ساعات من قريتنا.

أنا أحب هذه القرية، قال إلياس، وسأكون سعيداً إذا أتيتُ مثلاً مرّة في الاسبوع. إذا علّمتُ حرفاً واحداً في الإسبوع فالكل سيتعلّم القراءة والكتابة خلال شهور.

ترك عبدالله مكانه قائلاً: فلنحتفل إذن. حان وقت الموسيقى.

قاموا كباراً وصغاراً لالتقاط آلاتهم الموسيقية. مجموعة من الأطفال صعدوا على أغصان الشجر ليتفرّجوا من هناك. ذهبَ قسم من الكبار لشرب المزيد من الشاي، ومنهم مَن جلسَ متهيئاً للعزف، وحين بدأ أحدهم يداعب بأصابعه أوتار الطمبور تلاه آخرون مثل فرقة مدرَّبة.

لم يستطع إلياس أن يقاوم النظر إلى هيلين وهي تعزف الناي. بدت له أجمل وهي تعزف. كانت ترتدي فستاناً بلون البنفسج الفاتح، منسدلاً حتى اخمص قدميها، بـكمّين طويلين مطرزّين وعريضي النهاية على شكل زعنفتي سمكة. بدأ أحدهم يدندن موّالاً وأجابه آخر بمقطع مثيل ثم شاركهم الكل بغناء جماعي. تصاعدت النغمات وصار الإيقاع أسرع. عزفَ آزاد على الطمبور وتبعه شاب آخر بضربات سريعة على الطبل بما شكّل بداية لنغمات دبكة سريعة.

قام شمّو ليفتتح الرقصة وانضمّت اليه رمزية ثم توالى آخرون. وضعوا يداً بيد، صعدوا بأجسادهم إلى الأعلى ونزلوا بها إلى الأرض مشكّلين دائرة كبيرة. ترك شمّو الدائرة وتقدّم إلى إلياس يدعوه ليرقص معه في وسط الدائرة كتحيّة خاصة لضيفه. رقصا حافيين وهما يرفعان يداً وينزلان أخرى بما يشبه رقصة طيرين صديقين.

في النهاية عزفوا لحناً هادئاً استهوى قلب إلياس فصار يدندن مع الباقين. ومع ذلك اللحن رقصت أربع بنات بشكل انفرادي. وقفن وهن يتمايلن برقّة فتمايلت معهن أطراف أثوابهن العريضة. تحركن إلى اليمين وإلى اليسار وهن يرفعن أيديهن فوق رؤوسهن ويفتحنها للأفق كأغصان الشجر. سرن واحدة أمام الأخرى وأيديهن اليمنى تتمايل باتجاه الجمهور ثم تقدّمت إحداهن إلى الأمام واستدارت عدة استدارات وقد اشتدّت حدة الموسيقى وهي تستدير ثم توقّفت ساكنة وأحنت رأسها قليلاً ونزلت بجسمها إلى الأرض مثل طائر جريح. مدّت الراقصات الثلاث أيديهن نحوها فقامت، وسرن أربعتهن معاً بخفّة عائدات إلى أمكنتهن بينما انخفضت الموسيقى شيئاً فشيئاً مع نهاية الرقصة.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما وضع الجيران آلاتهم على ظهورهم ورحلوا. شعر إلياس بالخجل لتفكيره بأنه سيبيت مع العائلة في بيتهم فقال له شمّو وكأنه قرأ أفكاره: يا هلا بإلياس. هل تعرف بأننا نسينا أن نري ضيوفنا الراديو؟ ربما في الأمسية القادمة نشغّله ونفاجئهم به. تعال معي لأريك فراشك.

تبعَ إلياس شمّو إلى سطح البيت. كان هناك سريران منخفضان فلا يرتفعان عن الأرض بأكثر من شبرين. وسرير ثالث أكثر ارتفاعاً وفوقه حبل يتدلى على طوله قماش كتاني مطوي ومربوط بمشابك فيبدو مثل خيمة بيضاء. خمّن إلياس بأنّ ذلك هو فراش شمّو ورمزية. على جانب آخر منه سرير على طوله شرشف عليه أكوام من التين المتيبس. طوى شمّو طرفَي الشرشف، والتين بداخله، ووضعه على حجر مستطيل كبير إلى الجانب. نفضَ الفراش وقال لإلياس: هذا سريرك.

تمدّد إلياس وهو يفكّر بأنه ما كان سيمانع لو أنّ شمّو ترك التين معه على السرير فقد اشتهى أن يأكل منه قليلاً. لكنه بعد لحظات استبعدَ الأمنية مبتسماً فإذا تحققت معنى ذلك أن ينهض في الصباح وهو أسمن. منذ فترة وهو يحاول أن يُنزل من وزنه قليلاً إنما نقطة ضعفه الأكل في الليل وخاصة الفستق. نظر إلى نجوم السماء المتلألئة وهو يفكّر بأنه على الأقل سيخسر وزناً لدى سَيرهِ إلى القرية كل اسبوع لإعطائه الدروس. رأى أملاً يلمع مثل نجمة إضافية في السماء. تخيّلَ هيلين نائمة فأسدلَ جفنيه ليغطيها.

أيقظتهُ شمس الصباح القوية، ولم يكن على السطح غيره فنزل إلى تحت. كانت نوافذ البيت كلها مفتوحة ولكن لم يكن أيٌّ منهم هناك. نظر من النافذة إلى الخارج فرأى رمزية تخبز على التنور ورأى أطفالاً نائمين تحت الأشجار. كان المذياع بجانب الناي على جذع شجرة مستخدم كطاولة في غرفة المعيشة. التقطه وأدار المحطات حتى استقر عند فيروز وهي تغنّي «شايف البحر شو كبير/ بكبر البحر بحبك.» قبل نهاية الأغنية بقليل، دخلت هيلين الغرفة وبيدها سلّة صغيرة من البيض. توقّفت لتسمع فيروز وقد التقت نظراتهما المبتسمة لقاءً أشاع الدفء في قلب إلياس.

نمتَ جيداً؟ سألتْهُ.

جداً، وأنتِ؟ قال بينما تمنّى أن يسألها «كيف نمتِ في عيوني البارحة؟»

لم يأتني النوم، أجابت.

لماذا؟

لا أعرف.

دخل آزاد وقال موجهاً كلامه لهيلين: لا أعرف إذا كان بإمكاننا الذهاب إلى النبع اليوم فبالكاد نلحق أن ندقّ قشور الرمان والبلوط قبل التحضير للخسوف.

دعنا نفطر أولاً، قالت هيلين.

ماذا لو أذهب أنا إلى النبع وأجلب لكم الماء فتتمكنون من إكمال أشغالكم الأخرى؟ اقترحَ إلياس.

لكننا نذهب إلى النبع من أجل غسل أغطية الفراش وليس فقط لجلب الماء، أجابت هيلين.

لم يقل إلياس شيئاً فأضافت هيلين: نذهب مع أولاد وبنات الجيران لأن كلّنا نغسلها معاً ونتسلى بذلك. ربما يعجبك أن تأتي معنا هذه المرة؟

أنا مستعد تماماً، قال إلياس.

إذن يذهب إلياس بدلاً عني اليوم، قال آزاد وهو ينظر إلى أخته، وأنا أدقّ القشور ولكن علينا أن نستعجل قليلاً.

دعني أخبر الجيران بأننا سنلتحق بهم بعد قليل، قالت هيلين.

خرجت هيلين وأطلقت صافرة من مقطعين. جاء الرد بصافرة متقطعة. جلب آزاد «قوري» الشاي من فوق الجمر المشتعل وظهرت هيلين من المطبخ وبيديها لبن وبيض مسلوق وخبز ساخن. بعد فطورهم السريع، خرجت هيلين وعادت بالحمار الذي يعرفه إلياس.

يللا نمشي؟ سألته هيلين.

جاهز ولكن ألا نجلب الأغطية؟ سألها إلياس.

لا، ليس دورنا اليوم، قالت هيلين، كل مرة ننظّف أغطية بيت من البيوت. نتعاون كي لا نتعب.

مشى إلياس وهيلين مع الحمار إلى بيت تجمّعَ أمامه جماعة من الشباب والشابات مع حميرهم أيضاً. عرفَ إلياس بعضهم من أمسية البارحة. بعد أن تبادلوا التحيات، وزّعَ الشبابُ الأغطية على ظهور الحمير، وحين وضعوا قسماً منها على ظهر حمار هيلين، بدأوا رحلة النزول إلى الوادي وهم يتحدثون ويتمازحون طوال الدرب.

قال إلياس لهيلين: أرى البنات والأولاد يختلطون هنا ويخرجون معاً على عكس الحال عندنا في المدينة.

نحن هنا كلنا معارف، قالت.

تقريباً كم شخصاً يعيش في القرية؟

يمكن 500.

الأغلبية عوائل كبيرة، أليس كذلك؟

صحيح. نحن من العوائل الصغيرة في القرية. سمعتُ من أمي بأن مجيئي وآزاد إلى العالم كان معجزة لأنها وأبي كبرا بالعمر دونما إنجاب ولكن حدث ما لم يكم متوقعاً وأنجبتنا أمي توأماً. آزاد يقول بأنه أكبر مني علماً أنه يزيدني ربع ساعة فقط.

أنتما أحلى معجزة.

إبتسمت هيلين.

عند النبع، فرشوا الأغطية واحداً واحداً. كل غطاء يفرشونه يسكبون عليه الماء وينثرون مسحوق الغسيل، ثم يقفون كلهم فوقه. يمسكون أيدي بعضهم البعض ويضربون عليه بأقدامهم بما يشبه رقصة جماعية. وحين يصبح الغطاء نظيفاً، يضعه الشباب على قطعة خشب كبيرة لينشف. كانت هيلين بجانب إلياس فمسكت يده كما ينبغي. قفزا فوق الغطاء مع المجموعة وقلبه يكاد يقفز من صدره إلى الغطاء أمامهم. تكرّر ذلك بعدد الأغطية التي جلبوها

للتنظيف. تمنى إلياس لو أنهم يبطئون ويأخذون وقتهم فيُبقي يده بيدها لفترة أطول. ولكن لن تكون هناك فترة كافية أبداً، قال لنفسه.

لا يكفي الوقت أبداً، قالت.

حدّقَ فيها. هل سمعتْ دقاتِ قلبهِ لتقول ذلك؟

لأن علينا أن نسرع قبل أن يبلع الحوتُ القمر، أضافت.

التقطت هيلين وباقي الشابات أحجاراً صغيرة من الأرض وفرَكن بها كعوب أقدامهن بقرب النبع، بينما انهمكَ الشباب ومعهم إلياس برزم الأغطية النظيفة فوق الحمير.

حين وصلت هيلين إلى البيت مع إلياس، كانت عائلتها في انتظارهما من أجل تناول العشاء المبكر معاً قبل الالتحاق بالآخرين. سيتوجّهون كلهم إلى جبل يسمّونه سِنّ الكلب لأنه محاط بجبال وتلال أقل ارتفاعاً فيبرز بينهم كسن الكلب. حملَ شمّو فانوساً وناولت رمزية لهيلين وآزاد وإلياس صحوناً وملاعق كبيرة، وتوجهوا نحو قمة الجبل. كانوا من بين 400 شخص تقريباً حاملين الفوانيس والقدور والصواني والصحون والمغارف، ومتأهّبين كلهم لإنقاذ القمر خاصة وأنهم في بقعة مرتفعة بما يكفي لأن يتأملوا بأن يصل الضجيج الذي يحدثونه إلى أسماع الحوت فيخاف ويهرب تاركاً القمر يمضي بسلام. من المؤكد أنّ الحليقيين لن يتخلّوا عن القمر المتأزم وهو ينازع في جوف الحوت لئلا يحتقن ويحمرّ من النزف فتحدث في البلد كوارث وحروب.

المرة الأولى التي سمع فيها إلياس عن بلع الحوت للقمر كانت في أيلول 1980 وكان عمره آنذاك ست سنوات وقد سمعَ أمَّه تقول لجارتها عبر غيمة من دخان سيجارتها: سمعتِ نبوءة الحجي أبو التمّن؟ نشر في الجريدة بأنّ القمر سينخسف فوق العراق وأنّ حوتاً كبيراً سيبلعه فيسود الظلام وتحلّ كارثة كبيرة على البلد. لازم تحقّقتْ النبوءة وإلا ببال مَن تأتي الحرب مع إيران؟

سمعتُ أيضاً والكلام بيننا، قالت الجارة بصوت خفيض، بأنَّ الحكومة هي التي ابتكرت شخصية الحجي أبو التمن لكي يرمي الشعبُ اللوم على الحوت المسكين في جلبه الحرب وكل شيء. أما إذا كان الحجي أبو التمن شخصية حقيقية وليس بدعة فلابد أنه مجنون وإلا كيف يوصي الناسَ بأن يصعدوا إلى سطوح منازلهم ويدقّوا على القدور والصواني؟ كل ذلك لإفزاع الحوت!

استمرت الحرب وبمرور الأيام وازدياد عدد الموتى والجرحى في المدينة، رجعَ الناس يتحدثون عن الحوت الذي جلب الويلات إلى البلد، ولم يعد بوسعهم سوى أن يصعدوا إلى السطوح ويدقّوا بأقوى ما استطاعوا وعيونهم شاخصة نحو السماء وهم يردّدون «يا عالي بلا درج، قمرنا طايح بشدّة، نطلب منك الفرج.»

قبل نهاية تلك الحرب بيومين، قُتل أبو إلياس في الجبهة. جلبوه ملفوفاً بالعلم العراقي مع لافتة سوداء مكتوب عليها بحروف بيض «استشهد في الدفاع عن شرف الأمة.» تلك كانت واحدة من بين آلاف اللافتات المثيلة المعلّقة على واجهات المنازل خلال سنوات الحرب الثمان.

بعد ذلك بسنتين ونصف، صعد إلياس مرة أخرى مع أمه وأخته إلى سطح منزلهم كباقي الناس في المنطقة حاملين المغارف والقِدور لأنّ الحوت فعلَ فعلتهُ مرة أخرى وتقدّم ليبلع القمر. انقبض قلب إلياس الذي أصبح حينذاك في السابعة عشر من عمره وهو يرى القمر يختفي تدريجياً في السماء، خاصة وقد سبقت ذلك تهديدات من أمريكا لشن حرب على العراق. بعدها جلبت عاصفةُ الصحراء جيوشاً من مختلف أنحاء العالم لأنّ العراق بلع الكويت مثل ذلك الحوت، وهم كانوا يحاولون إفزاعه لإخراجها من جوفه. لكنهم استخدموا القنابل والصواريخ بدلاً من المغارف والقدور. تذكّرَ إلياس كيف انقطعت الكهرباء وهرعت سيارات الإسعاف لنقل الجرحى إلى المستشفيات وكثرت الغارات التي تسبق القصف الجوي. كلما دوى انفجار بالقرب من بيتهم، تجفل أم إلياس وتقول «أنعل أبو الحوت شكد جاب مصايب.» ويوم توقّفت الحرب، قال الناس «أخيراً الحوت زاع القمر. خاف وزاعه.» تبادلوا التهاني واختلطت أصوات الهلاهل بإطلاقات الرصاص في

الهواء. عاد الناس إلى ممارسة شؤونهم اليومية حتى أوشكوا أن ينسوا عادة الدق على الصواني لولا أن الحرب عادت مرة أخرى في نهاية عام 1998، هذه المرة باسم ثعلب الصحراء، فتذكّروا الحوت مرة أخرى. لم يحدث خسوف للقمر تلك المرة ومع ذلك صلّوا صلاة الخسوف وقدّموا القرابين من أجل دفع الشر عن بلدهم. لم تشهد أم إلياس حرب ثعلب الصحراء لأنها ماتت قبل اندلاعها بسنة. كان طبيبها قد أوصاها بالإقلاع عن التدخين وهي لم تعمل بوصيته. كانت تقول: اذا تركتُ التدخين سأموت في اليوم المكتوب نفسه ولو بصحة جيدة.

شعور إلياس أزاء هذا الخسوف اليوم يختلف عن غيره. ذهنه ليس مشغولاً بالقمر بقدر ما هو مشغول ببنت قروية ابتسامتها دافـئة كخبز التنور المدوّر. وبالرغم من تحذير بعض رجال الدين بأنّ حلول الظلام في أثناء آخر خسوف في القرن العشرين ينذر بنهاية العالم، لم يقلق إلياس. ليس بسبب فكرة انتهاء العالم كان ذهنه مشوّشاً وإنما بالعكس شعرَ بأنّ عالمهُ ابتدأ تواً هناك فوق سن الكلب.

بدا الأفق مقسوماً قسمين أحدهما أغمق من الآخر. وخلال دقائق سادت الظلمة فارتفع الضجيج لإخافة الحوت العنيد المتربّص بالقمر. وكان قلب إلياس يقرع أيضاً لأن هيلين في تلك اللحظة استدارت نحوه من خلف آزاد الذي كان واقفاً بينهما. بادلها نظرتها ثم نظرَ إلى القمر ثم إليها مرة أخرى. كانت نيران الفوانيس تحيط بهما من كل جانب مثل قلادة متلألئة في العتمة. خُيلَ لإلياس بأنه سمعَ صفير طيور القبج وكأنها تساهم معهم من بعيد في إنقاذ القمر.

حاء باء

لم يستغرق الخسوف هنا في الموصل سوى دقيقتين، قالت سناء لإلياس، ولكنهم عملوا بشأنه ضجة كبيرة. ما علينا. قل لي، كيف كانت رحلتك؟

أجاب إلياس مبتسماً: إسمعي، هناك فتاة أنوي أن أتزوّجها.

صحيح؟ أحسن خبر. ومن أين هي؟

من عشيرة حليقي. تسكن هناك فوق الجبال.

إذهب واطلب يدها. إذهب غداً.

سأذهب يوم الجمعة يوم 20 في هذا الشهر. اتفقنا أن أصعد إلى قريتها كل يوم جمعة.

يا أخي أنت معقَّد.

لا أدري هل يمكنكِ أن تعملي فضلاً على أخيك المعقّد وتهتمي بيحيى كل جمعة؟

يحيى ليس مشكلة. لكن تزوّجْ تلك الفتاة فعساها تصبح له أمّاً. إنتظرْ، تذكّرتُ شيئاً. هذه الجمعة عندي موعد في المساء.

إذن سأذهب الجمعة التي بعدها.

لا، إذهبْ في الموعد ولكن إرجعْ قبل الساعة السادسة مساءً.

ماشي.

غادر إلياس القرية بعد خسوف القمر، ولكن ظلّت هيلين تفكّر فيه طوال المساء. وفي الليل حين أغمضت عينيها رأت وجهه البيضوي. عيناه معبّرتان تلتمع فيهما إشراقة صافية حينما يبتسم، وحينما يحزن أيضاً. وفي كلتا الحالتين، مبتسماً أو حزيناً، تمنحها نظرته دفئاً استثنائياً يخترق قلبَها ويفتحه مثل حبة فستق. بقيت سهرانة تفكّر كيف تلامست يداهما في أثناء تنظيف الأغطية قرب النبع وكيف نظرا إلى القمر معاً وحاولا إنقاذه من أزمته. في النهاية عاد القمر جميلاً معافى.

استيقظتْ من النوم فجراً ووجدت نفسها تحبّه. شعرت بأن جناحين نبتا لروحها فطارت إليه، وصار جسدها يتفقد تلك الروح ويتوق لأن تصبح وإياه واحداً. شعرت بأنها تريد أن تخبر الكل بأنها تحبّه لكنها بالتأكيد لن تخبر أهلها. في الحقيقة تريد أن تخبر صديقتها أمينة فقط. أمام الباب الأمامي للبيت، أطلقت هيلين صافرة لتخبر أمينة بـأنها سترافقها اليوم في رعي الأغنام. أجابتها صديقتُها بصافرة مؤيدة.

في ذلك الصباح كانت الحشائش تتمايل قليلاً بفعل ريح خفيفة، والأغنام برؤوسها المتأرجحة تبطئ قليلاً لتأكل العشب ثم تسرع مرة أخرى بالسير أمام الصديقتين. هيلين سألت أمينة: لماذا لم تصعدي إلى سن الكلب يوم الخسوف؟ بحثتُ عنكِ ولم أجدكِ.

لا تضحكي عليَّ، أجابتها أمينة، أخذتني نومة عميقة بجانب الشجرة وأنا أرعى الأغنام وقد جفلتُ حينما سمعتُ صوت قرع الصواني إذ تصورتُ لوهلة بأن ذلك صوت الأجراس التي برقاب الأغنام وفزعتُ معتقدة بأنها فرّت بعيداً وأنا نائمة، وكم فرحتُ لأني وجدتها كلها بقربي لم ينقص منها واحداً. أغنامي لا تهرب مني حتى عندما يذبح أبي واحداً منها أمام أعين البقية. هي تحزن فقط ولكن لا تهرب أبداً. كلما حدث ذلك، أغلق عينيّ كي لا أرى دمها حين يسيل.

الحيوانات حبّها لنا حقيقي، قالت هيلين.

هذه الخراف تفهمني أكثر من أهلي. لا أحد يفهمني سواكِ أنتِ وأغنامي، قالت أمينة.

أنا أحبكِ يا صديقتي.

تبدين بمزاج جيد فعلاً اليوم يا هيلين.

أنا سعيدة وأشعر بأني أحب الكل حتى أغنامكِ أكثر من قبل.

ضحكتْ أمينة فقالت هيلين: أريد أن أخبرك بسر.

انتظرت أمينة أن تسمع فقالت هيلين أخيراً: أنا أحب إلياس.

ضيفكم؟ كان ينظر إليك بولع حينما كنتِ تعزفين الناي.

انتظرتهُ بفارغ الصبر حين غادرنا للمرة الأولى.

كوني حذرة. لا تدعي أحداً ينتبه إلى هذا.

ليس الأمر بيدي ولكني سأحاول أن أخفي حبي له.

هل سيعلّم القراءة والكتابة كما وعد؟

سيبدأ الجمعة المقبلة. ستحضرين، أليس كذلك؟

لا، أنا مشغولة خلال النهار كما تعرفين.

لن يحدث شيئاً إذا تركتِ الأغنام نهاراً واحداً. تعالي الجمعة لخاطري.

ماشي، سآتي عندما أسمع الصافرة.

في محاولة لإخفاء مشاعرها تجاه إلياس، قرّرت هيلين أن تتجنّب النظر إليه خشية أن تفضحها عيونها، لكنها سرعان ما نسيت قرارَها فبادلتهُ نظراته المبتسمة. بدا إلياس متحمّساً لإعطاء الدروس فقد جلب معه إلى القرية

أوراقاً وأقلاماً وعلبة طباشير. كان جالساً مع المتطوّعين الثلاثة تحت ظل شجرة التوت لتحضير الدرس قبل مجيء الطلاب.

مارأيكم؟ هل نعلّم حرفاً في اليوم أم حرفين؟ سألهم.

قال عبدالله: أعطِهم حرفين وشوف كيف تسير الأمور.

ماشي، قال إلياس، دعنا نوزّع عليهم هذه الأوراق والأقلام للتدريبات. أقترح أن نقسم الطلاب إلى مجموعات لكي يعمل كل واحد منا مع مجموعة صغيرة. وإذا كنتم جاهزين فبإمكاننا أن نبدأ.

أطلق آزاد صافرة عالية لبدء الدرس فأسرعَ الطلابُ بالقدوم إلى المساحة الخالية أمام الدار، وحين نظرت هيلين حواليها لترى إذا كانت أمينة بينهم، جاءت صديقتها من ورائها ووضعت يديها على عينَي هيلين.

عرفتكِ من رائحة الغنم في يديكِ، قالت هيلين.

سحبت أمينة يديها ووضعتهما على جانبي خصرها احتجاجاً فغمزت لها هيلين. اتخذت أمينة مكاناً لها مع باقي الطلاب الذين ملأوا المكان على الأرض. تراوحت أعمارهم من ستة إلى سبعين سنة، الأجداد في المؤخرة خلف أحفادهم.

رحّب بهم إلياس وقال «كم تبدون رائعين وحولكم أشجار التوت!» وكان يبحث بين الحشد عن هيلين. «اليوم سنتعلّم حرفين. الأول إسمه ألف. يُكتَب مثل رقم واحد، هكذا،» قال ممسكاً قطعة طباشير.

توقّف لحظة ثم قال «آه، نسيتُ أن أجلب لوحاً للكتابة، ولكن لا بأس.» رسمَ الحرف على جذع الشجرة التي بجانبه. أسرعَ المتطوعون بتوزيع الأوراق والأقلام ليقلّد الطلابُ كتابة الحرف إلا أنَّ قسماً منهم فضّلوا أن يستخدموا أعواد الشجر ليرسموا الحرف على الأرض أمامهم.

إستأنف إلياس: الحرف الثاني إسمه باء. نكتبه مثل صحن رز وتحته نقطة. وإذا وضعنا الألف مع الباء نحصل على كلمة أب. هكذا.

الآن أعطيكم مسألة وعليكم الحل، قال إلياس. كتَبَ: ب + ا + ب + ا =

تبادل المتطوعون الابتسامات وهم يسمعون إحدى الجدّات تذكّر حفيدَها بأن يضع نقطة تحت صحن الرز.

قسمَ إلياس الصف إلى مجموعات ليكملوا التمارين بمساعدة المتطوعين.

عليّ أن أستأذن بالمغادرة باكراً اليوم، قال عبدالله.

انتظرني، سأنزل معك، قال إلياس، فأنا أيضاً عليّ أن أغادر. بإمكان آزاد وهيلين أن يكملا التدريبات مع الطلاب.

اقترب إلياس من آزاد وقال: أعتذر لأن عليّ اليوم أن آخذ إبني قبل الساعة السادسة. سلّم لي على الأهل وأراكم الجمعة القادمة.

رفع يده للتحية وهو ينظر إلى هيلين، وغادر مع عبدالله.

نزلا بصمت من مرتفعات القرية حتى قطعَ إلياس الصمت قائلاً: الهواء نقي جداً هنا. لا شيء يلوّثه.

أنا أقضي وقتاً هنا كلما استطعتُ، قال عبدالله، لكن اليوم عندي موعد مع صديق تاجر في سنجار.

مرّت لحظات صمت أخرى حتى قال إلياس: قلتَ لي يا عبدالله بأنك كنتَ تحلم منذ صغرك بأن تمتلك حديقة. أردتُ أن أسألك هل حققتَ ذلك الحلم؟

كنتُ في الثالثة عشرة من عمري حين تركتُ المدرسة لأشتغل في حديقة عمّي. أكثر شيء استهواني في بستانه خلية النحل. وفي يوم سمحَ لي عمّي أن أعتني بتلك الخلية فصارت كأنها عالمي السرّي الذي صحوتُ عليه. كنتُ أراقب كيف يشتغل النحل. وجدتُ مجتمعهم في منتهى التنظيم والإنتاج. إذا رأيتَهم عن بعد لظننتَ بـأنهم يتحركون بعشوائية ولكن ما أن تقترب من

عالمهم حتى تكتشف دقّتهم. يا أخي حتى ضجيجهم كأنه سيمفونية تقودها الملكة وهي تطير عالياً. لكني اضطررتُ أحياناً إلى قتل بعض الملكات.

لماذا؟ سأله إلياس.

من أجل سلامة المملكة، أوضح عبدالله، أحياناً تضعف الخلايا فأدمجها لتقوى، ولكن إذا بقيت أكثر من ملكة واحدة ستطير إحداهن وتسحب خلفها جيشاً من النحل، وتلك خسارة أكبر. فكما لا يجوز أكثر من زوجة واحدة في بيت هكذا لا يجوز أكثر من ملكة واحدة في الخلية. جماعتي الإيزيديون يعرفون كم أكره تعدّد الزوجات.

أتخيل بأنه من الصعب إرضاء اثنتين، قال إلياس، للأسف صار هذا شائعاً كالموضة بين ناسنا. ولكن اخبرني هل مازلتَ تربّي النحل؟

طبعاً، أجاب عبدالله، دعني أخبرك. في يوم من الأيام رأيتُ بستاناً في شارعنا معروضاً للبيع. طلبتُ من عمّي أن يأتي معي لنتفاوض على شرائه. كنتُ قد وفّرتُ ألف دينار تقريباً ولكن صاحب البستان طلب تسعة آلاف دينار أي ما يساوي ثمن بيتين في سنجار. اجتمع أهلي كلهم لمناقشة الموضوع. طبعاً كنتُ أتوقّع أن يقولوا لي بأن شراء ذلك البستان مستحيل لكني تفاجأتُ بمبادرة أمي. أعطتني علبة صغيرة من الذهب هو مهرها وهدية المرحوم أبي لها خلال السنين. قالت بع هذا واكمل ما عندك فوقه. زوجة أخي عملت الشيء نفسه وأعطتني كل ذهبها. حين اشتريتُ البستان كانت فيه عشر نحلات. بعد ثلاث سنوات صاروا أكثر من مئة. كلما أراقب ملكات النحل وحركاتهن أتذكّر مواقف النساء في حياتي وكرمهن معي. مِن رِزق البستان تزوّجتُ وربيتُ أطفالي. العسل مكّنني من كسب العيش لكن الأهم من ذلك أنه أكسبني الأصدقاء.

أنتَ تزوّجتَ عن حب أم كان زواجك تقليدياً؟ سأله إلياس.

لا هذا ولا ذاك، قال عبدالله، كانت ساري بنتاً بعمري وتسكن في نفس المحلة وكنا غالباً نذهب معاً إلى الساقية التي يلتقي عندها شباب وشابات قريتنا من أجل تنظيف الصحون وغسل الأقدام وخاصة في فصل الصيف. نمتْ

بيني وبين ساري صداقة حقيقية فكنا نتحدث معاً عن كل ما يشغلنا في ذلك الوقت وحتى في حفلات القرية كنا نرقص معاً. أمي تصوّرتْ بأن الذي بيننا هو علاقة حب فتطوعتْ وفاتحت أم ساري بتزويجي ابنتها. ساري وافقت. اندهشت أمي عندما وجدتْني غير راض عما قامت به. قالت «رأيتكما سعيدَين معاً وأردتُ أن أكملَ الفرحة رسمياً.» حين سمعتْ ساري بأني لا أنوي الزواج منها جُرِح شعورها. هي حساسة جداً. زعلتْ مني وصارت تغادر الساقية ما أن أصل أنا إليها. تأسفتُ مع نفسي لخسارة صداقتها لأنها كانت تعني لي الكثير. وجدتُني أفتقد وجودها إلى جانبي. قلتُ لأمي بأنها حسناً فعلتْ بطلب يدها. ولكن هذه المرة رفضتْ ساري طلبي وقالت بأنها لن تقبل بي زوجاً أبداً. وفي يوم انتظرتُها عند الساقية وحين وصلتْ مع صحونها لتغسلها قلتُ لها «عندي بضع كلمات أرجو أن تسمعيها.» نظرتْ إليّ أخيراً فقلتُ لها «أنتِ ستظلين دائماً صديقتي الأقرب وأنا أتمنى أن تتزوجي أحسن شخص في العالم ولكن أتمنى أيضاً أن نظل أصدقاء طوال العمر.» ابتسمتْ وقالت «هل ستأتي إلى حفلة نهاية الاسبوع؟» قلتُ «نعم، سأحضر.» ولكن بمرور الأيام صارت لقاءاتنا عند الساقية أجمل لأنّ قلبينا التقيا لوحديهما. حين طلبتُ من أمي أن تخطب لي ساري مرة أخرى، قالت «لا، لن أفعل هذا والبنت رفضتْ.» أقنعتُ أمي أخيراً بأنّ ساري موافقة وأنّ عليها أن تتكلم مع أم ساري بذلك الخصوص. الآن عندنا ولدان وبنتان، والحمد لله نحن عائلة سعيدة.

توقف عبدالله ملتقطاً أنفاسه وقال: تحدثتُ كثيراً، أليس كذلك؟

لا بالعكس. اخبرني كيف أكسبك العسلُ الأصدقاء.

مثلما تعرف، منطقتنا قريبة من سوريا ففكّرتُ يوماً أن أقوم برحلة إلى سوريا، زيارة وتجارة كما يقولون. تلك كانت أول رحلة في حياتي إلى خارج البلد. أخذتُ معي علباً من عسلي الطبيعي لأبيعها وأرى بعض الأماكن بثمنها. ومن مصادفات الحظ أنّ تاجراً كبيراً هناك أعجبه عسلي وعرضَ أن يساعدني بتصدير العسل على نحو منتظم إلى سوريا. وهكذا ازدهر شغلي وكثرت رحلاتي وتعرّفتُ إلى المزيد من التجّار والأصدقاء الرائعين.

مثل الصديق الذي ستلتقي به اليوم؟

نعم، صالح صديق عزيز عليّ، وكنتُ قد عرّفته على عائلة خالي فصار يشتري من تين بستانهم ويوزّع منه للمحلات. بيت خالي عندهم حوض حجري يدقّون فيه التين بخشب البلوط حتى ينعم مثل العجين فيعملون منه أقراص التين المتنوعة بأشكال حيوانات وطيور إضافة إلى قلادات من التين المجفف.

تذوقتُ منها. لذيذة. وقد سمعتُ من خالك شمّو عن ذلك التاجر.

اليوم يريد أن يلتقي بي لأمر خاص جداً.

خير إن شاء الله.

دعني أخبرك ولكن إبقِ الموضوع بيننا لأنه لايزال مجرّد كلام.

أومأ إلياس برأسه.

هو يريد أن يخطب إبنة خالي هيلين، قال عبدالله، ويريدني أن أحضر معه ليطلب يدها.

سكت إلياس لحظة لكي يسترد أنفاسه قبل أن يسأل: متى؟

لا أدري بعد. عندما ألتقيه اليوم سنتّفق على موعد مناسب.

وما رأي هيلين؟

هيَ لا تعرف بعد. اليوم أخبرتُ والدها وهو سيخبر أمها لتفاتحها بالموضوع. أتوقّع أن يتمّ كل شيء على ما يُرام فصديقي لا يعوزه شيء، تتمناه أي فتاة.

هو محظوظ أيضاً لأن هيلين طيّبة القلب جداً.

طبعاً، إبنة خالي من أحسن البنات.

بخطوات مثقلة، وصل إلياس إلى بيت أخته، وهي فوراً سألتْه: ما الخبر؟ طلبتَ يدها؟

هناك مَن طلبها قبلي.

وهي وافقت؟

لا أدري.

يعني لم تصارحها بشيء؟

لا.

سكتتْ لحظة ثم قالت: لا تقلق. إذا كانت من نصيبك لن يأخذها منك بني بشر.

أطول اسبوع في التاريخ بالنسبة لإلياس هو ذلك الأسبوع ما بين الجمعتين. ما بين شوقه لهيلين وتساؤله فيما إذا قبلت بالزواج من تاجر التين حيرة طيّرت النوم من عينيه. أحياناً تساعده القراءة على النوم لذلك في ليلة الخميس التقطَ مجلة وصار يقلب صفحاتها وهو في فراشه. ليس من عادته أن يهتم بعلم التنجيم ولكنه كان يتوق لتسلم أية رسالة حتى لو كانت من نجوم تبعد ملايين الأميال، لذلك طالعَ صفحة الأبراج. أخبره برجُه عن مال ودعم وتحديات. سرح ذهنه وصار يتخيل شتى الاحتمالات الصعبة منها سيناريو مزعج وهو أنه بعد أن يكمل الدرس يدعوه شمّو للمبيت عندهم ليحضر حفلة زفاف هيلين.

شعرَ بيباس في حلقه فنهض من فراشه وتوجه إلى المطبخ. بعد أن صبَّ لنفسه قدحاً من الماء، اقتربَ من طائرهِ الأنثى في القفص. تخيّل بأنها متأزّمة في قفصها. قال: نِذرٌ عليَّ أن أطلق سراحك إذا صارت هيلين من نصيبي.

لكنه لم ينتظر حتى تتحقق أمنيته ليوفي بنذره، إنما قام مبكراً في الفجر متوجهاً إلى المطبخ. وضع الطعام والماء للطائر كالمعتاد وما أن رأى بأنها انتهت من وجبتها الصباحية حتى فتح بابَ القفص كبادرة دعوة لها كي تخرج. انتظرَ إلياس دقيقة ولم تخرج من القفص. أخرجَها بنفسه وهو يفكّر بأنَّ الحياة في الخارج أكثر خطورة من القفص ولكنها جديرة بالعيش. أبقاها دقيقة في

راحته ثم فتح بابَ البيت ودعاها تستكشف نورَ الصباح وتذهب في حال سبيلها. خطت أنثى القبج خطوتين على يده. ظلَّت في البقعة نفسها كأنها خائفة من العالم الكبير أمامها. أعادها إلياس إلى القفص وقد قرّر ألا يطلق سراحها هنا وإنما في بيئة أخرى اعتادت عليها، هناك قرب أشجار التين. ارتاح إلياس تماماً لذلك القرار وقد شعَرَ بأنَّ نذرَهُ قُبلَ مقدَّماً وأنّه على وشك أن ينال مرادَه.

الأغنية الأخيرة

في طريقه إلى القرية صباح درس الجمعة الثاني، تخيّلَ إلياس أن يجد هيلين عند شجرة التين التي رآها عندها في المرة الأولى حين التقاها. ذلك اليوم عندما ذكّرته بألمهِ وجعلته يبكي. يحتاج أن يبكي مرة أخرى. الحب يجعله يريد أن يبكي. الشيء الغريب أنها كانت هناك فعلاً مثلما تمنّى، جالسة وظهرها على الشجرة كأنها في انتظاره. من فرحهِ لم يسلّم عليها. جلس إلى جانبها من دون أن ينبس بكلمة. لاحظَ حرف التاء وكلمة «تين» مكتوبة بالطباشير على جذع الشجرة. سألها: خط مَن هذا؟

لا أدري، قالت، لكن ستجد حروفاً وكلمات مكتوبة في كل مكان. على الأشجار وعلى الصخور وعلى الأرض.

صحيح؟ كيف ذلك؟

الجماعة تحمّسوا فأكملتُ مع آزاد تعليمهم حرفين آخرين، ويبدو أنهم خطّوا الحروف والكلمات بالطباشير وبالعيدان أينما شاؤوا. حتى في سهرة المساء ردّدوها وهم يعزفون الموسيقى، قالت هيلين، ثم أضافت مبتسمة: هم ينتظرون درسك الثاني بلهفة. أي حروف جلبتَ إلينا اليوم؟

أخرج إلياس قطعة طباشير من جيبه وقال: دعيني أريكِ.

كتبَ على جذع الشجرة: ح + ب = حب. مثلاً: أحبك.

إقرئي الكلمة، قال لها.

ولكني لا أحبك، أجابته.

أنا أعطيت مثالاً فقط، قال.

ضحكت هيلين وقرأتْ: أحبك. كرّرتْها: أحبك، أنا أحبك، إلياس.

كتبَ اسمها على جذع الشجرة ورسم حوله شكل قلب. أخذت هيلين قطعة الطباشير من يده ورسمت سهم كيوبيد مخترقاً القلب.

قال: تتذكّرين طائر القبج الذي كنتُ سأصيده وأنتِ فوتتِ عليّ الفرصة؟

نظرت إليه ولم تجبه بشيء فأكملَ: أتمنى لو أحرق كلَّ الأقفاص ماعدا قفصاً واحداً.

أي قفص؟

القفص الذهبي، لكي ندخله.

لا أدخل القفص حتى لو كان من ذهب. روحي روح طير، قالت هيلين.

وأنا طير مثلكِ. إذن نتزوّج في العش وليس في القفص، قال إلياس.

كيف؟

تقصدين كيف نتزوّج؟ أم كيف تتزوّج الطيور؟ قال ضاحكاً.

أقصد ربما لن يقبل أهلي.

إذن أخطفكِ.

يعني مثل قصة خنسي ورشو؟ سألتهُ.

لا أعرف تلك القصة. إحكيها لي.

ترددت هيلين قليلاً. نظر إليها إلياس مبتسماً وقد مالَ بجسده ناحيتها منتظراً فمضت هيلين تحكي: كان رشو يتيم الأبوين وحيداً في قرية كَرسي في سنجار وكان مغنّياً وعازفاً بارعاً للناي. إعتاد أهالي القرية على رؤيته في الأزقة حافياً مهترئ الثياب ولكن صوته يدخل القلوب فيتوقفون ليسمعوا أغنياته وموسيقاه، ومنهم مَن يجلب له طعاماً يسد به رمقه. وفي يوم، رآه تاجر رمّان

كبير وأعجب بغنائه فجلس يدردش معه حتى انتهى به الأمر إلى اصطحابه معه إلى بيته. اعتنى به وكأنه فرد من أفراد عائلته. ساعدهم رشّو في زراعة الرمّان وتحسّنت أموره إذ صار عنده بيت يأوي إليه وملابس جديدة. وكان للتاجر إبنة إسمها خنسي وبمرور الأيام نما عشق بينها وبين رشو فصار يتغنى بعيونها السود وابتسامتها الآسرة وهي تستمع إليه بشغف. نما حبهما بصمت وبثقل كثمرات الرمّان الناضجة. وفي يوم من الأيام تأخّر رشو في البستان من دون أن يتناول الغداء فذهبت إليه خنسي بوجبة طعام حضّرتها بنفسها. أكلَ وهما جالسان على الأرض يتبادلان نظرات الحب. قال لها رشو «يجب أن ندفن حبنا بداخلنا لأن إذا عرف أبوك سيغضب غضباً شديداً فمن حقه أن يأمل بزواجك من شخص يليق بكِ أكثر مني ولو أقل مني حباً لك فليس بمقدور شخص أن يحبك مثلي.» فأجابته خنسي «لن أتزوج غيرك فتعال الآن واخطفني.»

مثّلتْ هيلين صوت الشخصيتين فكان سهلاً التمييز بين أقوالهما.

رشو: أنا أكلتُ من خبز أبيكِ ولن أفعل ما يُخجلهُ.

خنسي: لاتكن جباناً، قم واخطفني.

رشو: لا، لن افعل.

خنسي: أنت ترى تلك الصخرة الكبيرة؟ إذا وصلتُ إليها ولم تخطفني فلن أكون بعد اليوم إلا أختاً لك.

رشو: فليكن كذلك. لن أخون العِشرة.

ابتعدت خنسي عشرة أمتار تقريباً ثم التفتت وقالت: هذه هي الخطوة الأخيرة.

رشو: توقّفي يا مجنونة! لحقَ بها وقال: إذا خطفتكِ إلى أين آخذكِ؟

خنسي: لا أعرف ولا يهمني أين.

رشو: تعالي نذهب إلى بيت خلف خان علي. هو كبير عشيرة الهسكان في سنجار.

عندما وصلا إلى هناك، قدّم لهما خلف الشاي وكليجة التمر وسألهما: من أين أنتما وإلى أين ذاهبان؟

قال رشو: لن نأكل ولن نشرب حتى تعطينا كلمة الأمان.

لكما الأمان، قال خلف.

أنا رشو، رجل فقير، وهذه خنسي إبنة عشيرة قيراني المعروفة. أنا خطفتُها وقصدت الله وقصدتكَ لتساعدنا كي نتزوّج.

قال خلف لرجالهِ المحيطين به: جهّزوا أنفسكم لنذهب إلى أهل خنسي ونطمئنهم أولاً بأنّ ابنتهم عندنا وهي في الأمان.

ومثلما جرت العادة في منطقتنا، سرعان ما تنتهي المشاكل حين يتوسط رؤساء العشائر بحلّها. وهكذا عاد خلف من عند أهل خنسي وهو يقول لرجاله: هاتوا الطبل والمزمار. اليوم عرس خنسي ورشو.

ولكن لم تكتمل سعادة العاشقَين فقد كان مرض الطاعون منتشراً في تلك الفترة وقد مات الكثير من سكان المنطقة. بعد العرس بأيام وصل المرض إلى بيت خلف. ماتت زوجته وأبناؤه السبعة كما مات الكثير من أقاربه. حين أحسّ رشو. بأنه ليس على ما يرام، قال لخنسي «سأذهب لأتمشّى قليلاً.» بعد خطوات تهاوى وعرف بأنّ نهايته قد اقتربت. زحف إلى صخرة كبيرة واستند إليها. أسرعت إليه خنسي وأراحت رأسه على زندها. استمعت إليه وهو يغنّي أغنيته الأخيرة. تلك يسمّونها أغنية خنسي ورشو.

ماهي كلمات الأغنية؟ إلياس سأل هيلين.

لا أعرف. لم أحفظها.

نظر إلياس نحو السماء وكأنه يحاول أن يتذكّر. قال: أنا أعرفها. إنتظري دقيقة.

كان إلياس قد جلب في حقيبته هذه المرّة لوحاً صغيراً ليستخدمه في تعليم الحروف. أخرج اللوح وبدأ يكتب عليه بالطباشير. تمدّد على الأرض وبدا مستغرقاً تماماً في الكتابة.

صعدت على صخرة مستطيلة الشكل وتوازنت فوقها وهي تنظر إلى التلال البعيدة المنقّطة بالأصفر والأخضر. لمحت ولداً منهمكاً بلملمة أغراض سقطت من فوق ظهر حمارهِ. وبعد فترة، رأت إلياس قادماً نحوها، فنزلت من الصخرة ومضت إليه.

قال لها: إسمعي، سأقرأ لك كلمات أغنية رشو.

هذا الصباح

صحوتُ وأنا أحبكِ

سمعتُ طائراً يغنيّكِ

وحُبُّ الطيور كلّهُ في الأغنيات

هذا الصباح

سأصعد الجبال

نجمات السماء هناك أجمل

لأنها تلمع في عينيكِ

هذا الصباح

سأتبعُ أغنية الطائر

أينما كانت

لأنها تأخذني إليكِ

وكيف تعرف الأغنية وأنت لا تعرف القصة؟ سألتْه هيلين.

ضحكَ إلياس ولم يجب بشيء.

أنتَ ابتكرتَ الأغنية الآن، أليس كذلك؟ سألتْهُ.

أغنية رشو أكيد أجمل، قال إلياس، فهذه مكتوبة على السريع.

أنت تكتب أغاني؟

مرّات أكتب أغاني ومرّات أكتب إعلانات للمجلات.

إعلانات عن ماذا؟

عن أي شيء. مثلاً عن المنظّف طرزان ضد الحشرات والفيران، أو عن مشروب الطاقة الذي يمنح القوة والفكرة الخلاقة.

ضحكا معاً. نظر إليها فأشاحت بنظرها عنه لحظة ثم عادت بنظرتها إليه.

إذهبي إلى تلك الصخرة وقولي لي اخطفني، قال لها.

لا، لن أقول ذلك حتى لو رميتَ نفسكَ من فوق الجبل، أجابت.

ضحكا مرة أخرى. وضع يده على جذع الشجرة خلفها واقترب منها أكثر. كان على وشك أن يقبّلها. جاءتهما صافرة من بعيد فتراجعَ إلياس إلى الوراء. نظرت هيلين إلى حيث الصوت فوجدتهُ قادماً من ذاك الولد مع الحمار.

صافرته دعوة ليوصّلنا إلى البيت، أوضحتْ لإلياس.

ماذا لو تذهبي معه على الحمار وأنا أتبعكما؟ اقترحَ عليها.

لا، أنا أحب المشي، أجابت.

نزلَ الولد إليهما وقال موجّهاً كلامه لإلياس: مرحبا يا أستاذ، هل عندنا درس اليوم؟

نعم، فور وصولنا.

بإمكاني أن أوصلّكما على حماري.

شكراً عزيزي، قال إلياس، ولكننا سنمشي ونجمع بعض الحطب في الطريق. نراك بعد قليل.

بعد أن غادر الولدُ مع حماره، قالت هيلين: ما كان يمكن أن نركب الحمار وعليه كل تلك الأغراض.

خاصة وأنا ثقيل وسمين، قال إلياس وهو يضع يده على بطنه.

ليس كثيراً، قالت.

هذا الاسبوع خاصة خربطتُ بأكل الكثير من أصابع البطاطا المقلية. عندما أكون قلِقاً أشتهي شيئاً مالحاً.

لماذا كنتَ قلِقاً؟

بالأول أنتِ اخبريني، لماذا قلتِ لن يقبل أهلكِ بي زوجاً لكِ؟

تردّدت هيلين في الكلام فتوقّف إلياس عن السير. بعد برهة حين عادا يسيران، قالت: لأنهم أعطوا الكلمة لشخص آخر، وكسر الكلمة عيب عندنا.

مَن ذاك الشخص؟

تاجر تين يتعامل معنا من زمان.

وما رأيكِ فيه؟

صالح إنسان جيد.

يعني سوف تتزوجينه؟

لا أعرف.

التزم إلياس الصمت. صعدا التلال دونما كلام.

ثمّ سألتْهُ: أنت زعلت؟

لا، لماذا أزعل؟ أنتِ حرّة تتزوجين مَن شئتِ.

لا، لستُ حرّة.

كيف؟

في قريتنا لا يمكن للبنت أن ترفض عرض زواج جيد إلا أذا جاءت بسبب مقنع.

أنا أحبكِ وأنت تحبينني. أليس هذا سبباً مقنعاً؟

الحب وحده لا يكفي بالنسبة لأهالينا.

ممكن أقنعهم وأطلب يدك منهم رسمياً؟

إبتسمت له ابتسامة الموافقة.

نظر عميقاً في عينيها. لم يعد لون العسل كافياً لوصفهما. رأى فيهما محيطين من العسل وإشراقة شمس ملأت عالمَهُ بألق دافيء.

«أريني يدكِ التي سأطلبها.» قرّبَ يدها من شفتيه وطبع عليها قبلة ناعمة.

وجد إلياس المسافة إلى بيت هيلين أقصر من قَبل فلم يشعر بالزمن معها. اندهشَ كيف يطول ويقصر الوقت بحسب اندماج الانسان فيما يفعله.

أحب أن أعيش معكِ زمناً طويلاً جداً. لا أريد أن أموت شاباً، قال لها.

استغربت هيلين من قوله ذاك.

كان بعض الطلاب جالسين تواً في ساحة التجمّع أمام البيت في انتظار الدرس. حين وصلت هيلين مع إلياس، قالت: سأخبر باقي الطلاب بأن الدرس على وشك أن يبتدئ.

نعم، إطلقي صافرتكِ يا عصفورة، همس لها إلياس.

حين امتلأت الساحة بالمزيد من الطلاب حتى لم يبقَ محط قدم، بدأ إلياس الدرس. أخرجَ اللوح من الحقيبة ليكتب عليه وكانت الأغنية التي سطّرها لهيلين لاتزال عليه. لم يجلب ممحاة لذلك قطفَ ورقة توت من الشجرة ومسح بها كلمات الأغنية الرومانسية بسرعة. كتبَ حرف الحاء قائلاً: دعونا نكتب كلمة كبيرة ولكن تتكون من حرفين فقط. حُب.

قلّده الطلاب وكتبوا الكلمة باهتمام. بعضهم كتبها على الورق وبعضهم علـى الأرض أمامهم.

من الخلف، علّقَ عبدالله: أتمنى لو كانت هذه الكلمة أطول قليلاً كي نستغرق وقتاً في كتابتها.

ضحك إلياس وضحكوا كلهم. وزّعَ تمرينات الدرس على المتطوعين ليدرّب كل منهم مجموعة من الطلاب.

في نهاية الدرس، استفردَ إلياس بهيلين وهمسَ لها بأنه يريد أن يتحدّث مع أبيها. قالت له بأنه في هذا الوقت يكون عادة في بستان السمّاق. إلياس وجدَ شمّو هناك يقص بعض الحشائش القصيرة. كان كالعادة مرتدياً قميصاً بأكمام طويلة وسروالاً واسعاً في منطقة الفخذين وضيقاً عند الكعبين ومربوطاً على الخصر بحبل مجدول.

قال له إلياس بعد أن حيّاه: عندي طلب خاص منك وأتمنى ألا تردّه.

غالي والطلب رخيص، أجاب شمّو.

باختصار شديد أريد أن أطلب يد ابنتك هيلين.

سكت شمّو متأملاً وقد بدت عليه الدهشة. أخيراً قال: سأستشير عائلتي وأرد عليك في المرة المقبلة.

شكرهُ إلياس وهمّ بالمغادرة لكن شمّو قال: أرجو ألا تغادر بدون غداء.

حسناً.

سمعتُ بأنّ الناس سعداء بدروسك، قال شمّو وهما يتمشيان إلى البيت.

وأنا أسعد منهم بهذا.

أريد أن أخبرك شيئاً وأرجو أن تفهمني.

حاضر.

هناك رجل آخر تحدّث معي بخصوص هيلين وأنا وعدتهُ خيراً. لا أخيّره عليك ولكن مثلما نقول البركة تُعطى لمن يسأل أولاً.

لاحظتْ هيلين بأن إلياس بدا مكتئباً في أثناء الغداء وبالكاد أكل بعض الرز والمرق. خشيت من أن يكون والدها قد رفض طلبه. بعد الشاي فوراً، استأذن إلياس ليغادر.

أليسَ من الأفضل أن تظلّ حتى مطلع الصباح؟ سأله شمّو.

ممنون منك ولكني صرتُ أعرف الدرب جيداً فلا مشكلة حتى في الظلمة، أجاب إلياس.

رولر كوستر

في سريرهما فوق السطح تحت ستارة الكتّان تحدّثَ شمّو مع رمزية قائلاً: اليوم فاتحني إلياس برغبته الزواج من هيلين. نحن وافقنا على صالح ولكن يجب إخبار هيلين من باب العلم بالشيء.

لا عليك، أنا أتحدث معها. صالح لا يعيبه شيء وهو الأنسب لها، قالت رمزية.

إلياس شخص لطيف أيضاً، قال شمّو.

ولكنه سبق أن تزوّج وعنده إبن وليس عنده دخل ثابت، قالت رمزية.

في اليوم التالي في غرفة الجلوس، انتهزت رمزية فرصة انفرادها بإبنتها التي كانت تخيّطُ قميصاً برتقالياً بعد أن فصّلتهُ. قالت رمزية: لن تتزوّجي إلياس، أليس كذلك؟

لمَ لا؟ سألتها هيلين.

يا ابنتي فكّري بعقلكِ فالزواج ليس ليوم واحد أو يومين. هو للعمر كله. صالح حتماً سيجعلكِ تعيشين مرتاحة. هو متمكن جداً يملك بيتاً ومحلات. إلياس صحيح مثقّف ولكن ليس عنده شغل فكيف سيعيّش عائلة؟

يا أمي، ألستِ مَن يقول دائماً بأنَّ الله يعين كلما توّفرت النية الصافية؟

صالح نيتهُ صافية أيضاً.

لماذا تكرهين إلياس؟

أنا لا أكرهه. بالعكس هو إنسان طيب وأتمنى أن يجد بنت الحلال. غيركِ وليس أنتِ.

«مجنونة.» هكذا وصفتْها أمينة عندما عرفتْ بنيّة هيلين رفض التاجر الغني والارتباط بإلياس الذي لا يملك شيئاً. كانت الصديقتان في طريقهما من الوادي وبأيديهما أعواد الحطب لعائلتيهما.

ما علاقة الحب بالزواج؟ قالت أمينة، أنتِ أحبّي مَن تحبين وتزوّجي الشخص المناسب.

مَن هي المجنونة بيننا يا أمينة؟

أمّي تقول الرجال كلهم متشابهون. على أية حال، لماذا يعجبكِ إلياس أكثر من صالح؟

لا أعرف بالضبط. ليس شيئاً معيّناً أستطيع تسميته. لكن العالم كله يختلف عندما أكون مع إلياس. حتى الأغاني صار إحساسي بها أعمق كأنها مكتوبة لي وحدي.

حبك نار، رنّمت أمينة وهي تمد الألف مثلما يفعل عبد الحليم حافظ.

في ذلك المساء عندما رجعت هيلين إلى البيت، أخبرتها أمها بأنهم دعوا صالح وعبدالله إلى العشاء بعد يومين. «عليكِ أن تتهيئي،» قالت رمزية «هذه فرصة لكي تتقارب العقول والقلوب.»

لم تقل هيلين شيئاً. صعدت إلى السطح بسرعة. لم يكن وقت النوم بعد ومع ذلك تمدّدت في فراشها حتى الصباح. كان إلياس في حلمها حين نامت، وعندما صحت كانت إبتسامته في ذهنها قبل كل شيء. لم تكن مستعدة أن تبدّل تلك الابتسامة بثروات العالم كلها. لماذا عليها أن تلتقي بالرجل الآخر؟

وماذا ستقول له؟ بأنها تحب إلياس؟ كانت هيلين متضايقة ليس فقط من موعد صالح وإنما من ألم في بطنها وإحساس بالدوار.

في الصباح شربت شاياً ولم تأكل الفطور. ظلت طوال اليوم تشعر بالغثيان وانعدام الشهية مما أثار انتباه أمها. «تعالي يا ابنتي نذهب عند أم خيري،» قالت رمزية.

أم خيري إمرأة عزباء في منتصف الخمسين من عمرها تعيش مع ابنها خيري وأمها وخالتها الأرملتين. خيري كان يتيم الأبوين وهي تبنّته إبناً لها حينما كانت في الثلاثين من عمرها. يقول عنها القرويون بأنها لم تولد للزواج فهي أذكى من ذلك. حين وصلت رمزية وهيلين إلى بيتها، قادتهما عبر ممر إلى غرفة نوم واسعة محوّرة كعيادة. في جانب من الغرفة سرير ضيق وكرسي. وفي جانب آخر مكتب أم خيري عليه دوارق بأحجام مختلفة وعُدَد صغيرة. على الجدار فوق المكتب صورة أفعى ملّتفة حول قضيب وفوق القضيب جناحان. الجداران المتبقيان تغطيهما رفوف عليها حاويات زجاجية معبأة بالأعشاب. جلست هيلين على السرير ورمزية على الكرسي. أم خيري، بعد أن فحصت هيلين، قالت: هذا فيروس، ليس له دواء سوى شرب الكثير من السوائل. ولكن سأعطيك عشبة مهدئة لأنّ وجع البطن أحياناً يكون بسبب ضغط نفسي.

في اليوم التالي كانت هيلين متمددة في زاوية غرفة المعيشة أغلب اليوم وفي العَصر حينما مرّ أبوها من أمامها توقّفَ وجلس بجانبها واضعاً يده على جبينها. ثم عصرَ رمّانتين في المطبخ وجلب لها العصير لتشرب. ارتشفت منه قليلاً كي لا تُرجع يده خائبة. كان شمّو قد طلبَ من عبدالله تأجيل الموعد مع صالح لحين تشعر هيلين بتحسّن.

يوم الجمعة، تغيّبت هيلين عن درس إلياس. ليس فقط لأنها كانت ماتزال ضعيفة القوى وإنما لأنها خشيت أن يراها أبوها مع إلياس بعد أن عرفَ بأنها تحبّه. كان شيئاً عادياً أن تختلط بأي رجل في القرية من دون حرج ولكن ليس عندما تكون بينهما علاقة حب.

قدّم إلياس حروفاً جديدة وذهنه مشتّت. حين انتهى من الدرس وبدأ الطلاب يغادرون، وقف يتحدّث مع عبدالله. قال: ليس من عادة هيلين أن تتغيّب عن الدرس.

هي مريضة، أجابه عبدالله.

لماذا؟ ما بها؟

فقط ليست على مايرام.

تردّد إلياس قليلاً قبل أن يقول: عبدالله، أحتاج مساعدتك في موضوع خاص.

أي شيء أقدر عليه لن أتردّد.

ممكن نتحدث على انفراد؟

أنت نازل من القرية الآن أم باقٍ؟

نازل.

إذن أنزل معك ونتحدّث في الطريق.

إحتار إلياس كيف يبدأ الكلام. بادره عبدالله بالقول: كيف الأمور معك يا إلياس؟

لا بأس ولكن أريد أن آخذ رأيك بشيء لأنك تبدو لي متفهّماً ورومانسياً أيضاً.

ضحك عبدالله وقال: كيف عرفتَ بأني رومانسي؟

من استجابتك لكلمة «حُب» في الدرس. أحببتُ تعليقك ذاك.

قد لا أبدو كذلك ولكن بداخلي أنا رومانسي فعلاً. وأنت؟

لا أعرف إذا كنتُ رومانسياً ولكني واقع في الحُب.

شيء جيد.

ولكن عندي مشكلة.

ماهي؟ لا تقل لي حباً من طرف واحد.

لا.

الحمد لله. كم أكره الحب من طرف واحد.

وماذا إذا دخل طرف ثالث؟

ماذا تقصد؟

افترض هناك إثنان متحابان ومتفقان على الزواج ثم يأتي شخص آخر يفرّق بينهما لأنه هو أيضاً يريد أن يتزوج الفتاة.

أها؟ لا يجوز ذلك خاصة إذا كانت البنت لا تريده.

شكراً. ماذا لو كان ذلك الشخص الثالث صديقك؟

عمّن تتحدث؟

صالح، التاجر الذي يريد أن يتزوج هيلين.

سكت عبدالله لبرهة ثم قال: صالح لا يعرف بـأنّ هناك طرفاً آخر في هذا الموضوع.

أنا أحب هيلين وهي تحبني ولا تريد أن تتزوّج صديقك. ممكن تساعدنا؟

لم يستجب عبدالله فـأضاف إلياس: طبعاً صديقك أغنى مني وله امتيازات كثيرة، ولكني واثق بأنه لا يتفوق عليّ بمقدار حبي واحترامي لهيلين.

المال ليس كل شيء يا إلياس. خلَص، اترك لي الموضوع. أنا أتحدّث مع خالي.

لم يعلّق إلياس ولكنه كان ممتناً لعبدالله.

كل مشكلة يأتي حلّها معها، قال عبدالله، بس إذا الحب مشكلة فالأفضل أن يبقى بدون حل.

ألم أقل بأنك رومانسي؟

في اليوم التالي اجتمع عبدالله مع شمّو ورمزية في بستان السمّاق.

كنتُ قد جئت برفقة صديقي صالح طالباً أن توافقا تزويجه هيلين والآن أطلب منكما ألا توافقا على ذلك، قال عبدالله.

سبحان مغيّر الأحوال، قالت رمزية.

هذا لأني أحب صديقي ولا أريده أن يدخل في قضية خاسرة، قال عبدالله.

يعني الزواج من هيلين قضية خاسرة؟ سألت رمزية.

هيلين من حقّها أن تختار شريك حياتها لأن... لأنها حياتها هي. أليس كذلك؟ قال عبدالله.

هزّ شمّو رأسه بجد وقال: والله هذه أول مرة أرى ابنتي العزيزة ذابلة هكذا. المسكينة لا تأكل ولا تشرب. لكن يخجلني أيضاً العار من كسر الكلمة التي أعطيناها لصالح.

كسر كلمة ولا كسر قلب إنسان، قال عبدالله.

نعم، هات خطبك الجميلة يا عبدالله، قال شمّو.

اترك الكلمة المكسورة عليّ، قال عبدالله، أنا أصلحها وأتحدّث مع صالح فهو إنسان منفتح ومتفهّم.

نعم والله، هو خوش إنسان، قالت رمزية.

الله يحفظه لأهلهِ، قال شمّو لعبدالله ثم استدار إلى زوجته قائلاً: اذهبي واخبري هيلين كي تفرح وتتعافى.

قبل منتصف نهار السابع من أيلول، أسرعت هيلين بالخروج من بيتها وهي تتوق لإخبار أمينة بأن أهلها قبلوا إلياس زوجاً لها. دائماً يحدث توارد خواطر بين الصديقتين فما أن فكّرت فيها حتى سمعت صافرة منها تدعوها لأن ترافقها إلى أشجار اللوز في مرتفعات الجبل. في مثل هذا الوقت من السنة اعتاد القرويون أن يقطفوا اللوز «قبل أن يأكله الدب» كما يقول شمّو. أجابتها هيلين بصافرة قصيرة لتعلمها بأنها ستلتحق بها فوراً. مشت نحو التلة الصغيرة في الوسط التي تلتقي عندها الصديقتان عادة قبل أن تواصلا صعوداً إلى أعالي الجبل. كانت أمينة هناك تواً وحين وصلت هيلين بدأتا فوراً رحلة السير معاً.

يقولون الحب يطيّر العقل لكنه يطيّر الفايروسات أيضاً، قالت أمينة.

ضحكت هيلين وقالت: يا سخيفة. عليكِ أن تحضّري نفسكِ لأنكِ ستجلسين بجانبي في العرس كوصيفة.

متى العرس؟

لا أدري بالضبط. إلياس لا يعرف بعد بأنّ أهلي وافقوا عليه. سأخبره بعد الدرس.

لا تخبريه قبل الدرس.

لماذا؟

لكي لا ينجن من الفرح فلا يعرف كيف يدرّسنا.

ضحكتا معاً.

هو معلم جيّد. إنظري، قالت أمينة وهي تكتب اسمها على الأرض بعود غصن صغير.

بعد درس الجمعة في اليوم العاشر من أيلول، انتظرت هيلين أن تفرغ الساحة من الناس وحيت لم يبقَ إلا إلياس ذهبت إليه. كان عند شجرة التوت، حقيبته على ظهره وبيده قفص. رفع إلياس القفص إلى مستوى صدره وقال لهيلين: ربما ينفع هذا القفص للحرق في عيد الطيور؟

اخذت هيلين برهة من الوقت وهي تنظر إلى القفص الفارغ قبل أن تقول: نعم ينفع للعيد.

ناولها إلياس القفصَ وقال: اليوم في طريقي إلى هنا، توقفتُ عند شجرة التين وأطلقتُ سراح طائري.

كان عندك طائر؟ سألته هيلين.

نعم. كنتُ أعتني بها، قال إلياس، تصورتُ بأنها سعيدة ولكن تعلّمتُ منكم بأنّ السعادة من دون حرية سعادة ناقصة. في البداية تردّدتْ في الطيران، ولكنها بعد دقائق فقط من سماعها صوت أصدقائها القبج، التحقت بهم.

ابتسمت له هيلين وقالت: شكراً لإطلاقك سراحها.

أنا ارتحتُ لأني فعلتُ ذلك، قال إلياس، آمِلُ أن ينقر طائر على نافذتي جالباً خبراً جيداً.

أسمعُ طائراً الآن يخبرني أنّ بإمكانك التحدّث مع أهلي بشؤون العرس، قالت هيلين. لكنها لم تتوقع ردّة فعله الغريبة. وضع أصابعه على فمه وأطلق صافرة عالية.

لمن هذه؟ سألتْه.

والله لا أعرف. للطيور والجبال ولكل الناس! لأخبرهم بأني سعيد.

يا مجنون. أنت عملتَ نبرة الحريق.

هو حريق في قلبي، قال وأشار بيده.

وخلال ثوان، جاء شمّو راكضاً من بستان السمّاق وهو مرتعب من إشارة الحريق. وبعد بضع دقائق وصلَ ابن الجيران دخيل وهو يلهث وبيده وعاء كبير من الماء.

عفواً، صافرة بالغلط، قالت هيلين.

غطى إلياس وجهه بيديه وقد شعر بحرج شديد. غادر دخيل، وانسحبت هيلين تاركة إلياس مع أبيها.

تنفّسَ شمّو الصعداء لأنه لم يكن هناك حريق. سلّمَ على إلياس بحرارة فارتخى إلياس كذلك.

تفضّل يا إلياس، قال شمّو وهو يشير بيده إلى باب الدار. دخل إلياس وجلس على الأرض في مكانه حيث يجلس كل مرة.

لابد أنك ميّت من الجوع بعد الرِحلة والتدريس، قال شمّو، ما رأيك ببعض اللبن لحين تجهيز العشاء؟

اللبن لا أقول له لا أبداً.

مع تين؟

ولا أقول لا للتين.

ما الذي تقول له لا؟

لا للإستعمار، أجاب إلياس مازحاً.

دخل شمّو إلى المطبخ وهو يضحك وخرج بكاسة اللبن وسلة التين. جلسا جنباً إلى جنب يأكلان معاً بود. بعد دقائق دخلت رمزية الغرفة وهي تلهث. قالت: درتُ خلف البيت لأرى إذا كانت هناك نار منسيّة لأنّ أحدهم أطلق صافرة حريق. الحمد لله، لا نار. كيف الحال يا إلياس؟

بخير، تسلمين. وأنتِ؟

تمام، قالت ودخلت إلى المطبخ.

نظر إلياس إلى لوحة هيلين على الجدار ثم إلى شمّو وقال له: يا تُرى هل توفّرت الفرصة للكلام بخصوص طلبي الإرتباط بهيلين؟

نحن موافقون على الموضوع. أما التفاصيل فالأفضل الكلام عنها مع رمزية.

قام إلياس وعانقَ شمّو وقبّله.

حين عادت رمزية بصينية الشاي، قال لها: أخبرتُ إلياس بأننا وافقنا على تزويجه ابنتنا.

جلست رمزية بجانب زوجها.

هيلين ستكون بعيوني دائماً، قال إلياس وهو ينظر إلى رمزية.

تسلم عيونك، قالت رمزية.

بالمناسبة، أنا قدّمت للعمل في مجلة نينوى ووعدوني خيراً، قال إلياس، هناك موظف سيتقاعد الشهر المقبل وأنا أحل محلّه.

مبروك.، قالت رمزية، هذا خبر جيد.

أنا جاهز مادياً لمصاريف العرس. نعمل الحفلة بعد اسبوعين؟

لا، يا إلياس، أجابت، نحن نحتاج إلى وقت أطول للتجهيز. كما تعرف هنا في القرية نعمل كل شيء بأيدينا والآن ليس حتى موسم الصوف. ونحتاج أيضاً أن ننزل إلى المدينة لشراء تجهيزات العرس. يعني قل على الأقل شهرين.

معنى هذا بإمكاننا أن نحدّد موعد العرس ليكون آخر خميس من شهر تشرين الثاني مثلاً؟ سأل شمّو.

نعم، هكذا معقول، قالت رمزية.

منتشياً، قال إلياس بحماس: ما رأيكم لو نزلتم كلكم معي إلى الموصل؟ بإمكاني أن آخذكم إلى السوق وفي طريقنا نمرّ على بيت أختي فتلتقون بها.

نظرت رمزية إلى شمّو نظرة تساؤل فقال لها زوجها: خوش فكرة. أنتِ وهيلين يمكنكما أن تنزلا مع إلياس، بس لا تنسي أن تشتري لي ولآزاد بعض العلكة أم السهم.

ابتسم إلياس وقال: أنا أجلب العلكة معي عندما آتي الجمعة المقبلة. وبعد الدرس ننزل معاً؟ طبعاً بإمكانكم المبيت في بيتي أو بيت أختي. إتفقنا؟

أومأت رمزية برأسها، وقال شمّو: مادام فيها علكة اتفقنا.

ضحكوا.

كان يحيى على كرسيه العالي حينما رنّ جرس الباب. ركضت سناء لتفتحه للضيوف الذين كانت تنتظرهم بلهفة. رحّبتْ بهيلين وأمها وتبادلت معهما القبلات، ثم دعتهما للجلوس في غرفة الضيوف. كانت قد عملت تواً الشاي بالهيل وتركته على نار هادئة، وجهّزت البقلاوة والكعك.

أخذَ إلياس يحيى بين ذراعيه. جلب ابنه وعرّفه إلى رمزية أولاً فقبّلت رأسه وناولته لهيلين. جلس الطفلُ في حضنها وهي تبتسم له. تأمّلته وهي تفكّر بأنَّ له عيني أبيه اللتين يشع منهما الذكاء. انتابها إحساس من الفرح والقلق في الوقت نفسه فقد وضعوا في حضنها إبنها الجديد على حين غرة وهي لسبب ما لم تفكر فيه من قبل، فأن يأتيها إبن من دون حمل ولا ولادة لهو هدية مربِكة لحواسها على نحو كبير.

أين رولا يا سناء؟ سأل إلياس.

ذهبت مع كَريم إلى حفلة عيد ميلاد إبنة عمها وسيأتيان بعد قليل.

جلبت سناء صينية الشاي وحمل إلياس باكيت البقلاوة بيد وصحن الكعك باليد الأخرى وقدّمهما لرمزية، وحين تقدّم من هيلين دعت يحيى يأخذ قطعة من الكعك أولاً فقال إلياس: لن يدعكِ تشربين الشاي براحة.

ليست مشكلة، أجابت هيلين.

ترك إلياس الحلويات على الطاولة أمام الضيفتين وجلس. حاولتْ سناء أن تأخذ يحيى من حضن هيلين لكنه رفض.

هذه أول مرة أرى يحيى يثبت في حضن، قالت سناء.

ابتسم إلياس وقال «طبعاً. مادامت الحلويات أمامه.» وقال لنفسه: البنت الحلوة خلفه.

حين انتهوا من شرب الشاي، سأل إلياس أخته: تأتين معنا إلى السوق أم تنتظرين كَريم ورولا؟

فكّرت سناء قليلاً ثم قالت: يمكن من الأسهل لو أنك وهيلين تشتريان خواتم الزواج بمفردكما. مارأيكِ يا رمزية؟

تردّدت رمزية في الإجابة فأضافت سناء: دعينا نجلس على راحتنا، وعند العصر يطيب الجو أكثر فنخرج ونتسوّق معاً.

مثلما تحبين، أجابت رمزية.

حين وصل مع هيلين إلى نهاية الشارع، أشار إلياس بيده قائلاً: بيتي العتيق هناك في السرجخانة. أعتقد عمره أكثر من مئتي سنة. بيت تاريخي كما يقول صاحبه. الأهم من ذلك أنه قريب من الجسر العتيق الذي ما أن نعبره حتى نصبح في منطقة الغابات ومن هناك مباشرة إلى مدينة الألعاب. ذهبتِ إلى مدينة الألعاب من قبل؟

مرّة وأنا صغيرة ذهبتُ مع خالي مراد.

ما رأيكِ نذهب الآن إلى مدينة الألعاب؟

أ لا نتأخر في العودة إلى البيت؟

لا، لا. دعينا نذهب.

عند مدخل مدينة الألعاب، قال: أول شيء نصعد رولر كوستر.

مباشرةً؟

لكي يصبح الباقي كله سهلاً.

إلتفافات العربة الكوستر جعلت جسديهما ملتصقين، وحين صعدت عربتهما إلى أعلى نقطة، أغلقت هيلين عينيها وصرخت. نزلت العربة بسرعة فائقة ثم سارت بهدوء حتى استقرّت على السكّة.

بَعدها مشيا قليلاً وكانت أمامهما كافيتريا مفتوحة في الهواء الطلق.

عطشانة؟ تعالي نشرب شيئاً، اقترح إلياس.

في الكافيتريا عدّد النادل المشروبات المتوفّرة. اختارت هيلين أن تشرب عصير برتقال. إلياس طلب لبن أربيل.

أنت تحب اللبن، قالت هيلين.

لو هبطَ واحد من جماعتنا إلى المريخ، إحزري ماذا يفعل هناك؟

صمتت متظاهرة بأنها تفكر بجد ثم قالت: ماذا يفعل؟

يفتح مطعم كباب ولبن أربيل.

ضحكت وسألته: أنت تعرف تطبخ؟

لا، أعرف آكل فقط.

إذن عليك أن تتعلم لأني لستُ ماهرة بالطبخ وخاصة الرز صعب تضبيطه.

لاااا، أنا أحب الرز.

يعني تأكل رز وبطاطا وتقول الريجيم لا يفيد؟

فهمت قصدكِ. تعالي نصعد دولاب الهواء. أحلى شيء إذا تعطّل الدولاب هناك فوق.

نظرت هيلين إلى الأعلى حيث الدولاب ومثّلت نظرة خوف.

يا خوّافة. أعرف كم كنتِ مرعوبة هناك في الرولر كوستر.

على أساس أنت لم تكن خائفاً. كنتَ ممسكاً بمقبض العربة بكل قوتك.

هزّ إلياس رأسه وقال: ولكن بجد، مَن خاف أكثر؟

أنتَ.

هاتِ يدكِ لنرى مَن الأقوى، قال وهو يضع عِكسه على الطاولة.

حاولتْ بكل قوتها أن تغلبه ويداهما المتشابكتان في الوسط تتزحزحان قليلاً إلى اليمين وإلى اليسار وفي الأخير غلبتهُ هيلين أو جعلها تغلب.

أنتِ قوية. تلعبين رياضة؟ سألها.

لا، ولكن أنزل وأصعد الجبل كل يوم كما تعرف. وأنتَ؟

مرات ألعب كرة قدم.

لدى خروجهما من مدينة الألعاب، توقّفا عند محل «كل شيء بدينار.» اشترى إلياس كيساً شفافاً بداخله بالونات عليها كلمات للمناسبات. قال لهيلين: دعينا نوزّع هذه على الطلاب في الدرس المقبل ونطلب منهم قراءتها كامتحان. ما رأيكِ؟

فكرة حلوة، أجابت.

التقط إلياس من داخل الكيس بالونة حمراء ونفخها بوجه هيلين وهي تضحك. كبرتْ كلمة «أحبك» المكتوبة على تلك البالونة حين نفخها.

أمام الدكان، كانت هناك امرأة تبيع حاجيات صغيرة على الرصيف. شيء واحد معيّن استرعى انتباههما معاً: خاتم منقوش عليه طائر يشبه القبج.

التقطه إلياس وأعطاه لهيلين لتجرّبه فكان كبيراً عليها. جرّبه إلياس وكان صغيراً عليه. أرجعهُ إلى مكانه على قطعة القماش المفروشة وسأل البائعة: خالة، عندكِ أحجام أخرى من هذا الخاتم؟

لا، عندي هذه الأشكال الأخرى. كلها جميلة، جرّبوها، أجابت.

نريد هذا خاتم الطير بالذات، قال إلياس.

حرامات، قالت هيلين، ليس على قياسنا.

ابتعدا خطوتين للمضي في طريقهما فنادتهما المرأة قائلة: تعالوا تعالوا. إذا أعجبكما شكل الطائر هذا كثيراً بإمكاني أن أعمله لكما وشماً.

استدار كلاهما إليها فأضافت وهي تشير بيدها إلى الجهة المقابلة من الشارع: لو تعبران الشارع معي. هناك مكاني والعدّة وكل شيء.

ظلاّ واقفين دقيقة يفكّران ثم سأل إلياس هيلين: مارأيكِ؟

الوشم لم يكن ببالي ولكن إذا أعجبك يعجبني أيضاً، أجابت هيلين.

وقفت المرأة ولملمت أغراضها وأشارت إليهما ليتبعاها.

كان مكانها صغيراً للغاية فلا يكاد يزيد حجمه عن بيت دجاج في القرية، ولم يكن فيه من الأثاث سوى كُرسي وطاولة لكنها طاولة مكتبية من النوع الجيد بجواريرها وخشبها الصاج الأصلي. عليها كتاب ضخم وإبر مختلفة الأحجام وخيوط وأنابيب وقناني مربعة صغيرة بأحبار ملوّنة.

أين تريدان الوشم؟ سألت المرأةُ بعد أن أنزلت العباءة إلى كتفيها ورفعت كمي ثوبها الطويلين. تبيّنت على صدرها قلادة فضية كبيرة بتعويذة سبع عيون. لونها التركوازي يتناسق مع قرطيها اللذين على شكل هلال. عيناها واسعتان بشكل ملحوظ في وجهها النحيف الذي لوحته الشمس. بالرغم من التجاعيد على وجهها، خفة حركتها وحيويتها توحي بالشباب.

نظر إلياس إلى هيلين فقالت: مثل ذلك الخاتم، أليس كذلك؟

«تقصدين على البنصر؟» رفع إلياس يده اليسرى قليلاً ونظر إلى بنصره. «لمَ لا؟»

معظم زبائني يعملون الوشم على زنودهم، قالت المرأة، ولكن بإمكاني أن أعمله لكما على البنصر مثلما تريدان.

عندما انتهت من رسم خاتم الطائر على بنصريهما، ابتسما وقد راقت لهما النتيجة.

هل من شيء آخر أعمله لكما؟ سألتهما المرأة.

لا، شكراً خالة، قالت هيلين.

أنا أسأل لأن فعلاً عندي شيء آخر، قالت المرأة وهي تلتقط الكتاب الكبير من فوق الطاولة، أقرأ لكما الفأل في هذا القاموس وأي شيء تعطيانه لي نعمة من الله.

ومن دون أن تنتظر جواباً، أغلقت عينيها وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة ويداها النحيفتان تحيطان بالكتاب. فتحته ببطء شديد. صمتت لبرهة من الوقت ثم قالت: أرى رولر كوستر.

رفعَ إلياس حاجبيه ناظراً إلى هيلين وقد استأنفت المرأة: أرى شخصاً تكون حياته في صعود ونزول كعربة الرولر كوستر، ثم استقرار في مكان بعيد. ذلك الشخص سيضيع ولكن يجد باب أمل وكل ما عليه أن يفعله هو أن يعثر على المفتاح المناسب. ليس من السهل أن يعثر على المفتاح وليس صعباً

كذلك. هناك رحلة شاقة ولكن هناك أيضاً أشخاص سيقدّمون له المساعدة. في كل محطة شخص في انتظاره.

أوشكت المرأة أن تقول شيئاً آخر لكنها توقّفتْ، وأخيراً أغلقت الكتاب وأرجعته على الطاولة.

قال إلياس لهيلين وهما يعبران الشارع وخلفهما محل المرأة الصغير: شيء غريب جداً، كأنها رأتنا معاً في الرولر كوستر، أليس كذلك؟

أحببتُ دقّتها في رسم الوشم ولكن أقلقتني قراءتها للفأل، قالت هيلين وهي تنظر إلى الوشم على إصبعها.

مَن يبالي بكلام العرّافات؟ قال إلياس. وبعد لحظة صمت سألَ: يا تُرى ما هو المفتاح الذي تحدّثتْ عنه؟

ظننتكَ لا تبالي بكلام العرّافات، قالت هيلين وهي تبتسم.

العالم مستوياً

مارسَ طلابُ القرية، الكبار والصغار على حد سواء، كتابةَ الحروف والكلمات والجُمل على الأوراق والصخور وجذوع الأشجار. أما تلك التي خطّوها على التراب فقد مسحتْها مياه الأمطار فصارت جزءاً من ذاكرة الطين.

في نهاية الدرس الأخير المصادف 19 تشرين الثاني 1999، قال إلياس: مبروك، أنتم تعلّمتم كلَّ الحروف وأنا فرحان بهذا. اليوم أنتم تخرّجتم.

هل هناك حفلة تخرّج؟ سأله أحد الطلاب الكبار وكان مرتدياً البياض من رأسه إلى قدميه: عقال ودشداشة وحذاء كتاني.

دعونا نحتفل بتخرّجكم مساءً، أجاب إلياس.

نجلب آلاتنا الموسيقية؟ سأله قروي له أربع ضفائر شعر طويلة تتدلى من تحت طاقيتهِ البيضاء.

بالتأكيد، أجاب إلياس، وعندي خبر أعتقد سيسعدكم وهو أني سأتزوّج هيلين وحفلة عرسنا ستكون في هذه الساحة يوم الخميس، وأنتم كلكم مدعوون.

أطلق الطلاب صافرات تهنئة.

تناقلوا خبر العرس من شخص إلى آخر ووزّع أهل هيلين حلويات من نوع حامض - حلو على مساكن القرية بدل بطاقات الدعوة لتأكيد الموعد. وهكذا بدأت استعدادات الجيران والأقارب للمساهمة في الاحتفال. جلبوا من النبع ما يكفي من الماء. جمعوا حطباً أكثر من المعتاد ورتّبوا الساحة وزيّنوها

بالفوانيس. دقّوا على الحنطة الخشنة بالمطارق الخشبية كي تنعم وهم يغنّون أغاني الحنطة ويدعون للعرسان الجدد بأن يتكاثر رزقهم كتلك الحبات المتقافزة تحت المطرقة. طبخوا أطباق الوليمة وعلى رأسها البرغل. حملوا إلى الحفلة صواني الطعام التي سيُرجعها أهل العروس إليهم مع هدايا بداخلها.

وتماشياً مع التقاليد، وقف إلياس وجماعة من الشبان على تلّة وقد شدّوا حول رأسه منديلاً ملوّناً فصارت له سلطة الباشا وعليه من أجل أن يلعب الدور أن يوجّه تهمة لأحد الحاضرين فيما يحاول المتّهَم الدفاع عن نفسه، فإذا قرّرت الجماعة بأن المتّهَم مذنب سيتحتّم عليه أن يخسر مبلغاً من المال يُصرف في الحفلة أو يتبرّع به العريس لمن يشاء. وإذا قرّروا بأنه بريء فأنه ينتزع المنديل من رأس العريس ويذهب به إلى الفتيات من جماعة العروس فيحصل منهن على هديّة. نظر إلياس إلى الشباب المبتسمين حوله واحداً واحداً، وفي النهاية وجّه التهمة لأحدهم قائلاً: تهمتك خطيرة. أنت تغيّبتَ عن درس الجمعة الأخير.

فكّرَ الشاب دقيقة ثم أجاب: كنتُ مشغولاً بالتحضير لمقابلة مهمّة مع الباشا.

تداول الشباب الحُكم فيما بينهم وقد أعلن أحدهم بأن المتّهم بريء، ولكن ثلاثة منهم احتجّوا بشدة. قال أحدهم «نحن مُعارَضة.» ضحكَ إلياس بينما باغته الفتى وغادر بالمنديل وسط صخب المجموعة وضحكهم.

مع بدء سماع الطبل والمزمار، تشكّلت حلقة الدبكة ودوت بين الجبال هلاهل النساء. استمر الاحتفال حتى الساعات الأولى من الصباح حينما غادر العروسان على ظهري حصانين تمّ تأجيرهما لذلك الغرض. سيعيدان الحصانين لشابين سبقاهما في النزول، وهناك في الشارع غير المبلّط سينتظرهما سائق سيارة. لمّا وصل العروسان إلى المنطقة المنبسطة أسفل الجبل، لمح إلياس أمامه شجرة التين تلك التي تخصّهما. أوقف حصانَه فأوقفت هيلين حصانَها أيضاً. قفزَ عن ظهر الحصان وأمسك يدها لتنزل هي كذلك. ظلّ ممسكاً يدها بينما تقابلت نظراتهما.

أزاح إلياس الطرحة الشفافة عن وجهها إلى الخلف وقد سمع صدى ضربات طبل أو ربما تلك كانت نبضات قلبه. لاحظ جفنيها ينسدلان فانحنى لتتقابل شفتاهما للمرة الأولى. حين فتحا عيونهما، رأيا شيئاً لا يقل دفئاً عن تلك القبلة. كان حصانها قد أراح رأسه فوق رقبة الحصان الآخر. تبادل إلياس وهيلين ابتسامة. سحبَ يدها قائلاً: لا يجوز أن نقاطع عناقهما. تعالي نجلس قليلاً عند شجرتنا لحين يتذكّر الحصانان العاشقان بأننا هنا.

جلسا وقد أحنت هيلين رأسها على صدر زوجها فصارا يشبهان حصانيهما تقريباً.

كانت حلوة الحفلة، أليس كذلك؟ سـألت هيلين.

الحفلة انتهت وقلبي مازال يدق الطبل والمزمار، أجابها.

قل لي قصيدة، طلبتْ منه.

نظر إلياس إلى الأعلى ثم إليها وبدأ:

يا بحر قلبي سفينة وإلك راح

منعت هواي عنك وإلك راح

وما رَد إلي قلبي اللي إلك راح

لا تكلي شراح مني وإلك راح

كأنه راح إلي اللي إلك راح.

الله، صاحت هيلين وكانت على وشك أن تطلب منه بأن يعيدها ولكنها لاحظتْ بأنّ الحصانين ابتعدا قليلاً فقامت مسرعة خشية أن يهرب الحصانان ويتركانهما في الظلمة. أسرعَ إلياس وجاء بحصان هيلين لتمتطي ظهره أولاً وحين استقرّت فوقه امتطى حصانه هو أيضاً. أدار وجهه إلى جهة هيلين وقال «هذان بمثابة سيارة الليموزين.» انطلقا وهما يضحكان.

بدت المدينة بالنسبة إلى هيلين عالماً مستوياً فلا نزول إلى الوادي ولا صعود إلى الجبل. مع ذلك انبهرتْ بأشياء كثيرة أولها الكهرباء التي تجعل المكان مضاءً في الغرفة كلها بدرجة متساوية. لذلك لم تتذمّر هيلين كباقي سكّان الموصل من انقطاع الكهرباء المتواصل لأنها كانت معتادة أصلاً على غياب الكهرباء. كما راق لها أن تشاهد التلفاز وشعرت بأنها أينما تحرّكت في الغرفة تظل مقدّمة البرنامج تنظر باتجاهها مباشرة. تفتح شبابيك البيت كلها في الصباح مثلما هي معتادة ولو أنها لا ترى أشجار التوت ولا طيور القبج، لكن هناك شجرة نارنج في حديقتها الصغيرة أمام البيت وأرجوحة تحب أن تجلس فيها مع يحيى في الأمسيات حينما يذهب إلياس إلى شغله في المجلة. إلياس أعجبته التغييرات التي أحدثتها هيلين في البيت وأسماها لمسات فنية. فهي طرّزت لوحة مستطيلة علّقتها على الجدار وأخرى صغيرة مربعة وضعتها على الطاولة. هناك دكّة حجرية واطئة على طول الحائط على جانب من جوانب غرفة المعيشة حوّلتْها إلى جلسة شرقية بأن وضعت فوقها «جودلية» مطرّزة بألوان حارة. أحبَّ إلياس ذلك جداً وصار ذلك مكانه المخصص لشرب القهوة. أحبّتْ القهوة التركية بالهيل التي يعملها إلياس فصارت تأخذ معها كيساً من البُن إلى القرية عند الزيارة المعتادة كل يوم جمعة.

أفراد العائلة الجديدة ثلاثتهم يتطلّعون بشوق إلى تلك الزيارات الأسبوعية بالرغم من أنّ الرحلة صارت تستغرق وقتاً أطول لأنهم يتوقفون في الطريق بين فترة وأخرى ليستريح يحيى قليلاً أو يستريح إلياس حينما يحمله. إلياس أحياناً يصرّ أن يحمل هيلين على ظهره بالرغم من تمنّعها فيـأخذ يديها من الخلف ويرفعها على ظهره وهو يضحك بينما يقفز يحيى بفرح.

بعد ثلاث سنوات من الزيارات المتواصلة تعلّقَ يحيى بقرية حليقي وخاصة اللعب مع أغنام أمينة، صار يبكي كلما غادروا القرية. أحياناً ترافقهم أمينة في طريق العودة إلى المدينة لتمضي يوماً أو يومين مع هيلين. مرّة في طريق العودة، يحيى الذي أكملَ الرابعة من عمره سألَ أمينة: ألا يمكن أن تأتي الخرفان معنا؟

ياريت، أجابته أمينة.

في الجمعة الثالثة من آذار 2003 كان يحيى ينتظر أن يأخذه أهله كالمعتاد إلى المرتفعات الزراعية الواسعة فيركض بين المواشي والدجاج أو يذهب مع آزاد ليمسّد الحية. ولكن الوضع العام في البلد كان متوتّراً لأن أمريكا غزت العراق تواً وكان الناس يترقّبون ما يمكن أن يحدث. أصوات الغارات الجوية على الموصل جعلتهم غير راغبين بالخروج من البيت. ولكن في ذلك المساء شعرت هيلين بغثيان ودوار شديد فاضطروا للذهاب إلى عيادة قريبة. وهناك أخبرهم الطبيب بأنّ هيلين حامل.

ستكبر بطنكِ فلن أستطيع حملكِ على ظهري، علّقَ إلياس في طريق العودة إلى البيت. قرصتْهُ هيلين من زنده وقالت: بطنك كبيرة أيضاً.

كبرتْ تضامناً معكِ، أجابها وهو يضحك.

مرّت ثلاثة أشهر من دون زيارة القرية الجبلية وذلك كان أطول وقت يمرّ بهيلين من دون زيارة أهلها وقد اشتاقت بشكل خاص إلى أمينة. تذكّرتْ كيف مرّة حينما كانتا بنتين صغيرتين زعلت أمينة لأنّ هيلين ذهبت إلى المدينة عند بيت خالها وبقيت هناك اسبوعاً من دون أن تخبرها. حينذاك سألتها هيلين «ثمّ ماذا؟ ما الخطأ في ذلك؟» وأجابتها أمينة «لاشيء، فقط شعرتُ بالوحدة من دونكِ.»

تمنّت هيلين أن تشعر أمينة مرة أخرى بالوحدة من دونها. كانت تفكّر بذلك وهي في الفسحة الأمامية للبيت وبيدها خرطوم الماء لتسقي الحديقة، وبعد دقائق حضرت أمينة مع آزاد. لم تقاوم هيلين رشّهما بالماء مثلما اعتادوا أن يفعلوا كل سنة في عيد الرشاش في بداية شهر تموز حيث يرش القرويون بعضهم بعضاً بالماء للتبارك، وعندما يغادر أحدهم المنطقة لغرض بَعيد يرشون الماء خلفه كتعويذة من أجل السلامة.

رمت هيلين خرطوم المياه جانباً وركضت إليهما. حضنتهما وقالت: لندخل.

جلس آزاد في الأرجوحة بجانب يحيى وقال: أفضّل أن أجلس هنا.

دخلت أمينة مع هيلين إلى غرفة المعيشة وفي يدها كيس ورقي.

عملت هيلين الشاي وسخّنتْ معجنات الكليجة. وضعت حصة آزاد ويحيى في صينية وأخذتها إليهما على طاولة صغيرة بجانب الأرجوحة ثم عادت إلى صديقتها في غرفة المعيشة. ارتشفت أمينة الشاي وقالت: كنتُ أحزم أغراضي وعثرتُ على هذا الكيس. القي نظرة.

فتحت هيلين الكيس ووجدت بداخله رسوماتها عندما كانت صغيرة. اندهشت لأنّ أمينة لم تخبرها يوماً بأنها احتفظت بتلك الرسومات.

رسوماتي كلها فيها شمس، قالت هيلين وهي تتصفحها مبتسمة، احتفظتِ بها كل تلك السنوات يا أمينة؟

كان عندي أمل بأن تساوي ثروة حينما تصبحين فنانة مشهورة.

ابتسمت هيلين وقالت: يعني أنتِ ترجعينها الآن لأنكِ عرفتِ بأنها ليست ذات قيمة؟

جلبتُها لأريها لكِ للتسلية فقط وليس لأرجعها لكِ.

ولكن لماذا قلتِ بأنكِ كنتِ تحزمين أغراضكِ؟

لأني سأنتقل إلى قرية حردان. جئتُ أدعوكِ إلى حفلة زواجي يوم 4 كانون الأول، والليلة التي قبلها ستكون ليلة الحنة.

مبروك. مَن سعيد الحظ؟

إسمه قطّو.

قطّو؟

هو كذلك فعلاً، مقطوع من شجرة. في الواقع سُميَ على اسم جدّه الأكبر التركي. في ذلك الزمان قبل مئة سنة أُبيدت عشيرته كلها في أثناء الفرمان العثماني العسكري الذي وقع على الأيزيديين في تركيا فقُتل مَن قُتل وهرب مَن هرب. وكان قطّو الجد آنذاك طفلاً رضيعاً ملفوفاً بقماش أبيض ومتروكاً تحت شجرة وقد تكدّست فوقه أوراق الشجر. عثرت عليه امرأة إسمها خُناف. كانت في الطريق للهرب من تركيا مع باقي الأيزيديين. خُناف لم تكن متزوجة حينما أخذت قطّو، ومع هذا ربّته إبناً لها. بقيت خُناف من دون زواج ولكن بوجود إبن لها اعتبروها متزوجة وإن كانت عذراء. الناس الذين سمعوا قصة الولد أسموهُ قطّو المقطوع من شجرة، فصار ذلك اسمه. حفيده أيضاً ربّته أمّه نسيمة وحدها فقد مات أبوه قبل أن يولد وصاروا يسمّونه قطّو إبن نسيمة. حتى في هويته الشخصية إسمه قطّو نسيمة لأنهم ظنوا بأنَّ ذلك هو اسمه الكامل.

وكيف التقيتما؟

في الشتاء جاء ليشتري صوفاً من أبي. وفي الربيع جاء وطلب يدي. قال بأنه في عيد خضر إلياس حلمَ بـأنه شرب الماء من يدي فقرّر بأني شفيعته.

لطيف. المهم أنتِ تحبّينه؟

في البداية لم أكن أحبه ولا أكرهه ولكني أحببتهُ بعد الخطوبة.

أضافت أمينة وهي تبتسم: قال لي بأنه يتمنّى لو كان خروفاً من خرافي لأني أعتني بها كثيراً.

إعتنِ به هو أيضاً يا أمينة. يبدو لي من كلامك بأنه حنون.

هو كذلك فعلاً. وافق أن آخذ أغنامي معي. في البداية قال اتركي أغنامكِ وأنا أشتري لكِ غيرها ولكني رفضتُ وقلت أريد أغنامي نفسها.

الأغنام الأخرى ليست نفسها التي عندكِ ولو الأغنام كلها متشابهة في الشكل، قالت هيلين وقامت لتصب المزيد من الشاي.

أومأت أمينة برأسها فصبّت هيلين الشاي في الكوبين. أخذت أمينة قطعة كليجة من الصحن أمامها وقالت: أخبريني كيف الزواج معكِ يا هيلين؟

أنا حامل، أربعة أشهر.

والله؟ لا يبدو عليكِ ذلك.

رفعت هيلين قميصها لتري بطنها لأمينة.

ربما لن تستطيعي الصعود إلينا يوم العرس، قالت أمينة، لا تبالي، سأتفهّم تماماً.

الولادة في نهاية الشهر العاشر وما كنتُ سأفوّت عرسكِ حتى لو حدثت ولادتي في الطريق إلى الجبل.

في تلك اللحظة سمعتا صوت إطلاقات نارية.

يقولون هناك طلقات طائشة تصيب المارة في الليل، قالت هيلين.

نحن لا نسمع أي صوت لإطلاقات نارية في القرية ولكن سمعنا من زوّار لنا بأنَّ الحرب بدأت مرة أخرى، قالت أمينة.

تخطت هيلين إلى الباب ونادت آزاد ويحيى كي يأتيا إلى الداخل.

متى يأتي إلياس إلى البيت؟ سألها آزاد وهو يدخل مع يحيى.

دوامهُ مسائي. لا يأتي حتى منتصف الليل، أجابت هيلين.

سهروا حتى الواحدة صباحاً في انتظار إلياس. حين وصل أخبرهم بأنه تأخر لأنَّ نموراً هربت من أقفاصها في حديقة الحيوان مما سبّبَ بلبلة في بعض الطرقات وحوادث مرور بسبب تباطؤ السيارات وانحرافها عن سيرها. «لم يصدّق الناس أعينهم وهم يرون النمور تسرح في الشوارع. بعضهم قالوا

بأنّ النمور قتلوا مشاة على الجسر وآخرون قالوا بأنّ النمور هي التي قُتلت بإطلاقات نارية على الجسر،» قال إلياس.

في الصباح هدأت أصوات الطلقات فقرروا التمشّي في السوق قبل مغادرة آزاد وأمينة. وهناك في محل هدايا صغير توقّفت هيلين أمام غطاء مائدة من قماش معمول يدوياً. كان فيه منظر طبيعي يشبه قطع الإيتامين الملوّنة التي تصمّمها بنفسها. مضت إلى الرجل المسن الذي كان يدير المحل وسألته: عمّو، بكم هذه القطعة؟

بعشرة دولارات. هذا شغل يدوي، قال الرجل.

أنا أعرف كيف أعمل هذه. لو احتجتَ إلى المزيد، بإمكاني أن أجلب لك منها، قالت هيلين.

فكّر الرجل قليلاً ثم قال: إجلبي لي نموذجاً لأراه.

ماشي، سأعود غداً، أجابت هيلين.

رسمتْ هيلين طائراً على قطعة قماش مربعة وطرّزت جناحيه بخيوط ملونة. حين أخذتْها لصاحب المحل، سألها: هذا منديل؟

هو غطاء لطاولة صغيرة ولكن من الممكن استخدامه كمنديل، أجابته.

طيّب اعمليه أصغر قليلاً كي نعرضهُ كمنديل. إجلبي عشرة مثلاً وإذا بعتُ منها أعطيك نصف الربح. مارأيكِ؟

فرحت هيلين بذلك العرض وما أن رجعت البيت حتى باشرت برسم ورق شجر وحيوانات وطيور على أقمشة مربعة.

في ذلك المساء أرتها لإلياس فأطلق صافرة. «أخشى أن تكون هذه صافرة طلب النجدة.»

ضحكت هيلين وقالت: هي كذلك.

صحيح؟

لا، أتشاقى معك.

على أية حال، هنا لا يفهمون لغة الصفير.

يعني أكيد أعجبتك هذه المناديل؟

«رائعة وخاصة هذه،» قال إلياس ملتقطاً منديل الطائر «ليس تحيّزاً للطائر الحبيب ولكن فعلاً هذا المنديل هو الأجمل.»

هذه ستُعرض في محل هدايا وكل قطعة تُباع عندي منها ربح.

أضمن لكِ بأن واحدة على الأقل ستُباع، قال إلياس، أنا أشتريها.

بعد شهرين، طلبَ صاحب المحل من هيلين أن تُكثر من عمل منديل الطائر لأنه كان الأكثر مبيعاً في محله.

ألم أقل لكِ ذلك؟ قال إلياس.

كان مساءً غائماً من أمسيات تشرين الثاني 2003، وهيلين تتمايل أفكارُها مع حركة الأرجوحة فقد مرَّ أكثر من أسبوع على موعد الولادة. تذكّرت كلمات أمّها بأنّ الثمرة لا تسقط على الأرض إلا حينما تنضج وهكذا المواليد لا يأتون إلا حينما يحين وقتهم.

في تلك اللحظة، قطعت أفكارَها كرةُ طفل ملونة عبرتْ الحائطَ الفاصل بين حديقتها وحديقة الجيران واستقرّت على أغصان شجرة النارنج. حاولت هيلين، ببطنها البارزة، أن ترفع نفسَها وتهزّ غصن الشجرة لكي تُسقط الكرة. في أثناء محاولتها تلك، ظهرَ ولد وأمه عند الباب الخارجي. طلبت الأم من هيلين الإذن بالدخول واستعادة الكرة.

بعد أن عرّفت أم الولد بنفسها قائلة بأن إسمها شيماء، قالت لهيلين: إحذري. لاتؤذي نفسكِ.

توقفت هيلين عن هز الشجرة واستدارت وهي تقول: تصوّرتُ بإمكاني إنزالها.

لو سمحتِ، إبني يُنزل الكرة فهو قرد بارع وبإمكانه أن يفعل ذلك.

ضحكت هيلين وأومأت برأسها للولد.

متى موعد الولادة بالخير؟ سألتها شيماء بينما ابنها يتسلّق الشجرة.

فات الموعد.

حين قفز الولد من الشجرة والكرة بيدهِ، ابتسمت له هيلين وقالت: أها. جلبتَها بسرعة. ما اسمكَ؟

حميد.

بأي صف أنتَ يا حميد؟

في الصف الثاني.

ما شاء الله.

في اليوم التالي كان إلياس في باحة البيت يروح ويجيء ويمسح دموعه لأنّ هيلين في غرفة النوم مع القابلة المأذونة تصرخ من الألم منذ ساعتين. خُيلَّ إليه للحظة أنه سمع بكاء الوليد. خطا بضع خطوات باتجاه الغرفة ثم عاد وهو يفكّر بأنّ صوت الطفل ربما في ذهنه فقط. لا، حقيقة!

خرجت القابلة وقالت لإلياس: مبروك. الأم والولد كلاهما بخير.

القابلة التي على يدها وُلد معظم أطفال المحلة، أشارت بيدها لإلياس فتبعها مذهولاً إلى الداخل.

أسرعَ إلى هيلين وطبعَ قبلة على جبينها. لم تتحرك، بدت نائمة. ولكنها سمعتهُ عندما تلفّظ بإسم ياسر.

بعد بضع ساعات، حضرت سناء مع رولا ويحيى ليروا ياسر. جلبت معها قدراً من الدولمة. التقط إلياس صينية من المطبخ وقلبَ عليها قدر الدولمة ووضعها على الطاولة. سمعوا طَرقاً قوياً على الباب. حين فتح إلياس الباب، دخل فريق تفتيش أمريكي يتكون من 15 جندياً انتشروا نحو غرف البيت الثلاث. أحدهم أخبر إلياس بأنهم يبحثون عن إرهابيين وكان ينظر إلى الصينية الكبيرة حيث البخار يتصاعد من ورق العنب. إلياس دعا الجنودَ لتذوّق الدولمة فأخذ كل منهم حبة دولمة واحدة. شكروهُ وغادروا. أغلق إلياس الباب وراءهم قائلاً: أعجبتهم الدولمة.

كانت كافية؟ سألته سناء.

كانت ستكفيهم جميعاً ولكنهم تذوّقوها فقط، أجابها.

بعد ذلك جاءت اللحظة الإنفعالية الأخرى فقد ودّعتْهم سناء بأن حضنتهم واحداً واحداً لأنها ستغادر إلى السليمانية بسبب انتقال زوجها للعمل في الجامعة هناك.

تكاثرت الدبابات في شوارع المدينة وازداد قلق السكّان وتشوّشهم. وبداخل ذلك القلق العام، كان هناك قلق خاص بداخل هيلين، مثل كنغر صغير في بطن كنغر كبير. قلق أم شابة على وليدها الجديد. لم تكن هيلين واثقة من أنها تفعل الشيء الصحيح لياسر حينما يبكي. إلياس يطمئنها بألا شيء فيه مادام ليس جائعاً ولا متّسخاً. تحملهُ أمه فيهدأ.

أرأيتِ؟ هو يتدلّع فقط، يقول زوجها.

كان من المفترض ألا تخرج هيلين من البيت قبل مضي أربعين يوماً على ولادتها كما تقتضي فترة النِفاس ولكنها لم تشأ أن تتغيّب عن عرس أمينة. لذلك حملَ إلياس الطفلَ الوليد وأمسكت هيلين يد يحيى وتوجّهوا إلى القرية.

ما أن دخلت هيلين بيت أهلها حتى استقبلتها أمها بالزغاريد وباركت المولود الجديد بأن وضعت دبوس السبع عيون على ردائه الأبيض القطني وهي تقول: ماذا؟ يبكي كثيراً؟ ليس فيه شيء، فقط غازات.

قال شمّو: دعوني أختنهُ.

في هذه الزيارة، سيبقى إلياس في بيت أهلها وتذهب هيلين إلى بيت أهل أمينة لأن حفلة الحنة مخصّصة للنساء فقط. يضعن الحنة على أكفهن وأرجلهن ويغنين ويرقصن حول صينية الشموع والحلويات احتفالاً بآخر ليلة تقضيها العروس في بيت أهلها. بدأت النساء المتزوجات بإعطاء أمينة نصائحهن وبعضها نصائح طريفة: «الحب أعمى لكن تذكّري بأنه يفتح عيونه جيّداً بعد الزواج.» و «لا تركضي إلى أهلكِ منذ أول عركة.» عندما جاء دور هيلين لتقدّم لها نصيحة قالت «عاملي زوجكِ مثلما تعاملين أقرب الأصدقاء.»

بعد اسبوع من عودة هيلين من القرية، طرقت بابَها الأمامي جارتُها شيماء أم حميد إذ جلبت منشفة طفل كهدية للوليد الجديد. بعد تلك الزيارة التي بادرت بها الجارة لتبارك مولد ياسر، تطوّرت الصداقة بين المرأتين وتوالت الزيارات بينهما لدرجة أنهما ما عادتا تقفلان بابيهما لأن أي واحد من أفراد العائلتين يدخل البيت الآخر في أي وقت وكأنه يدخل بيته. كلما تذهب هيلين إلى السوق، تترك يحيى وياسر في بيت شيماء. وعندما يعود حميد من المدرسة جائعاً وأمه لم تكمل الطبخ، يدخل بيت هيلين ويتغدّى عندها. شيماء أكبر من هيلين بست سنوات ولكن تبدو أكبر من ذلك بكثير حينما تضع العباءة على رأسها.

في بعض أيام العطل، يطيب لحميد أن ينام في غرفة يحيى وياسر ولكن في يوم 11 تشرين الثاني 2005 إضطرَّ أن يبيت عندهم اضطراراً لأنّ أمه وأباه

خرجا ولم يرجعا إلى البيت. في ذلك المساء نفسه كانت حفلة عيد الميلاد المشتركة ليحيى وياسر. كلاهما وُلِدَ في ذلك الشهر بفارق اسبوع. عملت هيلين كعكتين. وضعتْ سبع شمعات على كعكة يحيى وشمعتين على كعكة ياسر. بعد إطفاء الشموع وضعت هيلين أمامهما هدية كبيرة مغلّفة وقالت: هذه هدية مشتركة لكما تلعبان بها مع حميد.

مزقوا الغلاف الورقي بسرعة ليظهر أمامهم ملعب كرة قدم مصغَّر مصمَّم لشخصين يديران المقابض الجانبية للاعبي الكرة البلاستيكيين لمحاولة إدخال الكرة في الهدف المقابل. يحيى يحب كرة القدم مثل أبيه ولذلك فرحَ بالهدية جداً وبدأ يلعب بها مع حميد. وقف إلياس وياسر يتفرجّان، ثم قال إلياس: أنا وياسر دورنا بعدكما.

لم ترجع أم حميد حتى مساء اليوم التالي. كانت تلهث حين دخلت بيت هيلين.

أين كنتِ؟ سألتها هيلين وهي تجلب لها قدحاً من الماء.

بقينا عند بيت أخي ولم ننم طوال الليل. تعرفين ماذا حدث؟

ماذا حدث يا شيماء؟

عصابة اختطفوا إبن أخي وطالبوا عشرين ألف دولار لإطلاق سراحهِ.

أوف يا ربي. هذا فظيع.

بعثوا صورته وخلفه رجال ملثمون يمسكون سيوفاً. أمّه أُغمي عليها حين رأت ذلك والمسكين أخي راح يتفاوض على بيع مطعمه لدفع الفدية. ساهمتُ بما استطعت وبعض أقاربنا وقفوا معنا بما استطاعوا. أخي طلب من العصابة أن يخفضوا السعر ولكنهم هدّدوه بأن يرجعوا الولد إليه بكيس الزبالة. استدان أخي المبلغ المطلوب بسرعة ودفعه لهم. المهم الحمد لله أرجعوا الولد ولكنه مصدوم وصامت ولا يريد حتى أن يقول لنا ماذا فعلوا به.

تخطّت هيلين إلى غرفة النوم وحين عادت دسّت 500 دولار في يد شيماء وهي تقول: خمس ورقات وفّرتها من شغل المناديل وياريت لو تمكّنتُ أن أدفع أكثر لمساعدة أخيك في ديونه.

شكراً يا هيلين. سأرجعها لك بأسرع ما يمكن.

لا تهتمي.

قولي لي كيف أهلكِ؟

ليلة أمس جاء أبي في حلمي وكان منزعجاً من أجلي.

ما الذي أزعجه؟

انكسر سني الأمامي.

أوه. يقولون يجب أن نحكي أحلامنا السيئة في الحمّام كي يزول تأثيرها.

شاشة خاوية

على سطح بيتهم ليلة الخسوف، قال ياسر لأبيه: القمر ليس هناك. بلعهُ الحوت فعلاً؟

ذلك أثار فضول يحيى أيضاً فسأل: كيف يمكن للحوت أن يبلع القمر وهو يسبح في الماء والقمر يسبح في السماء؟

كان إلياس قد سمع منذ أسابيع عن خسوف كامل للقمر وتحوّله إلى اللون الأحمر، وقد أجاب يحيى الجواب نفسه الذي كان قد سمعه من أمّه وهو صغير: القمر خطيّة كان عطشاناً وعندما مالَ قليلاً إلى النهر ليشرب من مائهِ رآه الحوت وقفز نحوه.

رذاذ المطر لم يمنع هيلين وإلياس والولدين من قرع الصواني فوق سطح بيتهم مثلما فعل باقي أهالي المنطقة في ذلك اليوم منتصف شهر نيسان 2014. لكنهم لم يشاهدوا القمر الأحمر نهائياً ذلك المساء ولم يشاهده أي شخص من أهالي الموصل. ومع ذلك فعلوا ما بوسعهم لمحاربة الحوت غير المرئي مثلما حاربَ دون كيشوت طواحين الهواء.

لا تعرف هيلين لماذا استحضرتْ أزمةَ القمر مرة أخرى بعد شهرين. تذكّرت تحديداً كلام راهب أمريكي في التلفاز أنذرَ في ذلك النهار بأنّ خسوف القمر ستعقبه حوادث مروعة في الشرق الأوسط لتزامن ظهوره مع مناسبات دينية في المنطقة. تداعت تلك الخواطر في ذهنها ربما بسبب شعورها بالإحباط لعدم تمكّنها من الصعود إلى القرية لحضور حفلة زفاف آزاد في اليوم الخامس من حزيران. منذ عدة سنوات ورمزية تذكر لآزاد أسماء البنات اللواتي تعرفهن على أمل أن يفكر بواحدة كزوجة له. لكنه لم يأخذ الأمر بجدية

حتى صار في الخامسة والثلاثين من عمره وهذا يُعتبر متأخراً للزواج في القرية. خطيبته أصغر منه بعشر سنوات وهي من عشيرة كبيرة وقد خطّط أقاربها لحفلة كبيرة. ما كانت هيلين ستتخلّف عن حضور المناسبة بالرغم من بطنها الحامل ولكن مُنَعَ التجوّل في الموصل. أعلن المذيع بأنَّ جماعة مسلّحة قامت بتطويق الساحل الغربي من المدينة وأن حظر التجول هو إجراء أمني ليتمكّن رجال الشرطة من السيطرة على الموقف.

معنى هذا لا امتحان ولا مدرسة اليوم والحمد لله، قال ياسر الذي أصبح في الصف الخامس الإبتدائي، واقفاً بقرب هيلين وهي تسمع الأخبار في المذياع.

كان من المفترض أن ينتهي منع التجوّل بعد ثلاثة أيام ولكن المسلّحين تمكّنوا من السيطرة على الساحل الشرقي أيضاً. قسم من الناس عادوا إلى أشغالهم وقسم ظلوا في بيوتهم لأنهم لم يكونوا متأكدين فيما إذا انتهى منع التجول أم لا. خلت الشوارع من المارة تقريباً بينما تراءت طوابير طويلة من السيارات في محطات الوقود.

ذهبت هيلين إلى بيت شيماء لتروّح عن نفسها قليلاً.

شيماء أشارت بيدها لهيلين لتدخل قائلة: تعالي يا هيلين، الدنيا مقلوبة.

ياستّار، ماذا حدث؟

سمعتُ بأنَّ عصابة كبيرة اسمها داعش احتلّت الموصل وهم يرفعون أعلاماً سوداً ويقتلون كل مّن يقف في طريقهم. أوف متى تنتهي المشاكل؟ قالت شيماء ودعت هيلين للجلوس معها على طاولة المطبخ.

من أين أتوا؟ سألت هيلين بعد أن جلست وهي تعصر يديها.

لا أعرف أصلهم وفصلهم ولكن سمعتُ بأنهم سيطروا على المطار والدوائر الحكومية والبنوك وحقول النفط. وضعوا حواجز سيطرة بين المناطق. حتى أبو حميد الذي لم يغلق محله يوماً قبل الخامسة رجع باكراً

اليوم. أخبرني بأنّ الكل أغلقوا محلاتهم وغادروا لأن أفراد العصابة يجوبون الأسواق ويبتزّون الناس بقوة السلاح حتى أنهم يعرفون كل واحد كم يربح.

كيف يعرفون ذلك؟

استولوا على فايلات البطاقة التموينية ومن خلالها يعرفون تفاصيل معيشة كل عائلة.

يعني خطتهم مدروسة.

أكيد.

بدت شيماء مبتئسة، صمتت برهة ثم أضافت وهي تشير بيدها إلى ناحية الشارع: رأيتِ أم قاسم؟ فرحانة توزّع بقلاوة. تقول داعش أحسن ناس لأنهم وفّروا الماء والكهرباء.

في تلك اللحظة دخل حميد مسرعاً بملابسه التي كانت عليها آثار زيت وسخام. سلّم على هيلين واختفى في الممر. صبت شيماء الشاي في الاستكانات. بعد أول رشفة شاي، قالت لهيلين: حميد باشر العمل مع أبيه في تصليح السيارات. لم يعد صغيراً. أكمل الثامنة عشرة من عمره ومن الأفضل ان يتعلم صَنعة مادام لا يحب الدراسة.

ثم خفضت صوتها قليلاً وهي تقول: حميد يكره الشغل مع أبيه ويتحجّج بمختلف الحجج كي يتغيّب عن المحّل. لذلك الجو هنا مشحون ودائماً يتعاركان.

في الليل سهرت هيلين مع إلياس لمشاهدة فلم تايتانيك. بكيا معاً لمشهد الناس وهم يغرقون. ذلك المشهد حضرَ في ذهن هيلين في اليوم التالي وهي تمشي مع إلياس على الجسر العتيق فوق نهر دجلة. كان هناك قارب مقلوب في النهر. علّق إلياس: لن تغرق سفينتنا. ليس لأنّ قبطاننا أكثر مهارة وإنّما لأنّ نهرنا بلا ماء ولا ملح.

كانا في طريقهما إلى محل الهدايا لتسّلم هيلين المناديل كالمعتاد على أن يواصل إلياس من هناك سيره إلى مكاتب المجلة. كانت هيلين مرتدية عباءة شيماء لأنها سمعتْ بأنَّ أفراد العصابة يؤذون النساء السافرات. كان إلياس قد مازحها عندما ارتدتها للمرة الأولى مردّداً بداية الأغنية «يا أم العباية، حلوة عباتج.» ولكنه بدا حائراً ومهموماً هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى.

في الشارع، مسكت هيلين كتفه وقالت: حاولْ ألا تتأخر اليوم.

توقّف عن السير لحظة فتوقفت هي أيضاً. نظر إليها نظرته العميقة التي تعرفها جيّداً. قال أخيراً: أعتقد بأن الأفضل قبل ذهابي إلى الشغل أن أوصلك أنتِ والأولاد إلى بيت أهلكِ في حليقي.

لا. لا داعي لذلك.

الوضع هنا لا يبشّر بخير.

الآن سأذهب إلى البيت بسرعة، طمأنتهُ هيلين، اذهب إلى شغلك وأنا سأهيئ الحقيبة وأنتظرك.

لا تنسي أن تضعي فيها بعض العلكة أم السهم لأبيكِ ولآزاد.

حين عادت هيلين إلى البيت، اتصلتْ بأمينة لتتحدث معها كما تفعلان كل يوم تقريباً منذ عشر سنوات حينما توفّرت الهواتف النقالة في بعض قرى سنجار. لم تدخل الهواتف إلى قرية حليقي بعد ولكن هيلين تتابع أخبارهم المحلية من أمينة.

لماذا أنتِ هناك لحد الآن؟ سألتها أمينة على الفور.

لم تجب هيلين فأضافت أمينة: منطقتنا امتلأت بالناس الفارين من الموصل. يقولون منظّمة إرهابية استولت على المدينة.

نعم فوضى كبيرة وبالكاد توجد سيارات نقل، قالت هيلين، امتحانات الطلاب النهائية كلها أُلغيت وقد سمعنا بأن الجماعة البلطجية سيُبدلون

المناهج الدراسية ويلغون درس الرسم. إلياس داوم اليوم ولكنه سيأخذ إجازة طويلة. سنخرج غداً إذا دبّرنا سيارة أجرة، وبعدها لازم نصعد الجبل على الحمار. بطني كبيرة جداً هذه المرة ومن الصعب عليّ أن أمشي مسافة طويلة. أنا متشوقة لرؤية أهلي. سنبقى عندهم لحينما يهدأ الوضع. ياريت لو نلتقي هناك يا أمينة.

أنا هناك كل نهاية اسبوع، قالت أمينة.

إجلبي أحلام معكِ لأراها أيضاً.

متى موعد الولادة؟ سألتها أمينة.

بعد خمسة أسابيع. إلياس لا يريد أن يتوقّف عن الخِلفة إلا إذا جاءتنا بنت.

في تلك الليلة، لم يرجع إلياس من الشغل.

لم تقدر هيلين أن تنام. لا تعرف كم مرة اتصلتْ به ولا جواب. لا جواب في الصباح ولا جواب في المساء.

ذهبت إلى بيت شيماء وقالت: سأجلب الولدين عندكِ وأذهب إلى المجلة. إلياس لم يرجع إلى البيت منذ البارحة.

إهدأي يا هيلين. دعينا نستفسر من معارفنا أولاً.

أنا خائفة، قالت هيلين وهي تبكي.

كان أبو حميد يتناول فطوره. توقّف عن الأكل لدى سماعه بكاء هيلين. وقف ينظر عبر نافذة غرفة المعيشة، ثم استدار إلى هيلين وقال لها: سأذهب الآن وأسأل عن إلياس. الطرق غير مأمونة ولكني أعرف كيف أصل إلى هناك.

مضت ثلاث ساعات وهيلين لا تعرف ماذا تفعل غير الإنتظار. انتبهت إلى الأشكال الهندسية المرسومة على البلاط في مطبخ شيماء. لأول مرة تنتبه

إلى تلك الأشكال المربّعة الصغيرة المتداخلة على الأرض كالمتاهات، وبداخل المربعات الصغرى رسومات لأزهار برية. على الطاولة زهور اصطناعية. لم ترَ زهوراً اصطناعية من قبل ففي قريتها الزهور كلها طبيعية.

جلبت لها شيماء صحناً من المعجنات وهي تقول «كلي شيئاً. لا تنسي بأنكِ اثنان فلا بد أن تطعمي ثانيكِ على الأقل.» لم يكن بمقدور هيلين أن تبلع شيئاً على الإطلاق خاصة وأنها كانت تشعر بألم في معدتها. يشبه ذلك الألم عندما أخبرتها أمها بأنها ستصبح زوجة تاجر التين صالح.

أخيراً رجع أبو حميد. نظرت إليه هيلين بعينين دامعتين وهي تنتظر أن ينطق شيئاً كأنّها أمام طبيب يقرأ الأشعة ليشخّص مرضها.

لم أستطع دخول بناية نينوى، قال، فهي محاطة بحرّاس يحملون السلاح. لكني زرتُ صديقاً من المنطقة، له علاقات واسعة ووعدني أن يستفسر عن إلياس ويتصل بي سرعان ما يتبين له شيء.

رنّ التلفون الأرضي قبل أن يكمل أبو حميد جملته فهرع إليه ورفعه إلى أذنه. بعد لحظات، أنزلَ السماعة وهو ينظر إلى هيلين. جمد الدم في عروقها لأنها من نظـرته توقّعت خبراً سيئاً. «قل لي ما حدث، أرجوك.»

أخذوا العاملين في المجلة أسرى، قال.

اكتسى وجه هيلين بالحزن، فقالت شيماء: ربما يطلقون سراحه. يجوز يطلبون فدية ويتركونه.

حين عادت إلى منزلها، كان يحيى يفتّش في دولاب المطبخ عن شيء يأكله. التقط قطعة بسكت وباليد الأخرى أخذ العجينة التي على شكل طائر وهو يسأل: هذه للأكل أم منظر فقط؟

كان إلياس قد احتفظ بتلك العجينة كل تلك السنوات منذ اليوم الذي أعطاها له شمّو. وكانت هيلين قد عثرتْ عليها بعد أسبوع من زواجهما فعلّقَ إلياس بأنها معمولة بشكل فني جميل أكثر مما ينبغي فلم يتجرأ على أكلها.

للأكل ولكنها قديمة جداً، أجابت هيلين.

أخرجَ ياسر كرة من جيبه وضربها إلى الحائط لترتد إليه ولكن قفز يحيى وأخذها منه. وفي الوقت نفسه كان الكائن الجديد بداخلها يحسّسها بوجوده بأن يضرب على جدار بطنها. أرادت هيلين أن تمنعهما من اللعب بالكرة في الداخل وخاصة أنها كانت تشعر بدوار ولكن سبقَ لها أن منعتهما من اللعب في الشارع بسبب ازدياد حوادث الاختطاف فتركتْهما يلعبان في غرفة الجلوس.

دخلتْ إلى غرفة نومها. فكّرت بأنّ ضجيجهم في نهاية الأمر أفضل من أوقات السكوت التام أو حينما يلحّان بالسؤال متى يعود أبوهما إلى البيت. سؤال مؤذ فهي مثلهما تريد أن تعرف الجواب. مرّت ثلاثة أسابيع على اختفائه وهي مشوّشة حتى أنها صارت تغلق عينيها في النهار بدل الليل، وحينما تسير إلى دكّان قريب لتشتري شيئاً على عجل تشعر وكأنها تسير في نومها. واليوم ازداد توتّرها لأنّ شاشة التلفزيون خالية تماماً، لا صورة ولا صوت، وهي حرصت على متابعة نشرة الأخبار منذ ذلك اليوم عندما ذهب إلياس إلى شغله ولم يرجع. ما كانت ستفوتها فرصة الإصغاء إلى المذيع عساها تسمع شيئاً عن الأسرى أو تتوصّل إلى أي خيط يدلّها إلى ما حدث.

دخلتْ بيت شيماء فوجدتْ شاشة تلفازها خاوية أيضاً.

أنا عرفت بأنهم سيوقفون البث فهُم نادوا في الجامع بأن برامج التلفزيون حرام، قالت شيماء وهي ترضع مصطفى الذي أنجبتْهُ قبل أربعة أشهر. كان زوجها منهمكاً في تكسير خزانة خشبية إلى حطب لطهي الطعام. لم يعد الغاز متوفراً فوجدَ تكسير الخشب أسهل من الوقوف في طابور بلا نهاية من أجل اسطوانة غاز واحدة بسعر خيالي.

رجعت هيلين إلى بيتها وهي تشعر بأنّ حياتها صارت شاشة خاوية. نظرت إلى تلفونها مثلما تفعل كل مرّة تلقائياً متأملة أن يدبّر إلياس اتصالاً ليطمئنها بأنه على قيد الحياة، أو أن يتصّل بها أحدهم ليطلب مبلغاً مالياً مقابل

إطلاق سراحه. ستدبّر ما يطلبون بأية وسيلة. في تلك اللحظة رنّ الهاتف فأجابت على الفور.

هلو.

هلو.

آزاد؟!

كيف أنتِ يا أختي؟

بخير، قالت وهي تكبح نشيجها.

هل من خبر عن إلياس؟ نحن سمعنا ما حدث.

لا خبر جديد سوى أنهم حوّلوا بناية المجلة إلى سجن.

سأنزل الآن لآخذك أنتِ والولدين عندنا.

لا يا آزاد. الطرق خطِرة.

أنا هنا في حردان أخابركِ من تلفون أمينة. ها هي تحدّثي معها.

هلو أمينة.

أنتِ في بالنا يا هيلين.

أجهشت هيلين بالبكاء وبكت أمينة معها.

قولي لآزاد ألا يأتي إلى الموصل.

هو خرج تواً، قالت أمينة.

بعد منتصف الليل بقليل وصلَ آزاد فعانقته هيلين وهي دامعة. حين هدأتْ قليلاً قالت: الحمد لله لم تعترضك العصابة في الطريق.

عصابة غريبة، قال آزاد، سمعتُ أحدهم ينادي عبر مكبّر الصوت في كراج السيارات بأن على كل مَن يعمل في القطاع الحكومي أن يوقّع على بطاقة التوبة ويحلف على القرآن بألا ينتسب لأية فئة. على أية حال، دفعتُ ثلاثة أضعاف الأجرة لسائق عنده معارف في نقاط السيطرة وهو نفسه سيرجعنا غداً إلى القرية. عنده هويات مزوّرة أيضاً إذا اقتضت الحاجة.

أغرب شيء في هذه العصابة أنها لا تخبئ جرائمها، قالت هيلين، بالعكس تفتخر بجرائمها وتبثّها بفيديوات مرعبة.

بعد صمت رهيب، قالت: قبل يومين شاهدتُ يوتيوب لرجال ملثّمين يقطعون رؤوس أشخاص يسمونهم عملاء، والدماء مثل نافورات على جوانب القتلى. لمحتُ قتيلاً يشبه إلياس ولكنه ليس إلياس. لمحتهُ بسرعة وأغلقتُ عيني. لماذا يقتلون إلياس؟ لا، ليس هو.، أكيد ليس هو.

خرجت الكلمات الأخيرة من فم هيلين بصوت متقطع. جلس آزاد وهو يفرك جبينه. أنزلَ يديه وقال: في الصباح الباكر حين يصحو يحيى وياسر، نصعد كلنا إلى القرية. ماشي؟

أنا لا أستطيع فجسمي ثقيل وقد اتفقتُ مع القابلة التي في شارعنا أن تولّدني حتى أنها أجلّت خروجها من المدينة بسببي. لكني أريدك أن تأخذ الولدين معك.

كان حميد نائماً مع يحيى وياسر فلما صحا في الصباح عرّفته هيلين على آزاد قائلة: حميد إبن جارتي وهو مثل إبني.

تأتي معنا إلى القرية؟ سأله آزاد.

نعم تعال معنا أرجوك. ستعجبك القرية، قال يحيى لحميد. ولكن حميد رفض قائلاً «لازم أروح للشغل» واستأذنَ ليغادر.

رنّ جرس الباب. قال آزاد وهو ينظر من شباك غرفة المعيشة: ها قد جاء السائق. علينا أن نغادر الآن.

حضنتْهم هيلين واحداً واحداً وقالت: اتركوا خبراً عند أمينة عندما تصلوا بالسلامة. هي ستخبرني.

أومأ آزاد برأسه وقال: نراكِ قريباً.

بعد اسبوع من مغادرتهم، كانت هيلين تمسح عرقها من الحر وهي تطرق باب القابلة المأذونة. كان الألم في أسفل ظهرها شديداً جداً وبالكاد تحملّت الوقوف. هذه هي المرة الثالثة على التوالي تفعل ذلك. في المرتين السابقتين أتتها الآلام ولكن لم تحدث الولادة. إن لم تحدث الولادة هذه المرة ستواجه هيلين مشكلة العثور على قابلة أخرى لأنّ هذه القابلة مسيحية وعليها كباقي المسيحيين أن يغادروا الموصل خلال أيام. صارت العصابة تسمّي نفسها «دولة» وباتت لها سُلطة وقوانين تفرضها كما تشاء. ومن بين قوانينهم الاستحواذ على بيوت المسيحيين. خطّوا حرف النون بالأحمر على بيوت الذين يسمّونهم نصارى كتهديد لهم بأن يخرجوا أو يُقتَلوا حتى لو كانوا قد عاشوا في تلك البيوت منذ مئات السنين.

آسفة على الإزعاج، قالت هيلين حين فُتحَ الباب، لكن هذه المرة الألم قوي جداً لا أتحملّه.

أسرعت القابلة بإحضار كيس أغراضها ورافقت هيلين إلى بيتها الذي يبعد ثلاثين متراً تقريباً عن بيت القابلة. سارت هيلين ببطء شديد وكل مرّة تتوقّف قليلاً وتتأوه من الألم. أخيراً وصلت إلى فراشها وكانت الإنقباضات عنيفة جداً ومتقاربة. بعد ساعتين من الألم شعرت هيلين بأنها دفعت الجنين إلى الأمام ولكنه انزلق إلى الخلف مرة أخرى. حثتّها القابلة لتدفع بقوة أكبر وهذه المرة خرج رأس الوليد. طلبت منها القابلة أن تتوقّف عن الدفع وأن تتنفس بهدوء. تلقّفت القابلة جسم الوليد الجديد بينما انتابت هيلين رعشة قوية. مسحت القابلة آثار الدم على البنت بكمّادة وانتظرت قليلاً. كانت قد أخرجت ياسر من رحم هيلين قبل 11 سنة والآن لفّت هذه الطفلة بقطعة قماش بيضاء. وضعتْها في حضن هيلين ومضت قائلة: الآن يمكنني أن أغادر. لا

عيشة لنا مع هؤلاء الوحوش. مثل هذه المولودة الجديدة هكذا سنخرج من هنا بدون شيء.

إنتظري. سأدفع لكِ، قالت هيلين وهي تجاهد لتتحرك.

لا يا عزيزتي. إن شاء الله يرجع إلياس بالسلامة ويرى ابنته الجميلة وهو يدفع لي، أجابت القابلة وخرجتْ بسرعة تاركة هيلين مع بنت بلا إسم ولا أب.

نامتا طوال النهار وفي الليل ظلّتا صاحيتين في الظلمة. بكت البنت فقرّبتها هيلين من ثديها لترضعها. بحثت في ملامحها عن إلياس فرأتهُ في الغمازتين على خديها.

بعد عشرة أيام عندما جفّت المشيمة، حملت هيلين ابنتها إلى شيماء وطلبت منها أن تعتني بها لحين عودتها لأنها نوت أن تذهب إلى مكتب المجلة لتسأل عن إلياس.

لا يجوز لك أن تخرجي، قالت شيماء، فلم يمض عليكِ حتى أسبوعين بعد الإنجاب.

لم أعد أتحمّل يا شيماء. انتظرت كل هذا الوقت لحينما ينتهي حَملي.

إذن إلبسي عباءتي وغطّي رأسكِ جيداً كي لا يضايقوكِ.

كانت البنت نائمة عندما أخذتها شيماء في حضنها. قبّلت هيلين يد الطفلة الصغيرة ونظرت إلى شيماء نظرة دامعة ملؤها الإمتنان. عدّلت العباءة السوداء فوق رأسها ومضت باتجاه الجسر.

في منتصف الطريق رأت رجالاً مسلّحين حول رؤوسهم عصّابات سود على سيارة بيكب. أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى وسارعت الخطى بأقصى ما استطاعت. حاولت أن تتجنّب النظر إلى مشاهد الخراب ولكن توالت تلك أمامها مشهداً مشهداً. حتى عندما أنزلت رأسها رأت إطارات سيارات محروقة

مرمية في الطريق. رفعت رأسها فرأت على الجدران لافتات «الدولة الإسلامية على نهج الخِلافة.» بدا الفندق في زاوية الشارع مهجوراً، ثقوب كبيرة على واجهته وحطام متناثر أمامه. صالون الحلاقة النسائية الذي كانت تقصده هيلين كان مُغلَقاً وقد أُزيلت من واجهته صورة أحمر الشفاه وإعلان تجميل العرائس. استخدام أحمر الشفاه قد يؤدي إلى ثلاثين جلدة.

أصبحت الحلاقة مهنة خطيرة، سواء للرجال أو النساء. أحد الحلاقين من أقارب شيماء عوقب بخمسين جلدة دخل على إثرها المستشفى. كان قد طلب منه ابن عمّه العريس أن يحلق له شعره ولحيته. ارتجفت يد الحلاق وهو يفعل ذلك لأنه كان يعرف بأنها مجازفة، ولكنه في الوقت نفسه أرادَ أن يُفرح قريبه العريس، وتأمّلَ أن تمرّ فعلته بسلام فربما لن يأتوا لمراقبته في تلك الظهيرة الحارة. بعد ثلاثة أيام من الزفاف ألقوا القبض عليه وأغلقوا صالونه.

واصلت هيلين سيرها في الشوارع التي خلت تقريباً إلا من بعض المارة المتلفّتين بنظراتهم الخائفة. فيما مضى كان الناس في تلك الشوارع من كثرة الإزدحام لا يعتذرون إذا تعثّر أحدهم بآخر. اختفت روائح الشاي والتوابل والعطور. توارى أصحاب العربات الجوالة والباعة الذين يفترشون الأرصفة وروّاد المقاهي.

شمّت هيلين رائحة بارود وهي تقترب من بناية المجلة. عند البوابة وقفَ ولد بدا لها بعمر يحيى، وبالرغم من أنه كان يحمل بندقية شعرت أنّ بإمكانها التحدّث معه. قالت: يا إبني ممكن أسألك سؤالاً؟

تفضّلي، أجابها.

زوجي يعمل في هذه المجلة وهو لم يرجع إلى البيت منذ أكثر من شهر. جئتُ أسأل عنه.

ما إسمه؟

إلياس.

لا أعرفه.

سمعتُ بأنه أسير هنا.

لا أسرى هنا.

في تلك الأثناء وقفت سيارة أمام المبنى، نزل منها رجل ملتحي. قال للفتى وهو ينظر إلى هيلين: مَن هذه؟

جاءت تسأل عن زوجها لأنه كان موظّفاً هنا، أجاب الفتى.

يعني زوجكِ عَميل حكومي، قال الرجل.

أنزلت هيلين رأسها وهمّت بالمغادرة، ولكن الرجل أمسك يدها وسحبها عبر الممر إلى داخل البناية. أدخلها رغماً عنها إلى غرفة فيها رجل طويل اللحية بشكل استثنائي. الرجل الذي جلبها لحيته أقصر. قال: هذه زوجة أحد العملاء.

معكِ هوية؟ سألها الرجل أبو اللحية الطويلة.

لا، ليست معي.

إن كنتِ من النصارى فكلهم خرجوا من الموصل. لماذا أنتِ هنا؟

لم تجب هيلين فاستأنف الرجل: لازم أنتِ جاسوسة. تعترفين باختيارك أم بالقوة؟

بماذا أعترف؟

مَن أرسلكِ إلينا؟ سألها.

لا أحد.

من أين أنتِ؟

أسكن هنا في الموصل.

لهجتكِ ليست مصلاوية. من أين أنتِ بالأصل؟

من سنجار.

يزيدية؟

لم تجب هيلين فصرخ الرجل بوجهها: يزيدية - نعم أو لا؟

نعم.

حين لفظت الكلمة، خرج الرجل أبو اللحية القصيرة ورجع بعد قليل مع رجلين آخرين. تحدّثوا بلغة لم تفهمها هيلين، ولم تفهم لماذا كانوا ينظرون إليها بتلك الطريقة وكأنهم عثروا على كائن غريب هبط لتوّه من كوكب آخر.

في القلعة

في تقويم عام 2014 المعلّق بجانب الثلاجة في مطبخ أمينة، هناك دائرة حول اليوم الثاني من آب لأنه يوم خاص بالنسبة للإيزيديين فهو عيد المربعانية بعد أربعين يوماً من الصيام. ومن تقاليد هذا العيد أن تترك المتزوجة زوجَها وتذهب لتبيت ليلة في بيت أهلها. وهكذا فعلت أمينة في ذلك اليوم.

مثل كل سنة سيتجمّعون حول أصناف الطعام المنوّعة ويسهرون حتى آخر الليل فبعد ذلك يمكنهم أن يأخذوا وقتهم في النوم ما شاؤوا. وعندما يصحون على شمس الصباح الجديدة، سيفتحون النوافذ ليدخل الضوء بيوتهم البسيطة. سيخرج الرعاة بأغنامهم إلى الحقول ويعرض المزارعون «الركي» على جوانب الطُرق مع سكاكين كبيرة في حال أراد الزبون «ركي على السكين» ليضمن بأن «ركيته» المختارة حمراء وليست بيضاء. كان المفترض أن تمضي الحياة بمجراها الطبيعي كالنهر. مضت فعلاً بمجراها الطبيعي لمدة ثلاث ساعات وبعدها انحرفت عن ذلك المجرى إلى الأبد. سمع أهالي سنجار أصوات قصف عنيف لم يسمعوا مثله في أية حرب سابقة عاشوها. فركوا عيونهم وهم في غاية الحيرة والتأرجح بين الصحو والنوم. وصلت أصوات القصف هذه المرة حتى قرية حليقي المعزولة عن كل ما يجري.

ظنّت رمزية أنّه صوت برق في السماء. لكنها استبعدت الفكرة لأنها لم تسمع يوماً من أيام حياتها برقاً في الصيف. لم تكن لها أية فكرة عما كان يحدث عند أقدام الجبل. كانت قد سمعت باختفاء إلياس وأرادت أن تعرف، كالآخرين، فيما إذا عاد إلى بيته بعد. وفي هذا العيد تحديداً ازداد قلق أهل هيلين عليها لأنها لم تأتِ ولم ترد على مكالمات أمينة المتواصلة. لذلك قرّرَ

آزاد أن يترك زوجته الحامل عند أهلها وينزل الجبل مع يحيى وياسر في ذلك الصباح الثالث من آب 2014 إلى بيت أمينة في قرية حردان وذلك ليخابروا هيلين من هناك أو يذهبوا إليها في الموصل إذا لم ترد على اتصالهم.

في اللحظة الأخيرة ارتدى شمّو صندله بسرعة وأخبر رمزية بأنه ذاهب معهم.

أنتَ بحياتك لم تذهب إلى الموصل. إنتظر سآتي معك، قالت رمزية ودخلت لتبدّل ملابسها. في أثناء ذلك، دخلت جارتُهم بيتَهم. أسرعَ شمّو إلى الغرفة وقال لرمزية: عندكِ ضيفة ولا أجد داعياً لمجيئكِ معنا في هذا الوقت. سنجلب هيلين ونرجع.

ما أن وصلوا إلى بيت أمينة حتى حاولت الإتصال بهيلين مرة أخرى. ثم مرات أخرى من دون جواب. اقترحت أمينة عليهم أن يبيتوا تلك الليلة في بيتها لكي يعاودوا الإتصال بهيلين صباح اليوم التالي. استقبلهم قطّو بالترحاب ودعاهم إلى العشاء. حين أكملوا قال: سمعتُ خبراً أتمنى أن يكون إشاعة.

نظروا كلهم إليه فقال: داعش وصلوا إلى قضاء سنجار وبعض الناس هربوا إلى الجبال.

أومأ آزاد برأسه وقال: نعم، كان الكثير من الناس يصعدون الجبل في أثناء نزولنا منه.

أنا لاحظتُ أيضاً وجود باصات كثيرة في الشارع. هل هذا طبيعي عندكم؟ سأل شمّو.

لا، ليس طبيعياً، أجاب قطّو.

يا إبني ليش أخبارك كلها سيئة هذه الأيام؟ قالت أم قطّو نسيمة وهي تضع قوري الشاي على الفرن.

لو يبيعون أخباراً جيّدة أنا أول مَن يشتريها، أجاب قطّو.

حين همسَ ياسر لأخيه بأنّ من الأفضل لهم الرجوع إلى الموصل، سمعه آزاد فقال للولدين: حين يطلع الصباح نذهب إلى الموصل.

لم يناموا ساعتين بعد منتصف الليل حتى صحوا كلهم على أصوات قوية وكأنّ مطرقة كبيرة تحطّم شيئاً.

قفزت أمينة إلى الخلف من الهلع حين فتحت ستارة النافذة الأمامية. رأت سيارات كثيرة أمام البيت وأشخاصاً ملثّمين يرفعون أعلاماً سوداً.

داعش هنا، صرخت أمينة.

ما معنى داعش؟ تساءلَ شمّو.

سمعوا نداءات عبر مكبّرات صوت تدعو سكّان القرية إلى الخروج وتسليم أسلحتهم فوراً.

ما عندكم أسلحة، أليس كذلك؟ شمّو سأل قطّو فهزّ الأخير رأسه علامة النفي.

لن نؤذيكم، نادى أحدُهم عبر مكبّر الصوت، بل نحن هنا لنحميكم.

سمعوا طَرقاً قوياً على الباب. قام قطّو وجمد في مكانه.

صرخت أمينة: لا، لا تفتح الباب.

تكوّرت أحلام في حضن جدّتها وهي تبكي.

ظلوا جامدين في مكانهم وأصوات الطَرق صارت أقوى حتى أوشك الباب أن ينكسر. أخيراً مضى قطّو نحو الباب وفتحه. خلف الطارق، كانت سيارة كيّا أمام البيت بقربها خمسة رجال يرتدون الزي القندهاري يحملون البنادق.

تأتون كلكم معنا. فقط عشر دقائق، قال أحدهم وهو يشير ببندقيته، نأخذكم عند الشيخ كي تتوبوا ثم نُرجعكم.

يا فتّاح يا رزّاق. من ماذا نتوب؟ سأله قطّو. ولكن الرجل بدلاً من أن يجيب سألهم «تصيرون مسلمين؟» ثم أضاف «سنعلّمكم صلاة المسلمين.»

نحن عشنا مع المسلمين بسلام طوال عمرنا، قال قطّو، ونعرف كيف يصلّون وكيف يصومون.

تعالوا معي ويصير خير إن شاء الله، قال الرجل، الرجال فقط يأتون معي. النساء يذهبن إلى ذاك الباص الآخر.

أخذوا أمينة إلى باص النساء المتزوجات، وابنتها أحلام ذهبت مع جدّتها إلى الباص الآخر. لم يخطر ببال نسيمة بأنّ الرقم تسعة خطير إلى هذه الدرجة عندما تلفّظت به. بل بالعكس، حينما سأل الرجل المسلّح عن الأعمار وأجابتهم بأنّ أحلام عمرها تسع سنوات فقط، ظنّت نسيمة بأنّ ذلك معناه أنَّ أحلام لاتزال طفلة. لم تكن تعرف بأنّ حقيقتها تخالف حقيقتهم. الرجل المسلّح فصلَ الجدة عن حفيدتها آمراً أحلام أن تذهب إلى باص البنات غير المتزوجات. التصقت أحلام بجدّتها رافضة أن تنفصل عنها ولفّت الجدة يديها حول أحلام، لكن المسلّح سحبها منها بالقوة وهي تصرخ وتبكي، فبالنسبة لهم البنت في سن التاسعة ليست طفلة بل بالغة وبالتالي لا يحق لها البقاء مع جدّتها. فات الأوان فلم يعد بإمكان نسيمة أن تصغّر عمر أحلام كي يسمحوا لها بالبقاء معها، فبدأتْ تتوسّل بالرجل المسلّح: حُباً بالله لا تأخذها مني. أنتم أخذتم أمها إلى الباص الآخر الذي مشى لا أعرف إلى أين.

وأنا حُباً بالله آخذها، قال الرجل المسلّح وهو يضحك. ابتعدَ وهو يسحل أحلام خلفه.

لم يرها أبوها ولا أمها وهي تبكي وتُسحل هكذا إذ كانا في سيارات منفصلة ومسدلة الستائر. لم تعرف أمينة كذلك بأنهم فيما بعد أسروا أغنامها أيضاً. فبعد أن أفرغوا البيوت من ناسها، دخلوا الحظائر وساقوا الحيوانات إلى الشاحنات. القطط مع الكلاب والمواشي مع الحمير. في الأوقات العادية

يضايق الكلاب والقطط بعضهم بعضاً ويعملون صخباً من النباح والمواء، لكن سكتت الحيوانات كلها في الطريق إلى المجهول وكأنها شمّت رائحة الخطر.

في الكيا، سأل شمّو أحد المسلحين: يا أخي، نأتي معكم عند الشيخ لكن فقط قل لي لماذا فصلتم النساء عن الرجال؟

طبعاً لا يجوز للنساء أن يجلسن مع الرجال. أنت لا تعرف ذلك؟ أجابه الرجل.

انقطع الكلام، وبعد ساعة تقريباً، توقّفت السيارة أمام قلعة قديمة فوق تل. نزلوا من السيارة وكان هناك أسرى آخرون ينزلون أيضاً من سيارات متوقفة هناك أمام القلعة.

أنا أعرف هذا المكان، أخبر قطّو جماعته، هذه قلعة تلعفر.

دخلوا القلعة كما أمرهم الرجال المسلّحون. كانت هناك ساعة كبيرة على الجدار تشير عقاربها إلى الساعة الرابعة والثلث صباحاً. تركهم المسلّحون هناك ورحلوا ماعدا بعض الحرس الذين بقوا في الخارج عند أسوار القلعة.

كان يوماً حاراً خانقاً بلا مراوح ولا ماء ولا أجوبة لأسئلة مثل «لماذا نحن هنا؟» و «ماذا سيفعلون بنا؟» و «إلى أين أخذوا البنات؟» كرّروا تلك التساؤلات طوال النهار. غابت الشمس ولا شيء آخر سوى تكتكات الساعة. بعد منتصف الليل، سمعوا طلقات في الخارج. دخل إليهم الحراس وأعلموهم بأنَّ هناك مَن حاولَ الهرب من الشباك وأنهم قتلوه. «من الأفضل لكم ألا تفكروا في ارتكاب حماقة كهذه،» قال أحدهم وخرج مع باقي الحرّاس.

أحد الأسرى كان يبكي وقد التفّ حوله باقي الأسرى. أخبرهم بأنّ ذلك الهارب الذي قتلوه هو ابنه الكبير.

بعد يومين، جلب لهم المسلّحون ماء وباكيتات بسكت صلاحيتها منتهية. في اليوم الثالث عندما أشار عقرب الساعة الصغير إلى التاسعة، دخل المسلّحون إلى القلعة وبدأ أحدهم يتحدث بصوت مرتفع موجّهاً كلامه إلى الأسرى: هذه القلعة هي إحدى دور الكُفر لذلك سنحطّمها بإذن الله. الكفّار سمّوا هذا معبد عشتار لأنهم كانوا لا يعرفون بوجود الله فيعبدون آلهة من صنعهم. بعد قليل سيأتي الخليفة أبو ناصر ليحدّثكم عن الدين الصحيح. وسيأتي مصوّر ليصوّركم وأنتم تدخلون الإسلام حتى يراكم الباقون فيهتدون. موافقون؟

جرت همهمة بين الأسرى بينما أضاف المتحدّث: إذا وافقتم سنجلب إليكم عوائلكم ونهتم بشؤونكم ونحميكم من الأذى.

جرت همهمة مرة أخرى.

لكني لا أوافق، قال أحد الأسرى، ديني لا يسمح بذلك.

وأنا كذلك، قال الشاب الذي بجانبه، لا أوافق.

أنتما متأكدان؟ سألهما الرجل المسلح، تعالا معي.

همس قطّو لآزاد: هذان الشجاعان ليس لهما عوائل. نحن نسكت حتى نخلص من شرّهم ونعود إلى عوائلنا. الحُب ذل يا أخي.

أومأ آزاد برأسه وقال: نُسمعهم ما يريدون سماعه ماداموا لن يعرفوا ما في قلوبنا.

لم يعلّق شمّو بشيء. كان يفكّر في هيلين وإلياس، وفي رمزية التي حتماً قلقت من تأخّرهم جميعاً. كان يحيى وياسر جالسَين إلى جانبيه وقد أحزنهُ بأنهما أكلا البسكت الرديء.

ها، ماذا قلتم؟ موافقون؟ سألهم المسلَّح.

نعم، ليست مشكلة، قال أحد الأسرى من الصف الأمامي، لا فرق بين الأديان.

بل هناك فرق كبير، قال المسلّح، تحوّلكم اليوم إلى الدين الإسلامي هو لصالحكم لأنكم ستدخلون الجنة من أوسع أبوابها.

كانت هناك إطلاقات نارية كثيفة ومتواصلة. صار المسلّحون يخرجون ويدخلون ويتحدثون بهواتفهم النقالة. بعد نصف ساعة عندما هدأت أصوات الرصاص، وزّعوا على الأسرى خبزاً وجبنة المثلثات. وعندما عبرَ عقرب الساعة الصغير العاشرة بقليل، ساقوا الأسرى إلى عين الماء القريبة من القلعة.

إنزعوا ملابسكم، قال المسلّح بمكبر الصوت، وإذا كان لايزال بحوزتكم أي شيء فعليكم تسليمه فوراً. أي شيء، تلفون، خاتم، مفتاح، أي شيء.

نزلوا عراة واحداً واحداً واغتسلوا في عين الماء. عندما خرجوا من الماء، نادى المسلّحون على الأولاد الفتيان الذين بعمر العشرين أو أصغر أن يركبوا الباص الذي كان في انتظارهم. أراد شمّو أن يحضن يحيى وياسر قبل أن يركبا الباص ولكنه أنزلَ رأسه وتجنّب النظر إليهما لأنه كان عارياً ومُحرَجاً من ذلك. رحل الباص من أمام عيون الأسرى، ورفع أحد المسلّحين مكبّر الصوت إلى فمه وقال: أبناؤكم هم أبناؤنا وهم بالتالي أبناء الدولة الإسلامية ونهنئكم لأنهم الآن في طريقهم إلى معسكر تدريب الرقة الذي سيؤهلهم ليكونوا مقاتلين أشدّاء.

انتقلَ شخص بين الرجال العراة موزعاً عليهم فانيلات وسراويل. همسَ شمّو لآزاد وهو يرتدي ملابسه: أي قتال؟ أبناء أختك يخافون حتى من الحيّة.

أضاف المتحدّث عبر المكبّر: والآن استعدوا بملابسكم النظيفة لمقابلة الخليفة.

أدخلوهم إلى بستان غير بعيد عن عين الماء وقد بدا الرجال المسلّحون في غاية التأهّب. يتحرّكون في كل الإتجاهات ويوجّهون الأسرى للجلوس في خطوط منتظمة.

أخيراً وصل الخليفة بملابسه السود وعمامته السوداء يحمل بندقية ويرافقه رجال يحملون كاميرات كبيرة. جلسَ قبالة الأسرى وجلس بجانبه شاب يرتدي الزي العسكري ويحمل بندقية أيضاً. تحدّثَ الخليفة إلى الأسرى: جئنا نحرّركم ونعرّفكم على الدين الصحيح. أسلموا فتسلموا. أي كافر سواء كان صليبياً أو يهودياً أو يزيدياً له فرصة النجاة بأن يتلو الشهادتين. نحن لم نقاتل الناس إلا لإخراجهم من الكُفر. والآن سنجار تحت إمرة المجاهدين. عرضنا عليهم الإسلام مقابل السلام ولكنهم أبوا إلا أن يقاتلونا. لكنني أبشرّكم بأنَّ هناك عوائل كثيرة قبلوا عرضَنا وهم فرحون. كانوا في الظلام وصاروا في النور. نرجو من اليزيديين أن ينزلوا من الجبال وأن ينضمّوا إلينا حتى يتجنّبوا نار جهنم في الآخرة. إذا بقوا في الجبال سيموتون من الجوع والعطش بينما نحن ندافع عنهم بل نُقتَل ولا ندع أحداً يؤذيهم. ليس عليكم سوى أن تنطقوا الشهادتين لتصبحوا إخوة لنا. لكم حقوق وعليكم واجبات مثلنا تماماً.

كانت العصافير تغرّد على الأشجار خلف الخليفة بشكل مثير للإنتباه. نظرَ شمّو إلى الأشجار حواليه مستغرباً كيف يمكن لشخص أن يجعل الحياة بهذا التعقيد في بستان جميل كهذا!

قاطعَ أحدُهم سلسلةَ أفكاره إذ نادى بالمكبّر بأنَّ المجاهدين سيتحدّثون مع الأسرى بينما يقوم المصورون بتصويرهم بالفيديو. اقترب أحد المصوّرين من آزاد وسأله: ما رأيك بما قاله الخليفة؟

مثلما قال. نحن في النور، أجابه آزاد.

ما أن غادر المصور أدار آزاد رأسه نحو قطّو وهمس له: سنعمى من كثرة النور.

سار المسلّحون بين الأسرى يسألونهم عن مطالبهم فقال شمّو للشاب الذي اقترب منه: أين باقي الأسرى؟

لم يجبه الشاب بشيء فأضاف شمّو: زوج ابنتي اسمه إلياس وسمعنا بأنهم أخذوه أسيراً. تعرف أين هو؟

نظر الشاب إلى اليمين وإلى اليسار وكأنه ينتظر سؤالاً مختلفاً فقال شمّو: والبنات؟ إلى أين أخذوهن؟

هنا بدت علامات الضيق على وجه الشاب فتركه ومضى نحو أسير آخر.

قرية المهتدين

قادَ المسلّحون الأسرى إلى باص قالوا سيأخذهم إلى المواقع الآثارية في تلعفر. تماماً كما يأخذ مرشد سياحي مجموعة من السيّاح لمشاهدة مواقع تاريخية موغلة في القِدَم. الفرق أنهم أخذوهم إلى تلك الآثار ليس لزيارتها وسماع القصص التي تناقلتها الأجيال عنها منذ آلاف السنين، وإنما ليشهدوا هدمَها.

قبة خضر إلياس أول الأمكنة التي بدأوا بتهديمها. حمدَ قطّو ربَّه لأنّ أمّه لم تكن موجودة معهم فما كانت ستتحمّل ذلك المشهد. منذ أن فتح عينيه على الدنيا وهو يعرف أنّ الخميس الثالث من شهر شباط معناه أن تأخذه أمّه إلى تلك القبة الخضراء. تكون أولاً قد عملت حلاوة خضر إلياس المدورة التي تضع بداخلها سبعة أنواع من الحبوب المطحونة المقلية تماشياً مع معتقداتها التي تقول بسبعة ملائكة. لم تفوّت ربيعاً دونما زيارة إلى ذلك المكان مع باقي الزوار الذين يأتون من قريب وبعيد ليرسلوا شموعاً على قطع خشبية صغيرة إلى النهر وهم يتلون أمنياتهم في قلوبهم. عندما كبرَ قطّو قليلاً سأل أمَّه مَن هو خضر إلياس ذاك الذي تعمل له الحلاوة كل سنة؟ أخبرتهُ بأنّ خضر إلياس كان رجلاً صالحاً وقد عاش في تلك القبة في قديم الزمان، وكان معروفاً بجلبه للحظ السعيد فما أن تطأ قدماه مكاناً يابساً حتى يخضرّ وينمو فيه الزرع. لذلك تبارك الناس به وصاروا يسمونه «أبو القدم الخضراء» وصار مريدوه يزورون مكانه بعد مماته. كان نباتياً والعيد بالنسبة له هو اليوم الذي لا تُراق فيه أية قطرة دم. لذلك في عيدهِ، لا يذبح أتباعُه حيواناً ولا يأكلون لحماً.

أعضاء التنظيم لهم فكرة أخرى مختلفة. قالوا للأسرى بأنَّ طلب تحقيق الأمنيات من خضر إلياس حرام لأنه لا يمكن للأمنيات أن تتحقّق إلا بمشيئة

الله.

رصدَ قطّو القبة وهي تتفجّر والرجال المسلّحون يصيحون «الله أكبر!» وجد قطّو نفسَه يصرخ «الله أكبر» مثلهم لأنه كان منفعلاً تلك اللحظة حيث تساوت القبة مع الأرض. تذكّر الحلم المهم الذي حلمه في عيد خضر إلياس: أمينة سقتهُ الماء. فسّرت أمه الحلم بأنّ تلك الفتاة هي العروس وهكذا تزوّجها قطّو. كان يغلي من الغضب ليس فقط لأنهم هدموا مكاناً فيه ذكريات طفولته وإنما لأنه أراد أن يعرف ماذا فعل أولئك بأمينة وأحلام وأمّه. إلى أين ذهبت بهم الباصات؟

مندهشاً بقطّو الذي بدا متهستراً وهو يصيح «الله أكبر،» همسَ شمّو لآزاد: لماذا يهدمون هذا المكان الجميل؟ حرامات.

سرت همهمة من تعليقات الإحتجاج بين الأسرى حتى أسكتتهم الطلقات التي أطلقها المسلّحون بشكل عشوائي إلى الهواء. جاء أحدهم ووقف أمام الأسرى وصرخ بمكبّر الصوت: اسمعوا، الله خلق الإنسان على أحسن صورة ولا يجوز لبني البشر أن ينافسوا الله في خلقه. ما هذه الحجارة التي تتأسفون عليها؟ لا شيء.

قلعة تلعفر كانت ثاني الآثار التي شهدوا تهديمها. هذه المرة حين احتجّ الأسرى أطلق المسلّحون النار على ثلاثة منهم. سقطوا على الأرض ملطخين بدمائهم. هرع باقي الأسرى إلى الجرحى ولكن تقدّمت نحوهم سيارة بيكب وفرّقت الجمع. نزل مسلّحان وأخذا الجرحى الثلاثة بالسيارة. صرخ أحد المسلّحين بمكبّر الصوت: سيذهبون إلى المستشفى للعلاج، ولكن لا نريد أن نسمع منكم بعد الآن صوتاً ونحن نقوم بمهماتنا الجهادية وإلا سنقاتلكم. سنذهب الآن لنهدم باقي الأصنام لأنها حرام. القبور أيضاً لا يجوز أن تعلو فوق الأرض أكثر من شبر واحد.

كان يوماً طويلاً ومستنزِفاً للروح. في النهاية حينما حلّ الظلام، أنزلوهم في قرية كسر المحراب. قالوا لهم أن يختاروا من بيوت القرية ما شاؤوا ليسكنوا فيها لحين وصول باقي أفراد عوائلهم.

أراد شمّو أن يتأكد بأنه فهمَ قولهم فاقتربَ من الرجل المتحدّث وسألهُ: هل قلتَ بأنكم ستجلبون باقي عوائلنا إلى هنا؟

نعم، غداً صباحاً نجلبهم فهذه البيوت ستكون نواة لمجتمع صالح، أجابه الرجل، كل واحد منكم سيكون له دور في بناء هذه القرية التي صار إسمها منذ اليوم قرية المهتَدين.

سمّها ماشئت يا أخي. المهم أن تأتي هيلين وإلياس والأولاد والبنات وكل باقي جماعتنا، قال شمّو.

أنت ما شغلك؟ سأله الرجل.

تأخر شمّو في الإجابة، فردَّ آزاد عنه: هذا أبي وهو مطهرّجي.

حسناً فعلتَ بأن أخبرتني بذلك، سنحتاج كثيراً إلى خدماته هنا. إسمي علي اقتصادية. أنا مختص في الإقتصاد، وأي شيء تحتاجونه أنا موجود، قال الرجل وهو يمدّ يده لآزاد فصافحهُ.

دخل آزاد أولَّ بيت رآه، فذهبَ شمّو معه وأشار لقطّو لكي يلتحق بهما ففعل. لم ينتبهوا بأنّ ذلك البيت كان بلا باب خارجي حتى الصباح حينما خرجوا ليروا ماذا هناك في الخارج وهل من أثر لقادمين؟ رأوا حرّاساً على طول الشارع. تقدّم شمّو ليتحدث مع أحدهم فأشارَ الحارس إليه أن يتراجع: لا تخرجوا من بيوتكم. سنعقد معكم اجتماعاً بعد قليل.

بعد نصف ساعة، أُعلنَ الإجتماع عبر مكبّر صوت «اخرجوا إلى الساحة الكبيرة في نهاية الشارع.» وحين تجمعوا هناك، وقف أمامهم عدد من المسلّحين بينما ظلّ قسم منهم مطوقين الشارع خلفهم. تقدّم أحد أعضاء التنظيم إلى صفوف الأسرى وبدأ بمخاطبتهم: إسمعوا يا إخواني. نريد منكم أن تساهموا معنا في بناء المجتمع الصالح ومقابل ذلك نحميكم ونجلب إليكم عوائلكم. وسنوّزع عليكم بطاقات تموينية من أجل استلام المواد الغذائية كل شهر.

لماذا؟ كم شهراً سنبقى هنا؟ سأل شمّو.

تنفّس آزاد الصعداء لأن لم يبدُ بأنهم سمعوا سؤال أبيه فلم يستجيبوا له. همسَ: لا تتحدّث إليهم يا أبي.

تابع الرجلُ المسلّح كلامه: أنتم هنا 276 رجلاً. 75 منكم سيعملون في البناء فنريد بناء جامع كبير هنا فنحضر إليه كلنا ونصلّي معاً. 25 رجلاً منكم سيعملون في البلدية لتنظيف الشوارع. 25 رجلاً يرعون الأغنام ويجمعون التبن. 25 رجلاً يزرعون ويعتنون بالأشجار. 50 رجلاً يعملون في الإدارة ومكاتب المجاهدين. 20 رجلاً ينقلون البضائع إلى المكاتب. 15 رجلاً يوزعون المواد الغذائية. 35 رجلاً يصنعون العبوات الناسفة. واحد مطهرجي. بقي خمسة لأعمال الطوارئ. أبو مُعتز سيوزّع عليكم الأشغال الآن وسيكتب كذلك أسماء أفراد عوائلكم لنجلبهم إليكم.

حين قال ذلك، كان يحدّق بآزاد وشمّو. أشار بيده لآزاد ليأتي إليه.

إسمع يا أخي. قل لأبيك أن يكفّ عن أسئلته فذلك أسلم له. والله لو لم يكن مطهرجياً لتخلّصنا منه فوراً. مفهوم؟

خفض آزاد رأسه وعاد إلى مكانه. نظر إليه أبوه متسائلاً ولكن آزاد التزم الصمت.

مرّ النهار ولم تأتِ العوائل. وفي المساء خرجوا كلهم على منبّهات السيارات ولكنها لم تكن سوى دعوة للخروج وملاقاة المسلّحين. وقفوا أمام البيوت يستمعون لمن يخاطبهم عبر مكبّر الصوت: تأخّرَ موكب وصول النساء إلى هنا ولكن جاءتنا الأخبار بأنهن يصلن قريباً إن شاء الله فلا تقلقوا على ذلك. ستصل النساء المتزوجات إلى عوائلهن أما غير المتزوجات فهنّ مُلك المقاتلين كمهمة من مهمات الجهاد.

لا، لا أقبل بهذا، صرخ أحد الأسرى، أريد عائلتي بكاملها.

نعم، كلنا نريد عوائلنا بالكامل، صرخ قطّو.

لكزَ آزاد أباه ليتوقف عن الأسئلة التي بدأت بِ «لماذا هكذا؟» و «كل شيء بكيفكم؟» وبالرغم من تنبيه آزاد له، استمر: دعنا نفهم يا إبني ماذا

يحدث هنا. هذا لا يجوز.

ارتفع صراخ الأسرى، تركوا أمكنتهم وتجّمعوا في منتصف الشارع وهم يرفعون أيديهم بوجوه المسلّحين، فبدأ هؤلاء بإطلاق الرصاص عليهم بشكل عشوائي. سقط بعض الأسرى على الأرض وبعضهم تراجع إلى خلف أسيجة البيوت. سالت دماء الأسرى الذين سقطوا بينما ركض إليهم أسرى آخرون واحتضنوهم. صار الأسرى يصرخون كلهم بوجه المسلّحين بغضب إلى درجة عدم مبالاتهم بالرصاص الذي جابهوهم به.

تحرّك شمّوإلى أمام آزاد ليحميه من الرصاص، لكن آزاد سحبه بقوة محاولاً أن يقي أباه من الأذى فتعثر كلاهما وسقطا على الأرض. توقّف المسلّحون عن إطلاق الرصاص.

نادى أحدهم على الأسرى بأن «إدخلوا البيوت وسنتفاهم معكم غداً.» لم يتحرك الأسرى حتى صرخ بهم مسلح من سيارته البيكب «تحرّكوا من هنا. دعونا نأخذ الجرحى إلى المستشفى.» حين تقدّمت سيارة أخرى، صار المسلّحون يرمون الجرحى والقتلى إلى السيارتين.

كان قطّو منبطحاً على الأرض قرب سياج البيت. تحسّس نفسه فلم يجد جرحاً في جسده. نظر إلى شمّو وآزاد وقال لهما: تعالا ندخل ونعمل خطّة.

ما أن دخلوا المنزل حتى قال لهما قطّو: ما أن يحلّ الظلام سأهرب من هنا. تريدان أن تهربا معي؟ نقفز من الجهة الخلفية للدار. لا يوجد حرس هناك خلف البيوت.

تبادل شمّو وآزاد النظرات، ثم قال شمّو: ولكن ماذا لو جاءت عوائلنا ولم يجدونا في انتظارهم؟

أنت تصدّق ذلك؟ سأله قطّو، وهل لهم شرف كي تكون لهم كلمة شرف؟ هم يكذبون ولن يجلبوا عوائلنا.

نظرَ شمّو إلى إبنه ينتظر رأيه، فقال آزاد: لو ننتظر يوماً أو يومين فإذا تبيّن بأنهم يكذبون فعلاً عندذاك نهرب.

أنا لا أتحمّل أن أبقى هنا بعد الآن، قال قطّو، دعوني أجرّب أولاً فإذا نجحتُ في الهرب تفعلان مثلي لاحقاً.

لم ينم شمّو ساعة حتى صحا على صوت إطلاقات نارية في الخارج. كان آزاد صاحياً أيضاً. ومع بزوغ أول شعاع للشمس، خرجا كباقي الأسرى إلى الشارع على أصوات منبّهات السيارات.

رجل مسلح بحاجبين سميكين جداً ولحية طويلة بدون شارب رفعَ مكبر الصوت إلى فمه وقال: نعيد عليكم اليوم توزيع المهام لأن عددكم تناقص وصار 213. ليلة البارحة حاول بعضكم الهرب ولكنهم لم يتمكنوا.

رفعَ صوته أكثر: سبق وأن قلنا لكم كونوا أخوة لنا ونحن نحميكم ولكن بعضكم أبى إلا أن يخالف مشيئة الله فلم يكن أمامنا سوى القتال. هكذا هو مصير الخوَنة. لا يستحقون أكثر من حفرة. مثلما رأيتم نحن داوينا جرحاكم في المستشفيات لأننا أردنا أن نعطيهم فرصة ثانية لعلّهم يهتدون. أنتم قلتم بأنكم أصبحتم مسلمين ولكن يبدو أن بعضكم كان يكذب علينا. وعَدناكم أن نجلب إليكم عوائلكم وفعلاً هم الآن في الطريق إلى هنا. سيتولى أبو قُتيبة الآن كتابة أسمائكم من جديد وإعادة توزيع المهام عليكم.

أعطوا آزاد مهمة عامل في مكاتب الإدارة. كان واقفاً مع باقي المكلّفين بتلك المهمة وقد لمح أباه وهو يمسح دموعه. كانت تلك أول مرة يرى فيها آزاد أباه يبكي فهو لم يفعل ذلك حتى في تعازي أقاربه.

قسم من الأسرى ذهبوا للعمل كمجموعات وقسم فرادى حسب أوامر المسلّحين. علي اقتصادية أشار لآزاد أن يصعد معه في السيارة قائلاً: سآخذك إلى مستودع لتساعدني بنقل أغراض إلى مركز الإدارة.

حاضر، أجاب آزاد.

بعد فترة من الصمت في السيارة، قال علي: إسمع، أنت إنسان جيد وأريدك أن تتحدّث مع جماعتك لتحثّهم بألا يهربوا. ليلة البارحة اضطررنا لقتل

عدد كبير من جماعتكم. انتهوا في حفرة كبيرة. لا نريد لكم أن تنتهوا كلكم هناك.

ممكن تأخذني إلى الحفرة؟ سأله آزاد.

لماذا؟

فقط أريد أن أرى إن كان صديقي بينهم.

عندما ننتهي من الشغل سنمرّ من هناك وأدعك تلقي نظرة، قال علي. في تلك اللحظة رنّ تلفونه.

«بعد اسبوع،» قال للشخص الآخر على الخط وأغلق الهاتف.

تلك كانت ابنتي، قال علي لآزاد، تسألني متى أرجع إلى البيت.

استغرب آزاد لسماعه ذلك وكأنه لم يتوقع بأن هذا الذي بجانبه من بني البشر الذين لهم أبناء أيضاً.

أنت متزوج؟ سأله علي.

تردّد آزاد في الإجابة ثم قال «لا.» كأنه خشيَ أن يأخذوا منه زوجته إذا تلفظَ بالحقيقة. لابدّ أنها قلقت من تأخّره ولكن على الأقل هي بأمان مع الطفل وسيحاول أن ينجو من أجلهما. كل هذا الصبر من أجل أن يعود إليهما سالماً.

حينما تصبح مجاهداً حقيقياً، قال علي، يمكنك أن تتزوج مَن تشاء وحتى لو استشهدتَ ستقابل حورية من حوريات الجنة. لن يذهب جهادك سدى.

إن شاء الله، أجاب آزاد وهو يقول في قلبه: إن شاء الله تستشهد ليخيب ظنك ولا تجد في انتظارك أي حورية.

أنا عندي ثلاث زوجات، قال علي، الأخيرة مجاهدة حقيقية. تركتْ زوجَها وانضمت إلينا.

طلّقتْ زوجها؟ سأل آزاد.

كان يضربها كل يوم، أجاب علي، وبالرغم من ذلك لم يكن بإمكانها التخلص منه حتى انضمت إلى الدولة الإسلامية.

في المساء رجع آزاد إلى أبيه منهَكاً ليس فقط بسبب كل تلك الصناديق التي حملها وإنما بسبب الجثث التي رآها مكدّسة في تلك الحفرة. حين نظر إليه أبوه نظرته المتسائلة، قال آزاد: لم يكن قطّو بين القتلى، أنا رأيتهم بعيني. بعضهم كان منبطحاً على بطنه فلم تظهر وجوههم جيداً ولكن لم يتبيّن لي أنّ قطّو بينهم. لم أجد يداً بذلك الطول كيدهِ بين القتلى.

اختلفت المهمات وصار الكل يعمل كل شيء. اكتسب آزاد خبرات عمل جديدة في البناء والتصليح والزراعة وحتى تلاوة الآذان في الجامع الذي ساهمَ ببنائه وجلبَ ميكرفونات إلى قاعته الكبيرة.

أشرقت الشمس أكثر من 120 مرة على قرية المهتدين وعلى أسراها الذين أُجبروا على الشغل بدون مُقابل سوى بعض المواد الغذائية التي تبقيهم على قيد الحياة. أولئك الأسرى كان لهم أمل من نوع خاص. أمل يشبه اليأس. فعندما يتكرّر الأمل كل يوم، يصبح اليأس أليفاً كالأمل نفسه، وبمرور الوقت يتشابهان إلى درجة أن يصعب عليك التفريق بينهما.

لم يعد الحراس يقفون في الشوارع. انتقلوا إلى أطراف القرية في سيطرات لتنظيم حركة الداخل والخارج. مع ذلك لم يكن سهلاً على الأسرى أن يهربوا، فلم تكن عندهم وسائل نقل سوى أقدامهم. عليهم السير ما لا يقل عن سبع ساعات من أجل اجتياز منطقة الخطر وعبور المناطق التي زرعوا فيها الألغام بأنفسهم تحت إشراف المسلّحين. إذا حاول أحدهم الهرب يقتلونه ويعلقونه على شجرة أمام أنظار باقي الأسرى. وحين تغيب الشمس، يُنزل الأسرى جثته من الشجرة ويدفنونه.

في يوم من أيام الأمل ذاك توأم اليأس، تحديداً منتصف كانون الأول 2014 مع صوت منبّهات الصباح، جاء الباص المنتظَر أخيراً. نزلت منه نساء وأطفال ركضوا يبحثون بين الأسرى عن أفراد عوائلهم. تعانقوا طويلاً وهم يبكون. قسم منهم عثروا على أنصافهم ومكمّلاتهم وقسم لم يعثروا. بكوا معاً، كلهم بكوا. مسح شمّو دموعه لمشهد الناس المتعانقين ولكن لم تكن هيلين هناك ليعانقها.

«هل يوجد باص آخر في الطريق؟» سأل شمّو أحد الحرّاس ولكن تظاهر هذا بأنه منشغل بتلفونه عن الإجابة. أسرعت امرأة كبيرة السن باتجاه شمّو وهي تمسك يد فتاة في التاسعة من عمرها. حين اقتربت وسلّمت عليه عرفَ بأنها أم قطّو. كان شعر البنت مقصوصاً بشكل اعتباطي جداً ومتسخاً بالتراب، وملابسها مقصوصة الحافات على نحو غريب. بدت مهمَلة أو مجنونة.

أين قطّو؟ سألتْهُ نسيمة.

قبل أن يتمكن شمّو من الإجابة، تقدّم آزاد إلى الأمام وهو ينظر حواليه ثم همس بأذنها: قطّو هرب.

ماذا عن أمينة وهيلين؟ سألتْ.

كان أملنا أن نسمع منكِ أخبارهما، قال آزاد، ما كنتن معاً؟

لم أرهما منذ ذلك اليوم، أجابت نسيمة.

تضايقَ المسلّحون من كثرة الأسئلة إليهم فأعلن أحدهم بمكبّر الصوت: هذه هي الوجبة الأولى من عوائلكم. كفوا عن الأسئلة وإلا لن يعثر عليكم مَن يأتي لاحقاً إلى هنا. توجد بيوت فارغة في المنطقة. كلها ملك لكم. اصبروا فإن الله يحب الصابرين.

توجد غرفتان في هذا البيت الذي نحن فيه، قال شمّو، أنا وآزاد في غرفة وأنتِ وأحلام في غرفة. أم تريدان بيتاً لوحدكما؟

لا، طبعاً لا نريد لوحدنا، أجابت نسيمة.

ما أن دخل أربعتهم البيت الذي بلا باب حتى سألت نسيمة: هل يوجد مقص هنا؟

لستُ متأكداً، قال آزاد، ولكن هناك بيوت مهجورة وأستطيع أن أبحث فيها عن الحاجيات، أو أطلب من الجيران. نحن نتعاون ونتبادل كل شيء. حتى عَرَق وجدنا وشربناه بالخفاء فالكحول ممنوع. أفترض بأنّ المقص غير ممنوع.

ماذا تفعلين بالمقص يا أم قطّو؟ سألها شمّو.

أنا أنقذتُ أحلام بالمقص، قالت نسيمة، ولكنهم أخذوه مني قبل أن يأتوا بنا إلى هنا.

صحيح؟ كيف هذا؟ سأل شمّو وقد أشار لها بالجلوس. «اعمل شاياً يا آزاد واجلب الخبز. اعذرينا من التقصير،» أضاف «ولكن هذا ليس بيتنا كما تعرفين وإلا لضيفناكِ بما يليق.»

طبعاً، أعرف، قالت نسيمة.

إلى أين أخذوكن يا أم قطّو؟ سألها.

فرّقونا عن بعضنا البعض في البداية، أجابت، آه دمّرونا. قتلوا الرجال أمام أعيننا. رموهم في الحفر وأطلقوا عليهم النار. أحرقوا قلوب أمهاتهم.

اختنقت نسيمة بالبكاء. ناولها آزاد طاسة من الماء فشكرتهُ. أكملت كلامها: اشتراني أمير من أمرائهم كخادمة له. وفي يوم توسّلتُ به أن يجلب إليّ أحلام لأراها. جلبها فعلاً ساعتين وأرجعها إلى قاعة البنات. سمحوا لها أن تأتي وتزورني كل شهر مرّة. وحين أتت في المرة الثالثة مات الأمير في القتال، فقال الحارس سيأتي شخص ويستلمنا. عندها جاءتني فكرة. قصصتُ شعر أحلام وخربطته وقصصتُ حافات ملابسها. أوصيتها أن تتصرف على أنها مجنونة حين يأتون. أحلام مثّلت الدور جيداً فعندما جاء الشخص ليشترينا صدّقَ بأنّها مجنونة فعلاً فرفضَ أن يشترينا. جاء آخر ورفض هو أيضاً. قالوا «لا نفع فيكما» ثمّ جاؤوا بنا إلى هنا. ولذلك أحتاج المقص في حال بدّلوا ملابسها فأقصّها مرة أخرى على أساس أنها هي التي تفعل ذلك.

سمعوا منبّه سيارة، لمحَ آزاد سيارة علي أمام البيت فخرج. عاد بعد دقائق وقال: يريدونك يا أبي أن تأتي لتقوم بختان بعض الأولاد.

قام شمّو قائلاً لنسيمة: إذا لم نعثر على مقص عادي، يمكنك استخدام أدوات الخِتان.

في اليوم التالي، كانت مهمة آزاد أن يحمل صناديق المواد الغذائية من المخزن إلى مكتب التوزيع الذي على بعد شارعين من البيت. في النهاية أعطوه حصته من الغذاء وأخبره علي بأن يغادر. في طريق العودة سائراً، دخل آزاد بيتاً مهجوراً على أمل أن يعثر على مقص. وفي أثناء بحثه، عثر على شاحنة تلفون. التقطها وخرج وهو يتخيّل أن يعثر على هاتف أيضاً. سيزاول أرقاماً عشوائية فربما يرد عليه صوت من خارج هذه الأسوار.

بعد أن وصل إلى البيت، أفرغ آزاد الكيس مما فيه من شاي وبرغل وبطاطا وبصل ومعجون طماطة.

بلا طحين هذه المرة؟ سأله شمّو.

تعرف مَن قابلتُ اليوم يا أبي؟

مَن؟

إبن جيران هيلين. إسمه حميد وهو صديق يحيى. كان اليوم في مكتب توزيع المواد الغذائية.

هو أسير أيضا؟ سأل شمّو.

لا، هو داعشي، أجاب آزاد، كان برفقتهم ويحمل السلاح مثلهم.

هل سألتهُ عن هيلين؟

رحلَ مع جماعته قبل أن أسأله ولكنه عرفني وحتى عرف مكاني. كان الحرج واضحاً عليه.

أخرجَ آزاد الشاحنة من جيبه قائلاً: حصلتُ على هذه وبقيَ أن أعثر على تلفون ولو لا أعرف إن وُجدت شبكة نت هنا.

ما معنى هذا؟ سأل شمّو.

بدونها لا يحدث ترابط، أجاب آزاد.

سبحان الله، قال شمّو، حتى الأجهزة لا تشتغل من دون ترابط.

الصافرة

لطالما انبهرتْ هيلين بمنطقة الغابات في الموصل وبجمال أشجارها المتراصة العملاقة ولكن في هذه اللحظة غمرها إحساس بالنفور من منظر توالي تلك الأشجار الكثيرة واحدة بعد الأخرى كأنها مجموعة من المغتصبين الذين سيتناوبون عليها ويقطعون أنفاسها. لم يخبرها السائق شيئاً سوى أنه يأخذها إلى المضافة لأنّ عيّاش اختفى. في المقعد الخلفي للسيارة التي لا تعرف إلى أين تتوجه بها، غطت عينيها بيديها.

أنزلت يديها إلى حضنها ونظرت مرة أخرى عبر نافذة السيارة. كان القمر كاملاً في السماء وهو يتبعها. ظلَّ يتبعها حتى أوقف السائق سيارته عند بناية مكتوب على علامتها «قاعة أعراس كلكسي.»

إذن لم يأتوا بها إلى المدرسة التي أخذوها منها كما كانت تتوقع. وضع السائق مسدّسه في حزامه وقال لهيلين أن تدخل القاعة. كانت هناك أكثر من 150 امرأة جالسة على أرض القاعة، لكن السائق أمرَ هيلين أن تتبعه إلى غرفة جانبية. هناك سلّمها لشاب جالس خلف طاولة مكتب. قال له السائق «هذه أرملة عيّاش» وغادر.

كتبَ الشاب شيئاً على الورقة التي أمامه ومن دون أن يرفع عينيه قال: انتظري هناك في القاعة لحين يأتي دوركِ.

جفلت هيلين لمرأى الشاب الذي أمامها وقالت: حميد؟

لم يعرفها حميد في البداية وهي مرتدية النقاب ولكنه ميّزَ صوتها.

خالة هيلين؟

ماذا تفعل هنا يا حميد؟

صمتَ لحظة قبل أن يجيب: فقط أعمل.

خذني إلى بيتكم لأرى ابنتي.

صمتَ مرة أخرى خافضاً نظره، ثم قال: هذا صعب عليَّ جداً.

نظرتْ إليه بعينين دامعتين.

سأحاول ما بوسعي لمساعدتكِ، همسَ لها، ولكن عليكِ أن تذهبي الآن إلى القاعة.

خرجت هيلين وهي تشعر بأنها في حلم غريب كبرَ فيه الأولاد الصغار الذين كانت تحبّهم وترعاهم، ونمتْ لهم لحى طويلة وصاروا أكبر منها ويعطونها الأوامر. جلست على الأرض مع الباقيات ودارت بنظرها بينهن عساها تعثر على أمينة. بعضهن كن مرتديات النقاب ومن الصعب تمييزهن، لكنها لمحتْ ليلى وهي غافية هناك في زاوية القاعة.

زحفت هيلين إليها عبر الفسحات الصغيرة بين النساء وهمستْ باسمها ففتحت ليلى عينيها. ابتسمت لها هيلين وقالت: أنا هيلين، تتذكّريني؟

أومأت ليلى برأسها ثم قالت: رأيتكِ قبل يومين في منامي.

صحيح؟

كنتِ مع ميادة وهي كانت تلعب بكُرة صغيرة.

مَن ميادة؟ سألتها هيلين.

ابنتك.

إسمها ميادة؟

ذلك كان اسمها في الحلم.

دخلتْ امرأة إلى القاعة وأعلنتْ بأن عليهن أن يقفن بالدور ليتحمّمن ويبدلن ملابسهن لأن تاجراً اشتراهن بالجُملة وسيبيعهن بالمُفرد في الرقة. شعرت هيلين بخيبة أمل بأنْ تغادر بعد أن التقت بحميد فقد تأمّلت أن يساعدها بالرغم من شغله الرهيب. رؤيتها له هناك كانت مفاجأة صادمة لها. ولكن تلاشى أملها تماماً بعد ثلاث ساعات حيث أمروهن بالتوجّه إلى الباص الكبير الذي سينقلهن إلى الرقة. لم يكفِ الباص لكل البنات فصعد قسم منهن في سيارات صغيرة. كانت هيلين جالسة في الباص بجانب ليلى حين صعد أحد الشباب وقال «مَن هيلين؟ إنزلي.»

حين نزلتْ من الباص، طلب منها أن تتبعه. رأت من بعيد شابين وحول رأسيهما عصّابة داعش السوداء ففكّرتْ بأنهم سيغتصبونها جماعياً. توقّفتْ في مكانها وقالت للشاب الذي كان يسير خطوتين أمامها: الله يخليك، اتركني أذهب مع باقي البنات. أنا مريضة.

تحرّكي بسرعة، لا تتوقفي، قال.

حين وصلتْ إلى مكانهم، رأت حميد بينهم. قال لها وهو واقف بجانب سيارة حوضها الخلفي (الترنك) مفتوح: ادخلي بسرعة.

دخلت هيلين وقبل أن يغلق عليها حميد باب الترنك، رفعت إليه عينيها وقالت: معي بنت اسمها ليلى. هي في الباص. دعها تأتي معي أرجوك.

هذه مجازفة ونريد أن نتحرك بسرعة. سنرى، قال حميد. أغلق الترنك وتركها في الظلمة.

بعد دقائق، فتحوا الباب مرة أخرى وانضمت ليلى إلى هيلين. تكورتا ليكفي المكان لهما معاً.

عادت السيارة إلى الموكب في انتظار الإشارة للإنطلاق إلى سوريا.

سأموت من الخوف، قال الشاب الجالس بجانب حميد، ماذا لو اكتشفوا هذا؟ ذاك أبو توفيق قادم باتجاهنا. والله سيذبحوننا.

أنزلَ حميد نافذة السيارة وقال لأبو توفيق: نغادر الآن؟

لم يأتِ الأمر بالتحرّك بعد، أجابه أبو توفيق.

سيارتنا قديمة وأحياناً تعطل، ماذا لو نسبقكم كي لا نتأخر؟ سأله حميد.

أشار أبو توفيق بيده بأن اذهبوا فانطلقت السيارة وهم يتنفسون الصعداء.

أدار حميد رأسه قليلاً صوب هيلين وقال بصوت مرتفع كي تسمعه في الخلف: في أحد هذه البيوت أخوكِ. لا أعرف أي بيت بالضبط ولكن ما أن نتوّقف تنزلان بسرعة وطبعاً لا تأتيان على سيرتنا أبداً. الناس في تلك البيوت كلهم أسرى وربما يدلونكِ إلى بيت أخيكِ. لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك لأن علينا أن نلتحق بالموكب فوراً.

ما أن توقفت السيارة وفتح لهما حميد الترنك، خرجتا وسارتا مسرعتين. أمسكت هيلين يد ليلى ودخلتا فوراً إلى أقرب بيت رأيتاه. كان خالياً مهجوراً ولكن فيه حنفية مطبخ تشتغل فشربتا بعض الماء منها.

معقولة آزاد هنا؟ تمتمت هيلين، أخشى أن يقبضوا علينا إذا مشينا في الشارع.

كانتا متعَبتين جداً فوجدتا نفسيهما نائمتين على الأرض. في اليوم التالي، ظلّت هيلين تراقب الشارع من نافذة البيت. لمحتْ آزاد بلحية طويلة وهو يمشي بسرعة من أمام البيت. تردّدتْ قليلاً لأنها لم تكن متأكدة إن كان ذلك الشخص داعش ويشبه آزاد أم هو آزاد ويشبه داعش. أطلقتْ صافرة تعني بلغة الجبل «أنا هنا.»

جمدَ آزاد في مكانه لدى سماعه صافرة هيلين. التفت إلى الخلف واستدار عائداً. وحين صار أمام البيت، أخرجت هيلين نصف جسمها من الباب فأسرع آزاد إليها غير مصدّق عينيه. حضنت أخاها طويلاً وقد بلّلت لحيته الطويلة بدموعها.

تصورتكَ داعش، قالت له وهي تنسحب وتنشف دموعها.

غير مسموح لي بأن أحلق لحيتي، فقط شواربي، قال.

خرج من البيت ونظر يميناً ويساراً ثم عاد وقال: سندخل بسرعة ثالث بيت من هنا.

أمسكت هيلين يد ليلى وساروا ثلاثتهم بسرعة ودخلوا البيت الذي بلا باب.

خرجَ شمّو من الحمّام ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام هيلين. حضنَتها وهي تبكي على كتفه. بكوا كلهم.

ما الذي جاء بكم إلى هنا؟ قالت هيلين.

أنتِ، كنا نبحث عنكِ، أجاب آزاد.

هل كانت أمينة معكِ؟ نسيمة سألت هيلين.

التقيت بها دقيقة واحدة فقط ثم فرّقونا، قالت هيلين.

تناثرنا مثل بذور السمّاق، قال شمّو وهو ينظر إلى صاحبة هيلين الصغيرة.

هذه ليلى، قالت هيلين، فرّقوها عن أهلها لأنها في التاسعة من عمرها.

مثل أحلام، قالت نسيمة وهي تقف جانباً وتشير بيدها إلى أحلام إبنة أمينة.

هم يظنون بأنها مجنونة، أضافت.

من الطبيعي أن ينجن الإنسان هنا، قالت هيلين.

انحنى شمّو وابتسم للبنت الخجولة. سألها: ما اسمكِ الكامل يا ليلى؟

ليلى حسن خان.

فكّرَ شمّو قليلاً ثم قال: عندكِ أخ إسمه زيدو؟

نعم، هو أصغر مني.

أنا ختنتُ أخاكِ. أنتم من تل قصب، أليس كذلك؟

نعم.

زيدو؟ لحظة، ما إسم أمّكِ يا ليلى؟ إسمها غزال؟ سألتها هيلين.

نعم ذلك هو اسم أمّي، أجابت ليلى.

فتحت هيلين فمها مندهشة وأضافت: أنا التقيت بأمّكِ! وكان معها زيدو وأختكِ الصغيرة.

أين كانوا؟ هل كان أبي معهم أيضاً؟

سكتت هيلين. لم يكن الوقت مناسباً لتخبرها بأنّ أمها غزال رأت أباها وهو يُقتل وأنها فقدت صوتها.

لم أرَ أباكِ، أجابت هيلين وهي تتذكّر كيف أشارت غزال بيدها لهيلين كتشجيع للهرب.

فرحة اللقاء قطعها منبّه سيارة علي إذ جفلوا من صوته.

إذهبوا إلى غرفة النوم. أحياناً داعش يدخلون من دون سابق إنذار، قال آزاد وخرج بسرعة.

مهمته في ذلك اليوم الأخير من سنة 2014 تنظيف مكتب علي وقد اعتنى بذلك اعتناءً شديداً وحين انتهى من ذلك قال لعلي: أريد أن أسألك فضلاً.

نظر إليه علي بصمت منتظراً ما يطلبه.

يحيى وياسر إبنا أختي في معسكر تدريب الرقة وأنا اشتقت لهما. ألا يمكن أن يأتيا لزيارتي؟

صمتَ علي لحظات ثم قال: أنا أعرف بأنّ المقاتلين عندهم يومان إجازة في الشهر. سأسأل عن ذلك وأخبرك.

شكراً جزيلاً، قال آزاد وهو يعبئ صندوقاً بمنشورات التنظيم. أرادَ أن يقول «كل عام وأنت بخير» ولكنه خشيَ أن يكون ذلك حرام. حين وضع آزاد الصندوقَ فوق صندوق آخر سمع علي وهو يتلعثم بالتلفون ويحاول جاهداً أن يقول شيئاً ولا يستطيع، كأنما ثقل لسانُه. وقع التلفون من يده. حاول أن يلتقطه ولم يستطع. فقدَ السيطرة على نفسه وسقط على الأرض. هرع آزاد إليه وحاول أن يرفعهُ ولكن علي فقدَ الوعي.

ركضَ آزاد إلى الشارع وأوقفَ أول سيارة رآها. طلبَ من السائق المساعدة بنقل علي إلى المستشفى. نزل الرجل وساعد آزاد بحمل علي إلى السيارة. رافقه آزاد إلى المستشفى وبقي معه في غرفة الطوارئ حتى ساعة متأخرة من الليل. كان السائق وهو عضو في التنظيم قد أبلغ إدارة المستشفى بأنّ آزاد هو من الأسرى كي لا يغفلوا عن مراقبته. في النهاية، نقلوا علي إلى ردهة أخرى وأوعزوا لآزاد بالمغادرة إذ دبروا سائقاً نقلهُ إلى بيته.

في المطبخ، أخبرَ هيلين وهما يشربان الشاي بما حدث مع علي، فقالت: ليتك تركتَهُ يموت. أولئك كلما نقصوا أحسن. المهم متى نهرب من هنا؟

أنا أفكّر في هذا الموضوع منذ اليوم الأول لوصولنا إلى هنا. ولكن لم أفعل شيئاً بهذا الخصوص وذلك لخاطر بابا. الهروب يستدعي المشي ساعات طويلة وهذا صعب عليه. وهناك سبب آخر يمنعنا، أجاب آزاد.

ماهو؟ سألته هيلين.

يحيى وياسر في معسكر التدريب في سوريا.

ماذا؟ هيلين سألت بدهشة بالغة كأنها لم تصدّق ما سمعت.

إهدئي، الحمد لله أنهما على قيد الحياة.

لن أغادر بدونهما.

أدري، قال آزاد.

بعد اسبوع، تعافى علي ورجع إلى مهماته، فعادَ آزاد كذلك لتنظيف مكتب علي.

كان علي ممتناً جداً من آزاد إذ قال: أخبروني بأني كنتُ سأموت لولا تصرّفك السريع. أنا ممنون منك يا أخي.

وأريد أن أخبرك بشيء، أضاف علي، هناك رجل إسمه خالد عمر. تعرفه؟

هو صديقي وبمثابة الأخ لي، أجاب آزاد.

رآك في اليوتيوب الذي عن دخول الإيزيديين الإسلام ومدحَ بك كثيراً.

أنا الأب الروحي لإبنه لأنّ أبي ختنهُ في حضني.

خالد عمر قابلَ الخليفة أبو وليد وطلب أن يزورك، قال علي، ويبدو أن له صلة قرابة بالخليفة. ولأنك من ضمن فرقتي فقد اتصلَ بي الخليفة وسأل عنك.

سأفرح كثيراً بلقاء خالد، قال آزاد.

كان آزاد قد عاد لتوّهِ من صلاة المغرب حين فاجأه خالد بالزيارة. تبادلا القبلات على الوجنتين وأمسك خالد يد شمّو وقبّلها. جلب لهم معه علبة بقلاوة ومعجنات الجبنة وكيس لوز مملح. حين جلسوا، قال وهو يحدّق في آزاد: كم طويلة لحيتك! كأنك داعش.

وأنا أيضاً حينما سمعتُ بأنك تريد أن تراني تصورتُ بأنك انضممتَ إلى داعش، قال آزاد.

أنا مسلم وليس داعش، قال خالد.

أعرفك جيّداً يا خالد.

إخبرني يا آزاد، هل تحتاج مني شيئاً؟

أحتاج شيئاً مهمّاً لو استطعتَ أن تجلبه.

غالي والطلب رخيص.

عندي شاحنة وأحتاج إلى تلفون.

ولا يهمك، أجلبه لك، قال خالد.

التلفون ممنوع هنا فكن حذراً في إيصاله.

هم فتّشوني حين وصلت إلى هنا ولكن اطمئن سأخبّئه جيّداً.

في الزيارة الثانية، 13 كانون الثاني 2015، دخل خالد وبرفقته حارس، وبيده كيس كبير من البرغل. قال: أنا مستعجل. جئتُ فقط لإيصال هذا البرغل للزكاة. لكن الكيس مترطّب قليلاً. يحتاج أن يُفرَّغ في كيس آخر.

تصوّرَ آزاد بأنّ وجود الحارس منعَ خالد من أن يجلب له التلفون. حين خرج خالد، ووضع آزاد الكيس على الطاولة. جلبَ شمّو وعاءً بلاستيكياً وقال: سمعتهُ يقول بأن الكيس فيه رطوبة.

حين أفرغَ شمّو الكيسَ في الوعاء، سقط تلفون مع حبات البرغل. التقطه آزاد قائلاً: آه، لهذا أرادنا أن تُفرغ الكيس.

المفاجأة الأخرى وصلت إلى أسماعهم في صباح اليوم التالي حين خرج الأسرى على صوت منبّهات السيارات. أعلن أحد المسلّحين: عملنا اتفاقاً مع الحكومة المحلية بأن نسلّمهم كبار السن والمعوّقين من بينكم مقابل تزويدهم لمنطقتنا بالكهرباء. ستأتي الباصات بعد قليل لنقل المشمولين بالقرار إلى كركوك ومن هناك إلى ما شئتم فتحضّروا لذلك.

تقدّم علي من آزاد وقال له: والدك ليس كبيراً جداً.

هو في الثمانين من عمره تقريباً، قال آزاد.

إذن بإمكانه أن يغادر إلا إذا أراد أن يبقى معنا.

سأسأله، قال آزاد وهو يتساءل مع نفسه: وهل هناك مَن يريد أن يبقى معكم؟

كان شمّو محتاراً ومتردداً عندما جاءهم الإعلان عبر مكبر الصوت بأنّ الباصات جاهزة.

كيف أترككم هنا وأذهب؟

من الأفضل لنا جميعاً أن تذهب، قال آزاد.

لكي تتخلّصوا مني؟

لا، هكذا ستنقذنا. إسمع يا أبي، احفظ هذا الرقم وحين تصل إلى كردستان اعطهِ لأي شخص من جماعتنا كي يتواصلوا معي. الآن عندي تلفون ولكني لا أعرف أي رقم من أرقامهم.

ارتفع صوت المنبّه فكان على شمّو أن يسرع للالتحاق بالباص.

كيف أحفظ الرقم بهذه السرعة؟ قال شمّو، إكتبه لي يا إبني على ورقة صغيرة أخبّئها في ملابسي.

التقط آزاد قلماً ولم يعثر على ورقة. ركضتْ نسيمة بالمقص وقصّت قطعة صغيرة من ثوب أحلام وأعطتها له.

ما أذكاكِ، قال شمّو، بإمكانك أن تحلّي أية مشكلة بالمقص.

الكثير ممن توجّهوا إلى الباص كانوا يسيرون على العِصي، وحين جاء دور نسيمة لتصعد سألها الشخص الواقف عند باب الباص وهو ينظر إلى

أحلام: هذهِ معكِ؟

هي معوَّقة عقلياً، همست نسيمة، فسمح لهما بالصعود.

في اليوم التالي لمغادرتهم، هرب ثمانية شباب من الأسر بنجاح مما أغضبَ داعش ففرضوا منع تجول في المنطقة لثلاثة أسابيع. ساد في القرية صمت لم يقطعه سوى صياح ديك في الصباح الباكر وضجيج المولدات الكهربائية في الليل. كان الأسرى قد سمعوا بأنّ داعش هدموا المزيد من المواقع الآثارية وأحرقوا مكتبة الموصل المركزية وأحالوا كتبها النادرة ومخطوطاتها التاريخية رماداً، فتلك الكتب، في رأي داعش، تجلب الإلحاد ولذلك هي أوكار للشياطين.

«هذا يذكّرني بهولاكو الذي غزا بغداد ورمى كتبَها في نهر دجلة،» قالت هيلين لآزاد وقت الفطور. كانت قد زارت تلك المكتبة مرّة مع إلياس، وتتذكّر جيداً بناية المكتبة بطوابقها الأربعة وطرازها العمراني القديم ونوافذها الطولية. مسحت هيلين دموعها وهي تستعيد ذكرى معاينة تُحف المكتبة النادرة مع إلياس، وقد استهوتهُ ساعة رملية تُستخدَم لقياس الوقت من خلال تسرّب الرمل الناعم من تجويفها العلوي. «كم من الرمل سيتسرّب قبل أن أراك يا إلياس؟» تساءلت هيلين مع نفسها.

حين انتهى حظر التجوّل، أعلن أعضاءُ التنظيم قرارَهم بنقل الأسرى إلى تلعفر، على وجبتين. حين استدعوا بيوت الوجبة الأولى، كان آزاد من بينهم. خبأت هيلين التلفون بملابسها لأن داعش يفتشون الرجال عادة بينما لا يقتربون من النساء المحجّبات. تلك كانت أول مرة تخرج فيها هيلين وليلى من البيت. توختا الحذر خشية أن تكتشف المنظّمة بأنهما مهرّبتان أصلاً من قاعة الأعراس. ولكن النقاب هو درعهن المنيع الذي يحميهن من الانكشاف. توجهوا بسرعة إلى التجمّع الأول واختلطوا مع باقي العوائل.

في تلعفر، أمر المسلّحون أن يدخل الأسرى وعوائلهم أياً من البيوت المهجورة هناك. هذه المرة، كانت هناك عوائل داعش تسكن في تلك المنطقة أيضاً. تعاون الأسرى بحمل الأثاث والبطانيات لبعضهم البعض وهم يتهامسون بأن حياتهم ستصبح أصعب بوجود عوائل داعش بجوارهم.

مرّ يومان ولم تأتِ الوجبة الثانية من الأسرى. جماعة الوجبة الأولى صاروا يسألون أعضاء المنظمة عن أقاربهم وأصدقائهم. في اليوم الثالث، حين ذهب آزاد مع علي ليعاونه بنقل ثلاجة إلى مكتبه، سأله: أين باقي جماعتنا؟

لا تسل عنهم، قال علي.

أخيراً جاءهم الجواب الذي جعلهم يبكون ويلطمون على الخدود. داعش قتلوا الرجال من أسرى الوجبة الثانية وباعوا نساءهم وأطفالهم. تسرّبَ إليهم ذلك الخبر من جارة لهم، زوجها داعشي. ولكن لماذا فعلوا ذلك بالوجبة الثانية وليس الأولى؟ هل من سبب أم حدث ذلك عشوائياً؟ لا أحد من الأسرى المتبقّين يعرف.

كان يوماً من أيام نيسان المعتدلة من عام 2015 حينما شعرت هيلين، وهي في غرفة المعيشة، باهتزاز التلفون تحت ملابسها. أخرجتهُ لتنظر في شاشته. رأت رقم تلفون وتحته إسم عبدالله. في الوقت نفسه، سمعَ آزاد صوت منبّه السيارة فقال: خبئي التلفون بسرعة، هاهو علي وصل.

حين شاهدت هيلين السيارة تغادر بآزاد إلى الشغل، بعثتْ رسالة هاتفية: مرحبا إبن عمتي العزيز. معك هيلين.

جاءها الجواب فوراً: أين أنتِ؟

تلعفر.

تستطيعين أن تهربي؟

ليس الآن، سأخبرك عندما يأتي يحيى وياسر فنغادر كلنا معاً.

حسناً. كونوا بخير.

كانت واجبات آزاد في ذلك اليوم مختلفة فقد أوكل إليه علي مهمة تعبئة سيارة كبيرة بعبوات ناسفة. طبعاً فعلَ ذلك بحذر شديد لئلا تنفجر واحدة بوجهه، كما أنه كان يشعر بصداع وتعب شديد.

ما بك؟ سأله علي.

رأسي على وشك أن ينفجر، أجاب آزاد.

توقّف علي عند صيدلية واشترى له عدة حبات باراسيتول.

شكراً، قال آزاد.

أردتُ أن أخبرك بأني لم أنسَ طلبك بلقاء إبنَي أختك. إلتقيت بهما البارحة. ما شاء الله ولدان ذكيان جداً.

لم يعلّق آزاد بشيء فأضاف علي: سيأتيان لزيارتك في الجمعة الأخيرة من هذا الشهر. سأجلبهما معي إلى الجامع فنلتقيك هناك بعد صلاة الظهر.

مشى آزاد إلى الجامع منذ السادسة صباحاً ليقوم بتنظيف الباحة وملء التانكي بالماء قبل صلاة الظهر. انضم إلى المصلّين وحين أدار وجهه إلى اليمين لمحَهما برفقة علي. وفي النظرة الثانية تأكّدَ بأنهما يحيى وياسر.

انتظرَ حتى اكتملت الصلاة وبعدها أسرعَ متوجهاً صوبهم.

غداً صباحاً يمر أبو سفيان عليهما ليوصلهما بطريقه إلى المعسكر، قال علي وغادر.

عانقهما آزاد ووقف ليتحدث معهما ولم يعرف ماذا يقول. أراد أن يقول بأنّ أمّهما ستُصدَم بفرحة لقائهما ولكنه لسبب ما آثرَ الصمت. يحيى صار

عمره 17 سنة وياسر 12 سنة. كانا يرتديان الزي الأفغاني، قميص طويل لحد الركبة وبنطلون واسع إلى حد ما.

غادروا المسجد وساروا معاً بصمت في الشارع وآزاد بين دقيقة وأخرى ينظر إليهما خلسة. تحركوا مثل روبوتات بلا أي تعبير. تعمّق ذلك الشعور المزعج لدى آزاد عندما دخلوا البيت ولم يهتم الولدان كثيراً بلقاء أمّهما بالرغم من أنها أوشكت أن يُغمى عليها من الإنفعال، وحتى عندما نزعت نقابها وكشفت عن وجهها لم يظهر عليهما ذلك التأثر المتوقَع.

أحضرت هيلين الغداء الذي كان خبزاً وبيضاً وطماطم وحين انتهوا من الأكل أحضرَ آزاد الشاي.

أريد أن أخبركم بأنَّ لكم أختاً صغيرة، قالت هيلين، ستكمل السنة الأولى من عمرها في 10 تموز.

أين هي؟ سأل ياسر.

مع أم حميد، أجابت هيلين وهي تمسح دموعاً طفرت من عينيها.

اقترب آزاد من الولدين وقال بصوت خفيض: إسمعوني جيداً. عندنا فرصة هرب من هنا. نحن انتظرناكم لنهرب سوية. الجمعة أحسن يوم للهرب ففي وقت الصلاة تخلو الطرقات من المارة.

تبادل يحيى وياسر النظرات.

لا نريد أن نهرب من دونكما، قالت هيلين.

لن نأتي معكم، قال يحيى، أمامنا مهمة كبيرة، أكبر من العائلة. عائلتنا هي الدولة الإسلامية بكاملها ونحن نجاهد لكي تنتصر الدولة. باقي أمم العالم تسير وراء المال فقط وهم يعملون مؤامرات لإضعاف المسلمين والقضاء عليهم. الدول الغربية تتدخّل في العالم الإسلامي وتزرع فيه الخلافات والحروب. الاستعمار يقول فرّق تسد ولكن دولتنا تحكم بالعدالة، وفي النهاية سيصبح العالم كله عادلاً تحت راية الدولة الإسلامية.

كل الأديان تنادي بالعدالة، قال آزاد.

ولكن الإسلام هو خاتِم الأديان، قال يحيى، فلو لم يكن ديناً متكاملاً لأرسل الله نبياً آخر ليكمّله.

وأنت ياسر، ما رأيك؟ سأل آزاد.

هزّ ياسر كتفيه بلا مبالاة. ولكن هيلين تقصّدت النظر إليه كأنها تنتظر جواباً. قال أخيراً: لا يجوز أن نتخلّى عن جماعتنا. هم يثقون بنا ويقولون أنتم من أحسن المسلمين لأنكم دخلتم عن قناعة وإيمان.

قفزت هيلين واقفة على رجليها وصرخت: جماعتك اغتصبوا أمّك وحتى هذه الطفلة ليلى اغتصبوها. أبوها مفقود وأبوك مفقود أيضاً.

إهدئي يا هيلين، قال آزاد، تذكّري بأننا حتى لم نصدّق بأنّ المنظمة كانت ستجلب إلينا الولدين لنراهما. دعونا لا نفسد هذا اللقاء.

نامت هيلين نوماً متقطّعاً وفي الصباح كان الولدان متهيئين للمغادرة.

سمعتُ بأنّ عندكم إجازة كل شهر، قال آزاد وهو يلم المنامات.

ننتظركم الشهر المقبل. ماشي؟ سألت هيلين.

نظر ياسر إلى يحيى وأومأ برأسه.

عملت هيلين سندويشات جبنة وشاياً، وقبل أن ينتهوا من تناول الفطور وصلت سيارة أبو سفيان. خرج إليه آزاد ليسلم عليه ويطلب منه أن يمهلهما دقيقة.

حضنتهما هيلين وقبّلتهما وبعثت معهما شاياً وسندويشة لأبو سفيان. نظرت من النافذة إليهم حتى انطلقت السيارة، ثم استدارت نحو آزاد قائلة: كيف استطاعت المنظمة أن تغسل أدمغة الأولاد هكذا؟

محشِّش

مثل باقي السنجاريين، تغيّرت حياة عبدالله تاجر العسل إلى الأبد يوم الثالث من آب 2014 حين سار مع عائلته باتجاه الجبل في قافلة من آلاف الأشخاص الذين اضطروا إلى ترك بيوتهم وخرجوا حاملين أطفالهم على ظهورهم، وخلفهم يتصاعد الغبار. من بينهم مرضى تركوا أسرّتهم في المستشفيات ونساء على وشك الولادة. ساروا بمشقة سبع ساعات عبر أحراش الجبل الخضراء وعلى صخوره البنية القاسية ليصلوا إلى الكهف الذي سيأويهم كأحضان الجدّات.

في الطريق، تباطأت خطى أولئك الذين لم تسعفهم أقدامهم فتخلّفوا عن السير مع الآخرين. بعض السنجاريين استداروا في منتصف الطريق عائدين إلى بيوتهم لأنهم سمعوا بأن أعضاء التنظيم نادوا بمكبرات الصوت بأنهم جاؤوا لتغيير الحكومة فقط وليس لإيذاء الناس أو التدخل في شؤونهم. آخرون تردّدوا بترك بيوتهم وحين قرروا أخيراً أن يغادروا، فاتهم الأوان فقد ظهرت أمام عتبات بيوتهم سياراتُ داعش المتوعدة بأعلامها السود.

لم يأخذ عبدالله معه سوى هاتفه النقال وبعض الخبز والعسل. كانت والدته قد خرجت تواً من المستشفى بعد عملية جراحية لقلبها ومع ذلك بدلاً من أن تأخذ استراحة لفترة نقاهتها، التحقت بالقافلة وسارت مع عبدالله وزوجته وولديه وبنتيه. سألتهُ ابنته الكبيرة فيما إذا كانوا سيرجعون مرة أخرى إلى بيتهم أم تأخذ أغراضَها معها؟ أجابها بأنهم سيرجعون. في أثناء المسير، اتصل عبدالله بأخ زوجته فوجده مايزال في البيت. أوصاهُ عبدالله أن يخرج بأسرع ما يمكن، وقال «لا، لاأعتقد بأنهم سيتركوننا وشأننا. لا أثق بأولئك

المتطرّفين. هم يسمّوننا كفاراً ويعتبرون طعامنا وماءنا نجساً فكيف يمكنني أن أثق بهم؟»

مضى الأسبوع الأول في الكهف ومئات السنجاريين تجمعوا حائرين بين البقاء والرجوع إلى بيوتهم. نفد تقريباً الماء والطعام بعد أن تشارك الناس بما لديهم مثل عائلة واحدة كبيرة. مشهد الأطفال الرُضّع وهم يبكون من أجل الحليب دفعَ عبدالله وبعض الشباب معه لجلب مِعزى تائهة كانت تسرح حول الناس بحثاً عن ماء. قال عبدالله: ليس من العدل أن نأخذ حليبها ولا نعطِها ماء.

لم يكن الماء الذي بحوزتهم يكفي. حملَ عبدالله طاسة ماء واحدة وفجأة تجمّعَ حوله قطيع من الماعز. نزل قاطعاً 200 متر إلى الوادي، والطاسة بيده والماعز خلفه. كان يعرف مكانَ حوض ماء كبير يستحق المجازفة. ما أن وصل حتى فتح حنفية الماء للقطيع كي يشرب بينما اختبأ هو خلف برميل مجاور، فداعش على مقربة ربما 200 متر أخرى.

بعد دقائق أغلق الحنفية وعاد صاعدا الجبل والقطيع خلفه. لابد أنّ راعيهم الأصلي اضطر أن يتركهم لينضم إلى القافلة، وربما ظنّوا بأنّ عبدالله هو راعيهم البديل. في منتصف طريق العودة، رأى عبدالله ناساً متجمّعين حول جثة عجوز، بقربها قنينة ماء فارغة. فَهِمَ منهم بأنها توقّفت عن السير هناك وطلبتْ من عائلتها أن يتركوها ويصعدوا ثم يرجعوا ليأخذوها فيما بعد لأنها احتاجت أن ترتاح قليلاً. رفضتْ أن تأخذ ماء من أحفادها وأقنعتْهم بأنّ القنينة التي بيدها تكفي. «ماتت من العطش،» قال ابنها وهو يبكي. قنينة الماء التي جلبها لها بعد فوات الأوان تبرّعَ بها لرجل مسن متهالك بالقرب من جثة أمّه. كان على وشك الموت من العطش هو أيضاً.

في مساء اليوم التالي، رجع قطيع الماعز راكضاً باتجاه الناس المرابطين على الجبل كأنهم أرادوا أن يستبدلوا الحليب بالماء مرة أخرى. شربَ الأطفال الحليبَ وأعطوا منه لأجدادهم. فعلَ قطيع الماعز الشيء نفسه لبضعة أيام متتالية حتى صعدَ السنجاريون أخيراً صوب مزارع الفواكه والخضار ليقطفوا ويأكلوا منها. ولكن بعد وصولهم بقليل، انعدمت شهيّتهم للطعام لأنهم

حينذاك سمعوا بأنّ باقي أقربائهم الذين تأخّروا أو ظلّوا في بيوتهم قد وقعوا في الأسر. جلسوا على الأرض يبكون وقد هدّهم التعب والألم. حاولَ رجل دين أن يهدئهم فقال: ربّنا الذي بعث إلينا ذاك القطيع لينقذ أطفالنا من الجوع والعطش يعرف كيف يخلّصنا من هذه الأزمة.

بعد اسبوع من الحياة على الجبل وتحمّلهم الصعاب وبرد الليل من دون أغطية، بدأوا يتوزعون على قرى الجبل في المناطق الوعرة التي يصعب على غير الجبليين الوصول إليها. اصطحبَ عبدالله أكثر من مئة شخص معه إلى بيت خالهِ في قرية حليقي. لم تكن في البيت سوى رمزية. سألها: أين شمّو؟

لا أعرف، كلهم ذهبوا إلى بيت هيلين ولم يرجعوا، أجابت، هل سمعتَ شيئاً؟ وهل صحيح بأنّ عصابة جاءت إلى منطقتنا لتسرق البنات؟

لم تتلقَ رمزية جواباً فبدأت تولول: يا ويلي يا ويلي، لا ليلي ليل ولا نهاري نهار، إنها نهاية العالم.

جلست على الأرض تبكي وتغني غناءً جنائزياً وحولها الجمع الكبير يشاركها الغناء والبكاء. أخرجت منديلاً من جيبها ومسحت أنفها وقالت: شكراً لأنكم جئتم إلى هنا، حتى الحزن يريد صحبة. لو كان شمّو هنا لدعاكم لقطف التين من البستان. أرجوكم اقطفوا ما شئتم. سأقوم لأخبز.

أخرجتْ رمزية كل ما لديها من أكياس الطحين وبدأت تعجن.

حلّ المساء ولم يبقَ محط قدم في حليقي. ناموا في البساتين حيث الحجارة وسادتهم والحشائش فراشهم وقطع النايلون الكبيرة أغطيتهم. قال أحد القادمين الجدد الذين جاؤوا بعدهم بأيام بأنّ خليفة داعش أعلن عن جائزة لمن يتمكن من رجاله أن يصعد الجبل ويرفع علم داعش فوقه. الجائزة سبايا تُهدى له مجاناً.

ماذا تقول؟ سأل رجل مسّن، وهل صعدوا؟

لا، قصفتهم طائرة هليكوبتر، أجاب المتحدّث، لا أدري من أين جاءت الطائرة ولكنها هبطت وأخذت بعض جماعتنا من فوق الجبل. انتظرَ الآخرون أن تعود الطائرة وتأخذهم كذلك ولكنها طارت ولم ترجع.

لا يمكن أن نظل هنا طويلاً، قال أحد الضيوف، علينا أن نغادر فالناس هنا في حليقي، الله يخليهم، تعبوا من العَجن والخَبز من أجلنا.

الضيف الجديد الذي وصل تواً إلى حليقي أخبرَ عبدالله بأن جماعة من أكراد منطقة الحسكة السورية أقاموا خيماً لاستقبال النازحين. حين صار عدد ضيوف رمزية أكثر من 120 شخصاً، جلسوا كلهم على الأرض يتباحثون عما يجب القيام به، وفي النهاية وقفوا وقفة شخص واحد فقد قرروا كلهم أن يذهبوا إلى مخيم الحسكة. بدأوا ينزلون صوب قرية آديكا على طرف الجبل. من هناك يمكنهم أن يصلوا إلى المخيم السوري خلال نصف ساعة إذا ركبوا سيارة، أو ست ساعات إذا ذهبوا مشياً على الأقدام.

بعد ساعتين من السير تعبتْ أم عبدالله ولم تستطع أن تكمل. جلست على الرصيف فجلس معها عبدالله وزوجته وأطفاله الأربعة، وقد تذكّر عبدالله تلك الجدة التي رآها ميتة من العطش على صخور الجبل.

إبنته ذات الخمس سنوات سألتهُ: هل سيأتي داعش وراءنا يا أبي؟

لا، لن ندعهم، قال عبدالله.

تنهدت بارتياح ثم سألت: إلى أين نحن ذاهبون؟

إلى أصدقائنا في سوريا، أجابها.

هل يقبلون أن نشاهد أفلام الكرتون؟

في تلك اللحظة، توقّفت سيارة أمامهم ورفع سائقها يده تحية لعبدالله. قام عبدالله وتوجّه مسرعاً إليه فذلك كان صديقه صالح تاجر التين. حين عرفَ صالح مقصدهم تبرّع أن يوصلهم. لم تكفِ السيارة لهم جميعاً فصعد عبدالله وابنه الكبير في بدن السيارة الخلفي.

كان الطريق مزدحماً جداً بقوافل من ناس ودجاج وقطط وكلاب وحمير وجِمال وأغنام. أحنى عبدالله رأسه خَجَلاً لأنه رأى بعضاً من أقاربه يسيرون ولم يستطع أن يساعدهم فعوائلهم كبيرة وتلك ليست سيارته.

ساعتان ولم يصلوا بسبب الإزدحام. صالح أخذَ عبدالله جانباً وقال بأنّه تلقى تواً مكالمة من زوجته إذ أخبرته بأنّ جيرانهم كلهم خرجوا من بيوتهم وأنها والأطفال سيموتون من الخوف لأنهم سمعوا بأن داعش في الطريق إلى منطقتهم.

إذهب إليهم يا صالح واخرجوا كلكم فوراً، قال عبدالله.

أنا آسف لأني أترككم هنا، قال صالح وهو ينظر إلى والدة عبدالله.

صرنا قريبين جداً من المكان، قال عبدالله، ألف شكر لك.

على الحدود السورية، استقبلهم أكراد سوريّون بشاحنات كبيرة نقلوهم بها إلى مخيم روش. كان الجو عاصفاً بالعجاج فاستحال المطر طيناً فوقهم. خيّروهم بين البقاء في المخيم أو إرجاعهم بالسيارات إلى العراق وتحديداً شرق دجلة لأنّ غرب دجلة صار تحت حكم داعش. أغلبهم اختاروا الرجوع إلى العراق ومنهم عبدالله وعائلته فقد كانوا من بين الذين أوصلوهم إلى دهوك. سكنوا في هيكل بناية كبيرة من ثلاثة طوابق تبرّع بها شخص من المنطقة للنازحين.

عبدالله وعائلته وما يقارب 80 نازحاً آخر كانوا يسكنون في تلك البناية حينما ظهرَ لهم قطّو في الاسبوع الثاني من أيلول 2014، هارباً من الأسر. يتجمع النازحون في تلك البناية عادة على السطح لاستنشاق الهواء وتبادل الأخبار. الآن التفّوا حول قطّو يسألونه بلهفة عن أخبار باقي الأسرى ومَن منهم استطاع أن يهرب معه.

بعد شهر، كانوا متجمعين على سطح البناية حول عبدالله هذه المرة فقد رأى على شاشة تلفونه صورة سبية معروضة للبيع أونلاين. جمدَ الدم في

عروق قطّو لأن تلك كانت أمينة. تحت صورتها مكتوب رقم تلفون المالك في الرقة. ضربَ قطو على رأسه بيديه وصار يصرخ بكلمات غير مفهومة.

عندي صديق في الرقة، قال عبدالله، دعني أطلب منه المساعدة.

إتّصلَ عبدالله بصديقه السوري وسأله إذا كان بإمكانه شراء سبية من داعش وإرجاعها إلى أهلها في العراق.

تقصد تهريبها؟ سأله صديقه بنبرة تنم عن قلق.

نعم.

صمتَ صديقه قليلاً ثم قال: أعرف واحداً من مهرّبي السجائر في مناطق داعش فأولئك يتعاملون مع الخطر وربما يستطيعون مساعدتك.

أعطى الرقم لعبدالله فاتصلَ به على الفور:

مرحبا، إسمي عبدالله شريم. حصلتُ على رقمك من صابر أبو حسين.

أبو حسين على راسي.

أحتاج مساعدتك في قضية تهريب.

كم باكيت سجائر تحتاج؟

بالأول قل لي، أنت متأكد بإمكانك أن تعبر حواجز السيطرة بأمان؟

أنا أعرف شغلي. لا تقلق من هذه الناحية.

ما أحتاجه منك مهم جداً. أهم من السجائر.

ما هو؟

هل بإمكانك أن تهرّب امرأة؟

مرّت فترة صمت ولكن الرجل لم يقل لا، فأضاف عبدالله: ستتلقى ضعف الأجر مني ومن الله.

أين هي؟

في الرقة وعندي تلفون مالكها.

الرقة بالخط الأحمر ولكن لن أردّ شخصاً من طرف أبو حسين.

شكراً. دقيقة، لا أعرف اسمك.

يسمونني محشّش.

جمعَ عبدالله الناسَ حوله وقال: نحتاج أن نجمع مالاً لكي ندفع للمهرّبين ونجلب بناتنا. فلنتصل جميعاً بمعارفنا لننشئ صندوقاً لدعم المخطوفات.

وصلت طلباتُ عبدالله والأهالي بحاجتهم للمساعدة إلى أسماع الأمراء الإيزيديين فهبّوا للنجدة. تبرّعوا من جيوبهم في البداية وبعد أن كثرت التكاليف اتّصلوا بالحكومة المحلية في منطقتهم لتتولى تلك المهمة عنهم. لذلك تمّ افتتاح مكتب شؤون المختطَفين. وفي نهاية تشرين الثاني 2014، عيّنوا موظفين يوثّقون أقوال الناجين في ملفات خاصة وينسّقون لتعويض تكاليف إنقاذ الأسيرات.

ارتدى عبدالله معطفه وصعد إلى سطح البناية فقد أحس بحاجته إلى الهواء الطلق بالرغم من برودة الجو في تلك الليلة الأولى من 2015. وقفَ عند سياج السطح يتأمل غروب الشمس المائل إلى الحُمرة، وبعد دقائق جاء قطّو ووقف بجانبه. لم يقل شيئاً ولكن نظرته المنكسرة جعلت عبدالله يخمّن أن به حاجة ماسة إلى سماع شيء جديد عن أمينة.

اتصلَ عبدالله بمحشّش وسأله: هل من خبر عن المرأة الأسيرة؟

شريكي متنكّر كداعش وهو الآن يراقب الوضع لكي يجد أفضل طريقة لإنقاذها.

إسمع يا محشّش، قال عبدالله، داعش سرقوا منا آلاف النساء ومن بينهن قريباتي وأنا أريد أن أعطيك مهمة كبيرة. هل أنت أهل لها؟

من العار أن تشك في واحد خريج سجون مثلي.

لماذا كنتَ في السجن؟ ارتكبت جريمة؟ سأله عبدالله.

نعم. قتلتُ الجوع.

تقصد سرقتَ مالاً؟

لا. أنا عملت مشكلة لكي أدخل السجن.

لماذا؟

في السجن يعطون طعاماً. كنتُ جائعاً.

كم بقيتَ هناك؟

طردوني بعد بضعة أيام لذلك كان عليَّ أن أختلق مشكلة جديدة. ولكني وقعتُ في الحب ولم أرغب بعد ذلك أن أذهب إلى السجن. ولكن خراء داعش وسيطرتهم على حياتنا شيء غير طبيعي. لم أسيطر على نفسي وقلتُ لأحدهم ما بفكري فوقعتُ في مشكلة مرة أخرى. حبيبتي ساعدتني من خلال قريبها المحامي. بالمناسبة، هو يشتغل في محكمة داعش ويعرف قوانينهم جيداً ولو يكرههم. يمكن يفيدك جداً بتهريب النساء.

عظيم، قال عبدالله، مارأيك أن نعمل شبكة لإنقاذ المخطوفات؟

دعني أفكّر في هذا. هو عمل خطير.

أخطر بكثير من تهريب السجائر؟

أعرف. السجائر مجازفة أيضاً.

ألا يمكن تهريب النساء بدل تهريب السجائر؟

سأسأل الآخرين من جماعتي الذين أثق بهم وأعلمك. مثلاً أحد المهرّبين هو عامل نفايات راتبه مئة دولار في الشهر وهو يتلقى مئتي دولار حينما يهرّب

السجائر. زوجته تخبئها بملابسها لأنهم لا يفتشون النساء المسلمات. وأنا أستأجرت بيتاً أخبيء فيه السجائر وبإمكاني استخدامه لإخفاء الأسيرات.

ممتاز، نحن ندفع لهُم أكثر مقابل المساعدة في تهريب أسيراتنا. يوافقون؟ سأله عبدالله.

أتوقّع ذلك، أجاب محشّش، ولكن تظل عندنا مصاريف أخرى. داعش يسمحون للنساء بالتزاور وبهذا أتخيّل أن تتمكن المهرّبة من ابتكار طريقة لزيارة الأسيرة والاتفاق معها لتوصيلها إلى أحد سواقنا ومن هناك إلى مكان آمن وبعدها شخص آخر يأخذها إلى الحدود. كل واحد من أولئك سيطلب أجراً.

طبعاً طبعاً، قال عبدالله، أنا أدفع المصاريف وحين تصل إلينا الناجية يعوّضني مكتب شؤون المختطَفين. هم لا يعطون فلساً قبل أن ترجع المخطوفة إلى هنا لذلك إذا فشلت عملية الإنقاذ معناه أن يتحمّل أهلها تلك التكاليف من جيوبهم. علينا أن نتجنّب ذلك بقدر المستطاع.

عملنا لا يخلو من مجازفة، قال محشّش، ولكن هذه هي الحياة.

إبن داعش

كان محشّش قد اتفقَ مع مُهرّبة بأن توزع خبزاً كصَدَقة على بيوت الشارع الذي فيه أمينة، وحين تسنح الفرصة للإنفراد بأمينة، تعرض عليها الهرب بأن توصلها إلى سائق يكون في انتظارها. تمّت الخطة بنجاح وقد ناولها السائق تلفونه لتتحدّث مع عبدالله وشرحَ لها باقي تفاصيل الخطة. أوصاها عبدالله بأن تحذر من المراقبين فإذا رأت جماعة داعش يجب أن تهرب منهم وتدّعي أنها ضائعة.

ولكن بدلاً من ذلك، هربت أمينة من المهرّبين جماعة محشّش ورجعت إلى داعش. من حسن حظها لم يكن مالكها قد عاد بعد إلى البيت حين وصلتْ البيت تلك الليلة فلم يعرف بأنها كانت قد خرجت.

آخر ما كان يتوقّعه عبدالله أن تهرب أمينة من المهرّبين ولكن ذلك هو ما حدث. بعد كل المخاطر التي مرّت بها ومرّ بها المهرّبون أنفسهم من أجل إيصالها إلى البيت الآمن، عادت إلى داعش.

هذا غير معقول يا محشّش، قال عبدالله حين تلقى المكالمة.

والله، قال محشّش، رجعتْ من حيث أتتْ.

كيف عرفتَ ذلك؟

تركناها ليلة البارحة في البيت الآمن على أساس أن نأخذها اليوم إلى الحدود. يبدو أنها هربت ما إن تركناها. تصوّرنا في البداية بأنّ شرطة داعش عثروا عليها ولكن اتصلتْ بي المهرّبة لتبلغني بأنها رأت أمينة راجعة إلى بيت داعش. دخلت المهرّبة وناولتها الخبز مرة أخرى ولكن أمينة تجنبّت النظر إليها.

ليتها سألت أمينة لماذا فعلتْ ذلك، قال عبدالله، هي حرّة إن أرادت أن تبقى هناك ولكن أريد أن أعرف لماذا.

كاد قطّو أن يُجَن حين سمع بذلك. فبعد عذاب الإنتظار والإحساس بالإهانة ورجال أشكال ألوان يغتصبون زوجته كل يوم وبعد أن جاءت الفرصة لتخليصها منهم، تعود هي بنفسها إليهم. المسألة الثانية التي أقلقته أنه سمع بأنها كانت تحمل معها طفلاً حديث الولادة.

في ذلك اليوم نفسه منتصف كانون الثاني 2015، استعادَ قطّو أمَّه نسيمة وابنتَه أحلام اللتين عادتا من الأسر في باص المعوّقين وكبار السن. كان سائق الباص الداعشي قد أنزلهم عند حدود موصل - كركوك وغادرَ تلك الحدود الفاصلة بين داعش وحكومة كردستان. بعد أن نزلوا من الباص، أكملوا سيراً على الأقدام وما أن عبروا إلى الجانب الآمن من الحدود حتى تهالكوا على الأرض غير قادرين على النهوض. كان أفراد من السلطة الكردية في انتظارهم مع باص واقف بالقرب من المفرزة لينقل الكبار والمعوقين إلى قاعة استراحة في دهوك.

كان الإنهاك بادياً على الناس وهم يحاولون النهوض من الأرض، وكان هناك على مقربة منهم على الرصيف باعة متجولون بعرباتهم الصغيرة. حين رأوا الناس يجاهدون للوصول إلى الباص، تقدّموا منهم لينقلوهم بعرباتهم إلى باب الباص. الولد الذي نقلَ نسيمة بعربته كان قد أزاح أكياس الزبيب المفتوحة إلى الجانب ليفسح مجالاً لنسيمة. أنزل مقدمة العربة إلى الأرض فجلست نسيمة. دفعها إلى الباص، وقبل أن تنزل من العربة، أخذت حفنة من الزبيب وووضعتها في جيبها.

على أرض القاعة حيث جلسوا، أخرجت نسيمة حبات الزبيب من جيبها وأعطتها لأحلام. ثم جاء صحفيون وقاموا بتصويرهم لينشروا ويذيعوا خبر وصول هذه الوجبة من الأسرى فيأتي أقاربهم للقائهم. اقترب أحد الصحفيين من امرأة كبيرة السن وسألها عن سبب بكائها. أخبرته بأنهم في الحدود أخذوا

منها بطانيتها ورموها في كيس القمامة وهي كانت تستعمل تلك البطانية طوال فترة الأسر والآن لا تستطيع النوم من دون بطانية.

لا تهتمي يا خالة، سأجلب لكِ بطانية جديدة، وعدها الصحفي.

حين وصلت أخبار القادمين الجدد من الأسر إلى أسماع الناس في دهوك، ذهبَ عبدالله بصحبة قطّو إلى القاعة. لمحَ قطو أمه وابنته فأسرعَ إليهما وجلس معهما على الأرض يبكي. كان شمّو واقفاً متكئاً على الحائط وحين رأى عبدالله قادماً نحوه، فتحَ ذراعيه على وسعهما له مثلما كان يفعل في القرية. سأله عبدالله عن باقي العائلة فأخرج شمّو من تحت قميصه قصاصة القماش المكتوب عليها رقم التلفون وقال: هذا رقمهم في بيت داعش.

في تلك اللحظة، رَجُلٌ جالس على الأرض أمسك ساق عبدالله قائلاً «آه يا إبني، عدتَ أخيراً؟ لا أصدق عيني.» خفضَ عبدالله نظرةُ إلى ذلك الرجل ولم يعرفه، ومع ذلك انحنى وقبّل يده المرتجفة الممدودة والتي تبرز منها الأوردة. ابتسمَ له الرجل وقال «خذني يا عيدو إلى البيت. عبالي قتلوك. هذا أسعد يوم في حياتي لأنك حي.»

نظرَ عبدالله حواليه حائراً لا يدري ماذا يفعل. وفي النهاية اضطرَّ أن يترك الرجلَ ولو بقلب موجوع.

أرادَ عبدالله أن يوصل شمّو إلى بيته في حليقي ولكن الطريق إلى الجبل لم يكن آمناً فهناك مناطق بقرب الجبل تحت سيطرة داعش. لكن شمّو أخبره بأنهم سيوصلونه إلى بيته بالهليكوبتر. «رجل من الأمن سجّلَ اسمي وخيّرني بين السكن في مخيم النازحين في دهوك أو الذهاب إلى زاخو بالسيارة ومن هناك إلى حليقي بطائرة هليكوبتر،» قال شمّو.

ستكون أول مرة لك بالطائرة، أليس كذلك؟ سأله عبدالله.

أنا أخاف من الطائرة ولكني سأصعدها، قال شمّو، مضى عليّ وقت طويل خارج البيت ورمزية أكيد قلقة.

غادر قطو القاعة مع أمه وابنته إلى المخيم الذي سيسكنون فيه ثلاثتهم. لكن قطو يمضي معظم النهارات في البناية التي يسكن فيها عبدالله ويعود إلى الخيمة ليلاً فقط. هكذا ظلّ يتابع أخبار أمينة من عبدالله. سمعَ منه بأنّ المهرّبة تمكّنت مرة أخرى من إيجاد فرصة لتستفرد بأمينة وتخبرها أنّ شخصاً يريد أن يتحدّث معها بالتلفون.

ذلك كان عبد الله على الخط. قال لها: أردتُ أن أعرف لماذا رجعتِ.

ألم تقل لي إذا رأيتِ جماعة داعش أهربي منهم؟ سألته أمينة.

نعم.

السائق أخذني إلى بيت كلهم داعش بلحاهم الطويلة وملابسهم وحتى على جدار بيتهم عَلَم داعش وشعاراتهم، قالت أمينة.

أولئك ليسوا داعش. هم متنكّرون كداعش ليتمكّنوا من إنقاذك.

لم أعرف ذلك.

إذن علينا أن نهرّبك مرة أخرى.

نعم أرجوك.

هذه المرة لا تهربي مهما كانت لحاهم طويلة.

ولكن أريد أن أنتظر قليلاً حتى أعثر على أحلام لترجع معي. سمعتُ بأنهم قتلوا قطّو وأمّه وباعوا أحلام لأحدهم.

لا. كلهم هنا في دهوك، قال عبدالله، وهم في انتظاركِ.

الله عليك؟ أنت تقول الحقيقة؟

صدّقيني.

يا إلهي! هذا أحلى خبر تلقيّته في حياتي. متى تأتي أم الخبز مرة أخرى؟ سألتْه.

هذه الجمعة، أجابها عبدالله.

مكثت أمينة أربعة أيام في بيت التهريب الآمن ذاك نفسه لحين تهدأ بلبلة البحث عنها من قِبل شرطة داعش. عليها بعد ذلك أن تسير إلى الحدود برفقة محشّش فهناك ألغام مزروعة في الطريق ويجب تجنّبها والإلتفاف حولها. سارت أمينة ببطء وهي تحمل وليدها فاضطر محشّش أن يبطئ أيضاً، ولكن حين سمعوا أصوات إطلاقات نارية خلفهم، حملَ محشّش الولدَ عن أمينة وركض به وهو يشير إليها لتركض وراءه من دون الاهتمام بالألغام. حين هدأ صوت الرصاص، كانوا في نهاية الطريق الخَطِر. توقّفَ محشّش وقال لأمينة وهو يناولها ابنها: بالحظ وحده وصلنا.

بعث محشّش رسالة صوتية لعبدالله يبلغه بآخر التفاصيل.

أنت محشّش فعلاً، قال عبدالله، يعني بجد ركضتم في ذلك الطريق نفسه الذي من أجل تجنّبه رافقتَها؟

عندما سمعتُ صوت الرصاص خلفنا نسيتُ الألغام أمامنا، قال محشّش.

ما أن عبرتْ أمينة الحدود العراقية حتى رأت على التلة جمعاً كبيراً من الناس في استقبالها. إبنتها أحلام كانت أول مَن حضنَها. قالت: مَن هذا الطفل يا أمي؟

أخوكِ. إسمه آدم، أجابتها أمينة وهي لاتزال تبكي.

وقف قطّو خلف أحلام وقال: هذا إبن داعش؟

لم تجب أمينة.

هذا الولد لن يدخل بيتي، قال قطّو.

حضنتْها نسيمة واستدارت نحو قطّو قائلة: يا إبني، دع زوجتك ترتاح أولاً والصباح رباح. المسكينة وجهها أصفر كُركُم.

ذهبت أمينة وفي حضنها وليدها آدم في سيارة أشخاص من منظّمة إنسانية أوصلوها إلى مخيم الناجين في دهوك. أعطوها خيمة وبعض المعلبات ومسحوق الحليب للأطفال الرضّع. وقبل غياب الشمس بقليل، خرجت أحلام من الخيمة ووجدت قطّو واقفاً في الخارج. حين أخبرت أمها، وضعت أمينة طفلها في حضن أحلام وخرجت إلى قطّو. نظرت إليه بعينين دامعتين وهو جامد لا يتحرك. حضنتْهُ فبكى.

كل ماحدث معي في الأسر لم يكن من اختياري، قالت أمينة، وهذا الولد لا يعرف شيئاً في هذا العالم.

أعرف يا أمينة، قال قطّو، ليس له ذنب ولكن كيف يمكنني أن أعيش مع كائن يذكّرني كل لحظة بمن اغتصبكِ وفعل بنا كل ما فعل؟

هذا صعب علي أيضاً. ذكرى أبيه تقزّزني. ولكن ماذا أفعل بطفل بريء؟

لستُ أنا وحدي، قال قطّو، مجتمعنا كله لن يتقبّله هنا.

ظلت أمينة صامتة.

لن ننسى أبداً ما فعلوه بنا، أضاف قطّو، أما أن نربّي أبناءهم فهذا كثير جداً.

بكت أمينة ولم تقل شيئاً.

مثلما تعرفين، آدم لن يصبح إيزيدياً أبداً، قال قطّو، رجال الدين لن يغيّروا القوانين من أجله.

رجال الدين ليسوا أمهات ولن يفهموا مشاعري، قالت أمينة عبر الدموع.

تعالي معي غداً إلى محكمة الأحوال الشخصية، قال قطّو، إسأليهم عن تسجيل الولد ولنرى ماذا يقولون.

تعدني بأن تأتي معي وتطلب منهم تسجيل آدم؟

لستُ قطّو إبن نسيمة إذا لم أفِ بوعدي.

في صباح اليوم التالي، وقفت أمينة بجانب قطو وهي تحمل آدم أمام القاضي، وطلبت تسجيله رسمياً كإبن لقطّو.

آدم يتبع أباه ولذلك لا يمكن تسجيله إلا مسلماً وليس إبناً إيزيدياً لقطّو. الإيزيدي هو كذلك بالولادة فقط، قال القاضي.

إذن نسميه بإسمي أنا، قالت أمينة.

لم يجب القاضي.

آدم أمينة، قالت.

هذا لا يجوز، قال القاضي.

هذا زوجي إسمه الرسمي قطّو نسيمة. نسيمة هي أمّه. لماذا يجوز قطّو نسيمة ولا يجوز آدم أمينة؟

لازم حدثَ هذا بالغلط، قال القاضي.

ماذا علينا أن نفعل الآن؟ قطّو سأل القاضي.

يجب أخذ الولد إلى دار الأيتام وبإمكانكما زيارته متى شئتما، قال القاضي.

أمينة سألت قطّو وهما يخرجان من البناية: وإذا لم ننفّذ أمر القاضي؟

دعينا نأخذه إلى هناك ولو مؤقتاً، وبعدها أتوسّط عند معارفي المسلمين كي يأخذه أحدهم ويرجعه لكِ، قال قطّو.

هل يفعلوا ذلك؟ سألت.

يشتري معارفنا المسلمون الأسيرات من داعش ويرجعونهن إلينا فلماذا لا يمكن أن يفعلوا ذلك لآدم ويرجعوه لكِ؟

إذا كان الأمر كذلك فلنأخذه إلى المركز، قالت أمينة.

طوال الطريق من مركز الأيتام إلى المخيم وأمينة لم تكف عن البكاء.

هل ستأتي معي غداً لأراه؟ سألت زوجها.

نعم آتي معكِ، أجاب قطّو.

أنا أحبك، قالت.

عانقها قطّو بينما أكملت بكاءها على كتفه.

أنا محظوظة لأنهم لم يقتلوك، قالت أمينة، قتلوا الكثير من رجالنا.

أنا هربت. أطلقوا النار وراءنا وقتلوا قسماً من الذين كانوا معي، قال قطّو ورفع حافة سرواله ليريها أثر الإصابة على ساقه.

آه، آثار جروحهم التي ستبقى. ماذا فعلنا لهم ليؤذونا هكذا؟ سألت أمينة.

حتى الناس الذين من دينهم متعجبون من أفعالهم، قال قطّو، لن أنسى أبداً تلك العائلة التي ساعدتني وأنا بين الحياة والموت. كنت قد ركضتُ بساقي الجريحة وفقدتُ الكثير من الدم وكل مرة أسقط على الأرض حتى طرقتُ باب بيت رأيته أمامي. طلبتُ ماء، قدموا لي ماء وطعاماً ومأوى وأخذوني إلى طبيب من أقاربهم. بقيتُ عندهم ثلاثة أسابيع، وفوق هذا تأسّفوا وقالوا «داعش يشوّهون سمعتنا نحن المسلمين.»

مرِضت نسيمة في اليوم التالي واشتدّت آلام بطنها وهي تتقيأ. أخذها قطّو إلى عيادة طبية، ولذلك تأجّلت الزيارة الموعودة إلى دار الأيتام يومين. طلبت أحلام أن تذهب معهما لرؤية آدم فذهب ثلاثتهم إلى المركز. وهناك صُدمت أمينة لأنهم أخبروها بأنّ عائلة سورية تبنّت آدم وغادرت به تواً.

كيف حدث هذا خلال يومين فقط؟ صرخت أمينة.

الذكور مرغوبون أكثر من الإناث فيأخذونهم بسرعة، قالت المسؤولة.

مَن أخذه؟ كيف أعرف بأنهم سيعتنون به فعلاً؟ سألت أمينة.

زوج وزوجة بلا أطفال يسكنان في دير الزور. هذا هو العنوان، قالت المسؤولة والتقطت قلماً لتكتب العنوان لأمينة.

سأذهب إلى دير الزور، قالت أمينة.

آتي معكِ، قال قطّو.

وأنا أيضاً، قالت أحلام.

لا، أنا أذهب وحدي، قالت أمينة، سأرتدي النقاب فلا يعرفونني. أنتَ لا تستطيع أن ترتدي النقاب يا قطّو.

لكن أنا أستطيع، قالت أحلام.

لا يا حبيبتي، أنت تظلين هنا مع بابا حتى أعود، قالت أمينة.

تضايقَ قطّو من قرار أمينة ولكنه يعرف بأنها عنيدة ولن تنفع أية محاولة من جانبه لثنيها عن قرارها.

هذا رقمي الجديد، قال قطّو.

في المخيم، حين علمت نسيمة بأنّ أمينة غادرت إلى دير الزور في سوريا، سألت قطّو، ممسكة يد أحلام: كيف تركتَها تذهب هكذا؟

لم يجبها قطّو.

يومان مرا ولا خبر من أمينة. «قلبي غير مرتاح،» أضافت نسيمة.

رنّ تلفوني عدة مرات وانقطع، قال قطّو وهو واقف أمام خيمتهم، خابرتُ الرقم الذي ظهر على الشاشة ولم أسمع رداً.

رنّ تلفونه مرة أخرى.

ها هو الرقم نفسه، أضاف قطّو وهو يضع التلفون على أذنه.

أنت قريب لأمينة؟ سأله الشخص على الطرف الآخر.

أنا زوجها.

هي في الإنعاش وقد وجدنا معها رقمك.

لماذا؟ مابها؟

تعرّضت منطقة دير الزور للقصف. سائق السيارة مات وهي جريحة.

أي مستشفى؟

مستشفى دير الزور.

ماما مريضة؟ سألته أحلام.

نعم، أجاب قطّو محاولاً أن يتمالك نفسه.

تجنّبَ نظرة أمّه المتسائلة وغادر ليبكي بعيداً عنهما.

إتصلَ بقريب له يعمل سائقاً وسأله إذا كان مستعداً أن يوصله إلى دير الزور.

إمهلني نصف ساعة وأنا أخبرك، قال قريب قطو.

كان قطّو ينتظر في الشارع المقابل لمخيم الناجين. كان المطر يهطل غزيراً حين رنّ تلفونه في ذلك اليوم الثالث من شباط 2015. ظنّ بأنه قريبه السائق يعاود الاتصال به. لكنها كانت ممرضة علـى الخط تبلغه بأنّ أمينة ماتت متأثرة بجراحها. كلماتها وقعت على أذن قطّو كالصاعقة. لم يقل كلمة ولم يكن بالإمكان تمييز دموعه من قطرات المطر على وجهه.

كلّما تُغمض عينيها

لاحظتْ ليلى بأنّ هيلين تغمض عينيها لفترات طويلة من دون أن تكون نائمة. تفعل ذلك عدة مرات خلال النهار وهي جالسة. تساءلت ليلى مع نفسها فيما إذا كانت هيلين تفعل ذلك لأنها تصلّي في قلبها. لم تشأ أن تقاطعها ولكن لو سألتْها لأجابتها هيلين بأنها تفعل ذلك لأنها ترى مفقوديها كلما تغمض عينيها. هي تذهب إليهم بفكرها لأنهم لا يأتون إليها. تقتطع من يومها وقتاً تختلي فيه معهم فقط. تُبقي عينيها مغمضتين بقدر المستطاع لأنها تريد أن تراهم لأطول فترة ممكنة. أحياناً يتحدثون إليها وأحياناً ينظرون إليها دونما كلام. إلياس يقول لها «أحبكِ.» تسأله «متى تعود؟» ينظر إليها نظرته العميقة ويختفي بينما يسيل الدمع على جانبي عينيها المغلقتين.

إبنتها لا تغادر عينيها بسرعة مثلما يفعل إلياس ولكن ميادة تتصرّف وكأنها لا تعرف أمّها. هيلين تفتح ذراعيها بأن تعالي ولكنّ الطفلة لا تستجيب، فتقف لحظة ثم تخطو إلى طرف الطاولة بلا مبالاة. تتعثّر كمن تعلّم المشي تواً، وتحت قدميها الصغيرتين الحافيتين زخارف أرضية مربّعة متداخلة حول رسومات لأزهار برية.

أمينة؟ إين أنتِ؟ تسألها هيلين ما أن تراها في عينيها. أمينة بدلاً من أن تجيب تسألها «لماذا مازلتِ هناك؟» هيلين تشكو لها بأنّ يحيى وياسر تغيّرا كثيراً ولا يريدان أن يرجعا معها إلى البيت، وأنّها مع ذلك لم تفقد الأمل بأن تستعيدهما. أمينة كعادتها تستمع جيّداً إلى هيلين وتنتظر منها أن تخبرها كل شيء. ولكن هيلين تريد أن تعرف أولاً أين أمينة. ولأنّ أمينة لا تجيب، تُغيّر هيلين صيغة السؤال وتقول «ترجعين معنا؟» أمينة تهزّ رأسها بأن لا، وتبتعد

عن عينَي هيلين. تستدعيها هيلين مرة أخرى ولكن أمينة لا تأتي، لذلك تزعل منها هيلين.

ذبذبة التلفون المخبأ بداخل ثيابها تجعلها تفتح عينيها لتقرأ الرسالة:

مرحبا، معكم عبدالله. مَن معي؟

مرحبا إبن عمتي العزيز. معك هيلين.

أهلكِ يسألون متى بإمكانكم أن ترجعوا؟

كنا في انتظار يحيى وياسر ولكنهما رفضا الرجوع معي.

حاولي أن تكسبيهما بأي طريقة.

معنا هنا بنت اسمها ليلى وعائلتها أسيرة في الموصل. هل يمكن إنقاذ عائلتها أيضاً؟

أين في الموصل؟

في بيت من طابقين وبرأس شارعه دكان فيه دبس وراشي وهو قريب من قاعة أعراس كلكسي.

أي تفصيل آخر قد يساعدنا؟

المرأة خرساء إسمها غزال ومعها ولد وبنت. سجّانهم يسمّونه أمير الصحراء وكان بالأصل خياطاً.

دخل عبدالله إلى موقع مول الدولة الإسلامية الذي يبيع كل شيء من الإبرة إلى النساء لكنه لم يعثر على غزال هناك. ولم تعثر عليها شبكة المهرّبين ولا على أي أثر لأمير الصحراء في الموصل.

ربما أمير الصحراء هذا باع غزال لشخص آخر؟ عبدالله سأل محشّش.

اصبر عليّ. رأس الخيط عند صديقنا فوّاز، أجابه محشّش.

فوّاز عنده محل خياطة في الموصل ومنذ أن تولى مهمة البحث عن أمير الصحراء وهو يسأل كل مَن يمر على محلّه السؤال نفسه: هل تعرف أمير الصحراء الذي كان خياطاً أيضاً؟ هو اشترى مني أقمشة وبسبب القصف على المنطقة لم يأتِ لاستلامها وأنا أريد أن أُرجع إليه فلوسه لأني أشتغل على باب الله ولا آكل المال الحرام.

بعد عدد من الأجوبة السلبية التي تلقّاها من الزبائن، في الإسبوع الثالث أحدهم قال «نعم، أنا أعرفه.»

بالله عليك أعطني عنوانه لأبعث إليه حقه من المال، قال فواز للرجل.

بيته في الرقة مقابل حديقة الرشيد بقرب المستشفى الوطني، قال الرجل.

راقب المهرّبون تلك المنطقة حتى رأوا أمير الصحراء وتبعوه وهو يدخل بيته. كتب عبدالله لهيلين: غزال الآن في الرقة وسنحاول تخليصها من أمير الصحراء. وأنتم ما أخباركم؟

أجابت هيلين: نحن مستعدون للهرب في الجمعة الأخيرة من هذا الشهر.

كم عددكم؟

ثلاثة، أنا وآزاد وليلى.

الجمعة الأخيرة من شهر حزيران هو الموعد الذي حدّدوه لهروبهم لأنه اليوم الذي يلي زيارة يحيى وياسر المقبلة وبذلك يرونهما للمرة الأخيرة بعد محاولات هيلين الفاشلة لإقناعهما بأن يرجعا معهم.

قبل تلك الجمعة بأربعة أيام، سمع آزاد منبّه سيارة علي منذ الفجر. خرج إليه بدشداشة النوم متذمّراً بداخله من قدومه المبكر.

سأبدّل ملابسي وآتي، قال آزاد لعلي وهو يفرك عينيه.

عندك دقيقتان فقط لتفعل ذلك. شغل طاريء، قال علي.

ولكن بعد ذلك، علي ترك آزاد في مكتبه وخرج من دون أن يعطيه مهمّة محدّدة. احتار آزاد فقد مرّت ساعات طوال ولم يرجع علي ولم يبعث إليه أي توجيهات بما عليه أن يفعله. حلّ المساء وفكّر آزاد بأنّ علي ربما نسيه في المكتب. كان على وشك أن يعود إلى البيت حين رأى علي داخلاً أخيراً إلى المكتب.

تصوّرتُ بأنك نسيتني، قال آزاد.

لم أنسكَ يا آزاد ولأني لم أنسكَ جلبتكَ إلى هنا لأنقذ حياتك فأنت إنسان طيب وأنا أحبك، قال علي.

إنتظرَ آزاد ليوضّح له علي مغزى كلامه.

جاءنا أمر بقتل كل الرجال الأسرى اليوم وإبقاء النساء فقط، قال علي، لذلك أريد أن أخبئك في منطقة خارج هذا المكان. إذا عرف أحدهم بوجودك هنا سيقتلونك ويقتلونني.

صُدم آزاد ولم يعرف ماذا يقول. فاجأهُ علي بمجازفته بنفسه من أجل أن يستثنيه من القتل ولكنه شعرَ أيضاً بدمه يغلي من الغضب لأن في نية أعضاء التنظيم قتل جماعته وأصدقائه واحداً واحداً. وكيف يمكنه أن يذهب مع علي ويترك هيلين وليلى لوحدهما؟

يجب أن تختبئ هنا لحينما أدبّر إبعادك عن المنطقة، أضاف علي.

ولكن لا يمكن عبور مراكز السيطرة من دون باج الدولة، أليس كذلك؟ قال آزاد.

لم تجلب الباج؟

لا.

إدعى آزاد بأنه لم يجلب الباج لكي يتمكّن بحجته أن يرجع إلى البيت ليخبر هيلين بهذه التطورات.

من الخطورة أن تذهب إلى البيت لكن دعني أستكشف الوضع، قال علي وبدأ باتصالات هاتفية.

بعد دقائق، قال لآزاد: يجب أن تختبئ هنا حتى الصباح لأن عندي أمر مراجعة غداً في ولاية الموصل. سآخذك معي وأوصلك إلى نقطة قريبة من كركوك. ومن هناك تدبّر أمرك. لكن يجب جلب الباج أولاً. الليلة أوصلك إلى البيت لتجلب الباج بسرعة.

شعر آزاد بصداع شديد وهو يحاول أن يتّخذ القرار بأن يخبر علي بموضوع هيلين أم لا. في النهاية قال: أنت يا علي ساعدتني في الكثير من المواقف وأنا أعرف خطورة هذا الذي تفعله من أجلي الآن ولكن هناك شيء أريد أن أخبرك به. أختي موجودة الآن في البيت من أجل أن تلتقي بولديها حينما يأتيان من المعسكر في أثناء الإجازة الشهرية. هل يمكن أن يأتيا لزيارتها حتى إذا غادرتُ معك؟

سأخبر أبو سفيان ليجلبهما ويرجعهما كالعادة، أجاب علي.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل حين نزل آزاد من سيارة علي ودخل البيت بسرعة.

يا إلهي. أين كنتَ؟ سألتْهُ هيلين.

أخبرها آزاد بتطورات الوضع بشكل مختَصَر.

آه، إذهب بسرعة، قالت هيلين.

ستهربين مع ليلى حسب خطة عبدالله هذه الجمعة، أليس كذلك؟

نعم، أجابت هيلين.

لا تؤجلي هذه المرة لأنّ هناك احتمالاً بنقل النساء قريباً إلى منطقة أخرى، قال آزاد وخرج.

بالقرب من مركز السيطرة الأخير باتجاه كركوك، أوقف علي سيارته وقال لآزاد: إذا سألوك في السيطرة عن سبب ذهابك إلى كركوك قل بأنك تحتاج أن تشتري الأنسولين.

نزل كلاهما من السيارة وأوقف علي تاكسياً. دفع له الأجرة ليوصل آزاد إلى حدود كركوك على بعد خمسة كيلومترات. تعانقا وقد دسَّ علي مبلغاً مالياً في جيب آزاد قائلاً: قد تحتاج إلى هذا.

وقف سائق التاكسي عند الحدود الكردية وقال: هنا حدّي. لا أستطيع أن أعبر.

عبر آزاد الحدود سيراً على الأقدام. سمع عند الجانب الآخر سائقاً ينادي «دهوك، دهوك.» توجّه إليه آزاد وسأله: بكم الأجرة إلى دهوك؟

150 ألف دينار، أجاب السائق.

حسبَ آزاد المبلغ الذي وضعه علي في جيبه وقال للسائق: عندي 100 ألف دينار فقط.

ماشي، إصعد، قال السائق.

في مركز السيطرة الكردية، أمرَ المفتّش آزاد أن يذهب إلى غرفة خلفية للاستجواب.

لماذا لحيتك بهذا الطول؟ سألوه.

كنتُ أسيراً لدى داعش، أجاب آزاد.

عندك هوية؟

أخرج آزاد باج الدولة الإسلامية وقال: أخذوا مني هويتي الأصلية وأعطوني هذه.

قام المفتش بإجراء اتصالات ليتحرى عن هوية آزاد ويتأكد بأنه كان أسيراً فعلاً. طلبَ من آزاد أن يخبره قصته بالتفصيل. بعد ذلك أفرجوا عنه.

حين خرج، لم يجد السائق هناك. جلس آزاد على ناصية الطريق وهو حائر ومشوّش التفكير. أيُعقَل أن يعطيه علي الداعشي مالاً وهذا السائق الذي من جماعته يسرقهُ ويهرب؟ أم تراهُ انتظرَ طويلاً فيئسَ وغادر لأنه ظنَّ بأنّ آزاد مجرم ولذلك ألقوا القبض عليه؟ ولكن أما كان ينبغي أن يعيد له المبلغ قبل أن يغادر ما دام لم يوصله إلى المكان المتّفَق عليه؟

في خضم تساؤلاته، لمح آزاد سيارة تاكسي أمامه. تصوّر للحظة بأن السائق عاد إليه ولكن هذا سائق آخر.

تاكسي؟

صعدَ آزاد فسأله السائق: إلى أين؟

إلى بيت الأمير الإيزيدي في شيخان.

من عيوني.

تسلم عيونك.

من أين أنت؟

من قرية حليقي. عدتُ تواً من يد داعش.

بالله عليك؟ ألهذا لحيتك طويلة؟

سنة تقريباً في الأسر، قال آزاد.

توقّفَ السائق عند محل حلاقة وقال لآزاد: إحلق لحيتك على حسابي وأنا أرجع إليك بعد قليل.

رجع السائق بعد فترة قصيرة ودفع للحلاق أجرته.

فرق كبير! تبدو الآن أصغر بمئة سنة، قال السائق، وقد ابتسم له آزاد ابتسامة كبيرة.

شكراً، آه ارتحت. كانت تحكّني، قال آزاد.

قدّم له السائق سندويشة فلافل وقال: أنا أكلت واحدة وهذه لك.

كان آزاد جائعاً فعلاً فألتذَّ بأكلها.

كم صار حسابي؟ سأدفعه كله حين أصل، قال آزاد.

لن آخذ شيئاً منك، قال السائق.

كيف هذا؟ سأله آزاد.

هذا نذر، قال السائق، كانت عندي مشكلة صحية منعتني من العمل شهراً تقريباً فنذرتُ أن أشتغل ثلاثة أيام مجاناً إذا تعافيت. لذلك منذ البارحة أوصل الناس بدون أجر فإن أردتَ أوصلك غداً أيضاً. لكن بعد غد سأشتغل بأجرة.

الله يحفظك، قال آزاد.

شكراً، ويحفظ عائلتك. عندك أطفال؟ سأله السائق.

عندي طفل لم أره بعد لأني تأسرت قبل أن يولد.

يا ألله، قال السائق وهو يهز رأسه ثم عرّف بنفسه قائلاً «إسمي هوشيار. جدي السابع كان إيزيدياً. نحن الأكراد جميعنا كنا إيزيديين سابقاً وأصبحنا مسلمين بعد الغزوات. لكن بقيت لغتنا وعاداتنا التي نشترك بها معكم كما تعرف. الإيزيديون الذي اختبأوا في الجبل هم فقط الذين بقوا إيزيديين. وأنت ما اسمك؟»

آزاد. نعم سمعتُ من أقاربي بأن الجبل كان لنا بمثابة الملجأ دائماً.

أنت الآن آزاد فعلاً - حر طليق، مثلما يعنيه إسمك.

وقفت السيارة أمام بناية بيضاء اللون أمامها حديقة. قال آزاد لهوشيار: تفضل معي إلى الديوان إن أحببت أن تستريح قليلاً.

لا، شكراً. أنت من أقرباء الأمير؟

لا، هذا بيت الإيزيديين بشكل عام. لم يكن معي فلوس حين صعدتُ معك ولذلك اخترتُ هذا المكان ليدفعوا أجرتك بالنيابة عني. لكن أشكرك على كل شيء.

أهلاً بك والحمد لله على سلامتك.

في ديوان الأمير الإيزيدي، التفوا حول آزاد وهم يسمعون تفاصيل ما حدث له. جلبوا له الطعام والشاي في صالة كبيرة كل شيء فيها أبيض، الجدران والستائر والأريكات والأثاث. بعد أن أجرى أحد أعوان الأمير عدة مكالمات هاتفية، أخبرَ آزاد بأن والدهُ كان قد أُخِذَ إلى حليقي بالطائرة.

يعني أحتاج إلى طائرة الآن لأذهب إلى حليقي؟ سأل آزاد.

لا، الآن تحررت المناطق المحيطة بالجبل. نوصلك إلى الجبل بالسيارة وأنت تكمل سيراً إلى بيتكم.

شكراً. ممكن أستخدم تلفونك دقيقة؟

كتبَ آزاد رسالة هاتفية لهيلين: أنا وصلت. طمّنيني عنكِ.

ردّت عليه هيلين فوراً: أوف الحمد لله. موعدي مع المهرّب بعد غد.

في الليلة التي سبقت قدوم يحيى وياسر، لم تنم هيلين حتى الفجر إذ كانت عبثاً تحاول أن تتخيّل الحياة بدونهما. تمنّت لو كان بإمكانها تأجيل عملية

الهرب مرة أخرى. أخيراً جاء الصباح بالولدين. حاولت هيلين أن تُشبع عينيها من رؤيتهما. التزمت الصمت فلم تتحدث معهما بخصوص الهرب ولم تحاول إقناعهما بأي شيء. لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء.

لماذا تبكين؟ سألها ياسر بعد الظهر وهم جالسون في غرفة المعيشة.

لم تجب هيلين بشيء.

أين خالو آزاد؟

رجعَ وأنا أيضاً سأرجع إلى بيتي غداً. لا أعرف إذا كنتُ سأراكما مرة أخرى في هذه الحياة، قالت هيلين.

كان التعب بادياً على يحيى وياسر وكأنهما لم يناما منذ أيام. كانا شاحبَي الوجه أكثر من أي وقت مضى. حتى صوتهما بدا منكسراً وخافتاً بشكل استثنائي. صحيح أنهما خلال تلك الزيارات كانا يتصرفان بشكل لا يليق بعمرهما الصغير وكأنهما كبرا عقوداً من الزمن، ولكن ثمة شيء آخر مختلف يحيط بهما اليوم.

نحن قرّرنا أن نرجع معكِ، قال يحيى.

لم تصدّق هيلين أذنيها: هل هذا صحيح ما تقوله يا إبني؟

نحن قرّرنا هذا حتى قبل أن نصل إلى هنا، قال يحيى.

قامت هيلين وباسَتهما على رأسيهما، ثم سألت: ولكن ما الذي تغيّر؟

تبادل يحيى وياسر نظرة حزينة أخرى. أحنى ياسر رأسه متجنباً نظرتها.

ماذا حدث؟ سألت هيلين مرة أخرى.

تردّد يحيى قليلاً قبل أن يتحدث: رأينا شيئاً مروعاً في أثناء التدريب.

توقّف يحيى برهة ليستجمع أنفاسه ثم أكمل: عرضوا على الشاشة أمامنا عمليات قطع رؤوس. قالوا علينا أن نتعلّم ذلك ونقوم بتنفيذه ضد أعدائنا.

أنتَ يا يحيى كنتَ أصلاً ترتجف كلما شاهدتَ ذبح خروف في القرية، قالت هيلين، وأنا تساءلتُ مع نفسي لماذا أنتما شاحبان إلى هذه الدرجة.

كان ياسر واضعاً يديه على عينيه وكأنه يحاول أن يتجنب رؤية شيء بذهنه.

دخلت هيلين غرفة النوم. أخرجتْ الهاتف من تحت ملابسها. كتبت لعبدالله بأنّ يحيى وياسر وافقا على الرجوع معها وأنهما معروفان عند داعش فهناك خطورة تمييزهما عند المفرزة الحدودية.

كانت الخطة الأصلية أن ينتشلهم سائق في أثناء صلاة الجمعة حين يخلو الشارع من المارة إنما تغيّرت الخطة فجراً لأنّ القصف اشتدّ على تلعفر وقُصِفَ مطار تلعفر القريب من مكانهم وطال القصف عدداً من سكان تلعفر بمن فيهم عوائل داعش.

استثمر عبدالله وجماعته المهرّبون ذلك القصف بأن دبّروا خطة لإخفاء الولدين. بعثوا سيارة فوقها تابوتان لينام بداخلهما يحيى وياسر مع حبوب منوّمة يأخذان منها ليتحمّلا موتهما المؤقت. لفّوا النعش بعَلم داعش من أجل التمويه. جلس المهرّب بجانب السائق وكان متنكراً كداعش بلحيته وزيّه الأفغاني. وفي الخلف هيلين وليلى مختبئتان كالعادة بداخل النقاب. كان من المفترض ألا يتّم إيقاف شهداء الدولة الإسلامية في مراكز السيطرة، ولكن أوقفهم رجل الأمن قائلاً: مَن الشهداء؟

أجابه المهرّب: إبنا أختي قُتلا بسبب القصف والحمد لله على الشهادة في سبيل الله، وفي المقعد الخلفي أمهما وأختهما.

إنتظرْ، سآتي معكم وأساهم في دفنهما، قال رجل الأمن.

شكراً، قال المهرّب، ولكن لا نحب أن نتعبك معنا.

هذا أقل من واجب يا أخي، فقط اخبرني أي مقبرة.

مقبرة بادوش، أجاب المهرّب.

لماذا بادوش؟ توجد مقابر أقرب.

لنا فيها أقارب موتى وأنت تعرف التقاليد والأصول، أجاب المهرّب.

إذن سأتبعكم بسيارتي، قال رجل الأمن.

أبطأ السائق من سرعة السيارة بين الحين والآخر وهو يتتبع في المرآة سيارة الأمن خلفه، وكلهم يتبادلون نظرات القلق القاتل. أرادت هيلين أن تتوسّل إلى السائق ليحرف طريقه ويهرب من أنظار السيارة الأخرى، ولكن لم تقوَ حتى على الكلام. رأت بفكرها يحيى وياسر وهما يُدفنان أحياء. هل سيستمرون في العملية فينزلونهما إلى القبر وينثرون فوقهما التراب؟ سيبعدونها عن القبر لأنّ تقاليد المكان لا تسمح بأن ترى المرأةُ عملية الدفن. رأت نفسها وهي تركض إلى التابوتين غير مبالية بالتقاليد هذه المرة. ستمنعهم حتماً من قتل وَلديها. ستتوسّل إليهم أن يتركاهما وشأنهما.

كان مهرّب آخر ينتظر في مقبرة بادوش متظاهراً بأنه حفار القبور وقد أوشك أن يفقد صبره لأنه يحفرُ ويعيد الحفر ولم يصلوا بعد. إتصلَ بعبدالله وقال له: ها قد بات الترابُ ناعماً من كثرة التقليب ولم يصلوا بعد.

تأخروا لأنّ السائق اتّبعَ أطول طريق ممكن للوصول فهم لا يريدون أن يصلوا أبداً. كان الهاتف يتذبذب تحت ملابس هيلين وقد عرفت بأنه عبدالله ولم يكن بإمكانها الرد لئلا يلاحظها رجل الأمن خلفهم. كانت يدها ترتجف من البرد بالرغم من أن الجو لم يكن بارداً. جفلت فجأة لأن قصفاً قوياً دوى خلفهم. سحبت ليلى أقرب إليها، وكانت هي الأخرى ترتجف. تزايدت أصوات القصف المتتابع وهم على بعد خطوات من المقبرة.

قالت هيلين: قولوا لذلك الرجل بأني أُغميَ عليّ ولا يمكن القيام بالدفن الآن، سيُغمى عليّ فعلاً.

رأوا بمرآة السيارة رجل الأمن وهو ينزل من سيارته ويتوجه نحوهم. وقفَ عند نافذة المهرّب المفتوحة وقال: الطائرات تقصف بشدة والعلَم على الكفن سيجذب انتباه الكفار فيقصفوننا. انزلوا العلَم بسرعة وادفنوا موتاكم. جاءني بلاغ الآن بأنّ الكثير من جماعتنا جُرحوا وعليّ أن أُسرع إلى مواقع الإنقاذ. اعذرني يا أخي عن إكمال اللازم معكم. الله معكم والبقاء في حياتكم.

رحمَ الله أمواتكم، قال المهرّب.

ما أن اختفت سيارة رجل الأمن عن الأنظار حتى فتحوا التابوتين وأخرجوا الولدين اللذين كانا مثل سكّيرين بين النوم والصحو. سلّموا التابوتين الفارغين لحفّار القبور الوهمي وعادوا بسرعة إلى السيارة لتنطلق بهم إلى شارع فرعي غير مبلط ومن هناك إلى منطقة نائية. غادر السائق وبقي المهرب معهم. اختبأوا في خيمة مصنوعة من نسيج شَعر الماعز ومثبّتة بواسطة عشرة حبال مغروزة في التربة بأوتاد تترك فراغاً بين الخيمة وسطح الأرض. كانت أرضية الخيمة مفروشة بالبُسط وعليها باكيتات بسكت وقناني ماء. أخبرهم المهرّب بأنّ هذه إحدى خيَم «الخفافيش.» أوضح لهم بأن المهرّبين أطلقوا على أنفسهم تسمية «الخفافيش» لأنّ رحلاتهم تستوجب النوم صباحاً والمشي ليلاً. وهكذا حين غابت الشمس تماماً، ساروا شمالاً ست ساعات حتى وصلوا قرية تل الريم وهناك ناموا بين سنابل الذرة الصفراء التي زادتها الشمسُ لمعاناً. حين غابت الشمس مرة أخرى، عاودوا سيرهم بضع ساعات ليصلوا إلى النهر الذي يفصل بين داعش وأهلهم. في الظروف العادية يمكن قطع المسافة بساعة واحدة ولكن من أجل تجنّب جهة داعش وطرق الألغام لابد من الإلتفاف على الخطر بخطوات مضاعَفة.

هم معتادون على السير بين الأشجار والوديان لمسافات طويلة ولكن هذا سير مختلف هناك في الظلمة والخوف من أن تتحوّل الأشجار إلى عدو يقطع طريقهم أو لُغم ينفجر تحت خطواتهم. نهاية ذلك الطريق بدت كأنها نهاية العالم ولكن عند خط النهاية البعيد ذاك بعد ليل مظلم طويل بزغت بداية حريتهم مع أول خيط من خيوط الشمس. عند ضفة نهر دجلة، كان في

انتظارهم مهرّب آخر. أشار لهم أن ينبطحوا على سطح القارب ولا يُظهروا رؤوسهم لحين وصولهم إلى الضفة الأخرى. أرخى الحبل ليسحب مُهرّبان آخران القاربَ من الضفة الأخرى بحذر شديد بحيث يبدو القارب وكأنه يمضي وحده في النهر ولا ناس فيه.

قبل وصول القارب بقليل، رفع ياسر رأسه قليلاً وصرخ «وصلنا.» نزعت هيلين نقابها الأسود فظهرت تحته ملابسُها الملوّنة. قال يحيى «بعد دقيقة أخرى.» ما أن ضربتْ صفحةُ القارب الجهةَ الآمنة حتى رمت هيلين النقابَ إلى النهر وقالت «لعلّ المياه تعيده إليهم.» فعلت ليلى الشيء نفسه بنقابها.

عدد من رجال أمن المنطقة كانوا في انتظارهم فقد أخبرهم عبدالله مُسبَقاً بمكان وزمان وصولهم. نقلوهم بسرعة بسيارة عسكرية إلى مقر أمني يبعد عن ضفة النهر بمسافة تجعله بمأمن من أي إطلاق نار محتمل من الجهة الأخرى. بعد الإنتهاء من توثيق أقوالهم، استقبلهم عبدالله خارج المقر قائلاً «الحمد لله على السلامة.» حضنتْهُ هيلين بحرارة وهي تبكي.

ماشاء الله، كبرَ الأولاد، قال عبدالله وهو يعانق يحيى وياسر.

أمسكت هيلين يد ليلى وعرّفتها إلى عبدالله: ليلى هي إبنة غزال التي حدّثتك عنها.

عندي خبر جيد، قال عبدالله، عثرنا على مكان غزال.

خطت ليلى خطوة إلى الأمام لتسمع المزيد. إبتسمتْ وتلك كانت إبتسامتها الأولى منذ وقت طويل. لكن عبدالله طلب منها أن تتحدّث وتوّجه كلماتها لأمّها بينما وقف أمامها ليصوّرها بتلفونه.

أخذهم عبدالله بسيارته البيكب إلى مطعم قريب وطلبَ طعاماً مشكلاً لخمسة أشخاص.

شربت هيلين جرعة ماء وسألت عبدالله: متى ذهبتَ إلى حليقي آخر مرة؟

قبل اسبوع. هم لا يعرفون بعد بأنكِ وصلتِ.

لا أريدهم أن ينزلوا ويتعبوا، قالت هيلين، أنا أذهب إليهم.

إن أحببتِ نذهب معاً، قال عبدالله.

ياريت، سأموت من الشوق لحليقي، قالت هيلين.

ولكن يجب الذهاب إلى لالش أولاً، قال عبدالله، بابا شيخ أوصى بإعادة تعميد العائدين من الأسر من أجل التطهير الروحي ومسح صفحة داعش من حياتهم والبدء بصفحة جديدة نظيفة.

سنحتاج إلى قطعتين من القماش الأبيض ليحيى وياسر لأن هذه ستكون زيارتهما الأولى للمعبد، قالت هيلين.

بسيطة، قال عبدالله. ثم شرب بعض الماء وأضاف: يوجد مخيم للناجين هنا في دهوك. مارأيك يا هيلين أن تبيتوا الليلة في المخيم وغداً صباحاً نذهب إلى حليقي؟

ماشي، قالت هيلين، وعلى أية حال لن أبقى في حليقي أكثر من عدة أيام فمن الصعب متابعة أخبار المفقودين من هناك. أحتاج أن أبحث عن زوجي وابنتي.

نظرَ يحيى وياسر أحدهما إلى الآخر ثم إلى هيلين.

حقكِ. التواصل أسهل في المخيّم، قال عبدالله، وأنا سأطلعكِ على آخر التطورات بقدر المستطاع.

شكراً، قالت هيلين، أنت فعلاً حلال المشاكل.

ابتسمَ عبدالله والتقطَ تلفونه من الطاولة قائلاً: سأعلن عن وصولكم في الفيسبوك كي يتهيأ الناس في المخيّم لاستقبالكم.

هل من ناجيات أخريات أعرفهن في المخيم؟ سألت هيلين.

لستُ متأكداً، أجاب عبدالله.

أي خبر عن صديقتي أمينة؟ سألتْهُ.

صمتَ عبدالله. لم يجد في نفسه القدرة علـى إبلاغها بالخبر الحزين. كان النادلُ قد وضعَ صحون الطعام تواً على الطاولة، ففكّر عبدالله بأنّ قوله الحقيقة قد يُفسد على هيلين وجبتَها الأولى بعد الأسر. كانت هيلين تنظر إليه منتظرة جواباً فأجابَ «لا.» وقام ذاهباً إلى الحمّام.

بعد الغداء، اشترى عبدالله من السوق ملابسَ جديدة لكل واحد منهم ومنديلين أبيضين ليحيى وياسر. حين لفا رأسيهما بالمنديلين، تذكّرت هيلين عصّابات داعش السوداء.

أ لهذا يسموننا الرأس الأبيض؟ سأل يحيى.

اللون الأبيض رمزنا للشفافية، قال عبدالله، فالوساخة تظهر في الأبيض بوضوح أكثر من باقي الألوان.

بعد ساعة من السياقة شرقاً باتجاه قضاء شيخان قطعَ عبدالله خلالها طرقاً متعرجة في وادي جبلي، أوقف سيارته وقد تراءت أمامهم قباب لالش الثلاث. تركوا أحذيتهم في السيارة ودخلوا المعبد حفاة ككل الزوار الآخرين، فلا يجوز أن يكون هناك حاجز بين أقدامهم وأرض المعبد. على الجانب الأيمن لبوابة المعبد نقشٌ لحية سوداء أثارَ انتباه ياسر فسأل أمه «لماذا توجد حية هنا؟» أجابته هيلين «في قديم الزمان، كادت سفينة نوح أن تغرق بسبب ثقب في قعرها إذ اصطدمتْ بصخرة في أثناء الطوفان، ولكن حية سوداء سدّت الثقب فأنقذت البشرية، ولذلك للحيّة مكانة عندنا.»

عبرت هيلين من فوق عتبة مدخل المعبد قائلة للأولاد «انتبهوا، لا تدوسوا على العتبة لأنها مقدّسة.»

في باحة المعبد الداخلية سبعة أعمدة، رُبطت حولها قطع من القماش الملون. فتحَ عبدالله واحدة خضراء وعقدَها مرة أخرى. وهكذا فعلت هيلين بقطعة حمراء. ليلى اقتربت من العمود فشجّعتْها هيلين بابتسامة. اختارت ليلى قطعة قماش وردية. كان يحيى وياسر ينظران بفضول، فقال لهما عبدالله: كل عقدة قماش هي أمنية من أمنيات الزوار الذين شدّوها. تلك التي نفتحها لهم هي التي تتحقق، عسى أن يأتي بعدنا مَن يفتح القـُطَع التي عقدناها أيضاً.

ساروا على صخور ملساء موغلة في القِدَم نحو مدخل يؤدي إلى عين الماء المقدس التي يتعمّدون فيها. خادمة المعبد يسمونها فقراي، وهي امرأة مكّرسة للمعبد لا يجوز لها أن تتزوج، وقفت إلى جانب العين البيضاء وبيدها طاسة ماء معدنية. وحين نزلوا في عين الماء، صبّت من ماء طاستها على رؤوسهم الخمسة واحداً واحداً وهي تتلو أدعية البركة والخلاص. كانت تلفظ الكلمات بإلقاء متميز بِمَد الحروف وموسَقَتِها. في النهاية انحنت هيلين إلى ماء العين وغسلت وجهها ويديها، وفعلَ الباقون مثلها. خرجوا من عين الماء وفقراي تقول «مبروك.»

خرجوا إلى الباحة الخارجية في الهواء الطلق حيث الأشجار المنتشرة على طول الوادي ونور الفتائل المشتعلة فوق الأحجار عند مداخل الكهوف. شعرت هيلين براحة ما في نفسها، وفي الوقت نفسه انتابتها رغبة بالبكاء لمرأى الناس في الساحة وهم منفعلون بوجودهم معاً مرة أخرى، يعانقون الناجيات المتوسّمات شفاءهن بالماء. وعلى السياج الحجري، جلس عدد من الشباب ينظرون بصمت إلى الأفق، كأنهم سرب طيور.

بحلول المساء وصلوا إلى مخيم قاديا. رافقهم موظف إدارة المخيم إلى الخيمة المخصصة لهم. لكن تفاجأت هيلين برؤية أكثر من 100 شخص متجمّعين عند خيمتها للترحيب بها. مجموعة من النساء نثرن فوقها الحلوى المغلّفة وهن يزغردن. تأثّرت هيلين بذلك فجلست على الأرض تبكي، وجلست حولها أخريات وصرن يبكين معها. حين تفرّق الجمع وذهبوا إلى خيَمهم، قال

عبدالله لهيلين «هكذا يفعلون كلما وصلت ناجية جديدة إلى المخيّم.» ثم أضاف «إذن صباح الغد نذهب إلى حليقي.»

«أين تسكن أنت الآن؟» سألته هيلين.

«هنا في دهوك» قال عبدالله «في بناية مزدحمة من ثلاثة طوابق، كل عائلتين بغرفة. العائلة الأخرى لطيفة وتنسجم معها عائلتي.»

كيف هي ساري والأولاد؟ سألت هيلين.

ساري فقدت أخاها. داعش قتلوه في الأسر، قال عبدالله.

آه، يا عيني عليها. أنا آسفة جداً لسماع هذا، قالت هيلين.

هي تهديكِ تحياتها، قال عبدالله.

قلبي معها، قالت هيلين.

أراكم غداً، قال عبدالله وغادر.

في عصر اليوم التالي قبل أن يصلوا إلى حليقي بقليل، أسرعَ عبدالله وسبقهم متقصداً إلى البيت. رأى شمو في غرفة الجلوس يعبيء علبة كبيرة بالتين المجفف. قال له عبدالله لاهثاً: معي ضيوف اليوم، هل تقبلهم في بيتك؟

يا هلا عبدالله، قال شمو، أهلا بك وبضيوفك دائماً.

نظر عبدالله خلفه وبعد دقائق وصلت هيلين ومعها يحيى وياسر وليلى. بعد عناقات دامعة، أطلقَ شمو عدة صافرات. دخلت رمزية البيت غير مصدقة عينيها. «آه كم اشتقتُ إليكِ» قالت لهيلين منتحبة وهما متعانقتان. بعدها بقليل، حضرَ آزاد وزوجته وابنه. تعانقوا كلهم وبكوا. لكن رمزية لم تستطع الوقوف، بعد أن عانقتهم عناقاً طويلاً جداً، فجلست على الأرض. بدأت تغني غناءها الحزين.

كلّما تغلبها العاطفة، تردد تلك الأغنيات، قال شمو وقد غمره شعور بالنعمة وذراعه حول ابنته.

بعد بكائها الطويل، دخلت رمزية المطبخ وجلبت بطيخة كبيرة. كسرتها ليأكلوا. عبدالله أكل منها قطعة وقال «يجب أن أغادر الآن.»

احتجّت رمزية قائلة: أنت لم ترتح بعد من الطريق يا عبدالله. وكيف تذهب هكذا من دون عشاء؟

هناك أسيرة في الطريق ولابد أن أتابعها خطوة بخطوة، وأخشى أن أفقد اتصالات مهمة فلن يرن تلفوني هنا. لكني سآعود بأقرب فرصة، قال عبدالله وغادر.

حين لاحظت رمزية بأن ليلى لم تأخذ حصتها من البطيخ، قالت لها: تعالي يا عزيزتي أحلام، كلي بعض البطيخ.

هذه ليلى يا أمي، قالت هيلين، هي بعمر أحلام تقريباً.

تصوّرتها إبنة المرحومة أمينة، قالت رمزية.

صمتت هيلين دقيقة لتستوعب ما سمعتْ قبل أن تسأل «المرحومة؟ أمينة ماتت؟»

آه، أنتِ لا تعرفين؟ قالت رمزية.

لم تجبها هيلين. قامت وخرجت من البيت. خرجت رمزية وراءها: اعذريني يا ابنتي. ارجعي يا حبيبتي. إلى أين أنتِ ذاهبة؟

استدارت هيلين إلى أمها وقالت: فقط أحتاج أن أتمشى قليلاً لوحدي.

سارت هيلين نحو الوادي. بعد أن سقطت دمعتها الأولى، تدفقت باقي دموعها بغزارة. في الطريق الذي اعتادت السير فيه مع صديقتها، تخيّلت هيلين نفسَها مع أمينة. كانتا في الرابعة عشرة من العمر، تسيران معاً يوم

العيد في نيسان وسط شقائق النعمان الحمراء وزهور البيبون البيضاء - الصفراء، وكان الجبل قد اكتسى كله بتلك الألوان الثلاثة مثل كل ربيع. تذكّرتْ كيف جمعت أمينة باقةً من شقائق النعمان، ضفرتها زهرة بأخرى كقلادة حمراء. فعلت ذلك بالسرعة التي تضفر بها عادة شعرَها. وضعت أمينة قلادة الزهور حول رقبة هيلين. وجمعت هيلين في سلة القش زهرات البيبون كما أوصتها أمها، لتأخذها بعدئذ إلى أم خيري فالكثير من القرويين يتبرعون بالزهور لأم خيري لتصنع منها أعشاباً مهدئة للآلام.

توقفت هيلين عن السير ولمست رقبتَها محاولة أن تتحسّس مكان قلادة أمينة. كل أعشاب بيبون نيسان لن تكفي لتهديء ألمَها.

الصوت

نزلَ عبدالله من الجبل إلى منطقة منخفضة مستوية حيث صار بإمكانه استخدام هاتفه. اتصلَ بهدلا، المرأة التي تولّت مهمة إنقاذ غزال. هدلا هي واحدة من نساء أخريات يعملن ضمن شبكة عبدالله ومحشش التي تضم خمسة عشر عضواً يشتغلون لإنقاذ المخطوفات. هدلا كانت الأنشط بينهم وذلك بحكم عملها كممرضة في مستشفى الرقة للنساء، فمن بين اللواتي يرقدن في تلك المستشفى أسيرات يراجعن لعلاج الكسور والجروح بعد أن يضربهن الرجال بالكيبلات، ربما لأنهن قاومن الاغتصاب أو منعهن التعب من القيام بالواجبات المنزلية. وفي أحيان أخرى، تحدث الإصابات بسبب القصف والإنفجارات في المنطقة.

حين سمعتْ هدلا من عبدالله بأنّ غزال تسمع ولكن لا تتكلّم، أجابته بأنها تفهم لغة الإشارات فلها أخت لا تسمع ولا تتكلّم أيضاً. دخلت هدلا بيت أمير الصحراء ببدلة التمريض البيضاء. أخرجت بطاقتها التابعة للمستشفى وقالت لغزال بأنّ عليها القدوم إلى ردهة التلقيحات لأنّ هناك حملة تلقيحات للنساء. طمأنتها بأنها بعد أن تحقنها بالإبرة ستجلبها بنفسها إلى البيت كي لا تضيع.

في غرفة تمريض صغيرة في المستشفى، كانت هناك ممرضة أخرى معهما. شغلت هدلا نفسها بتجهيز عدّة التلقيحات، وحين خرجت تلك الممرضة أخيراً، أغلقت هدلا الباب. فتحت تلفونها الخلوي أمام غزال ودعتها تشاهد الفيديو القصير: كيف أنتِ يا ماما؟ وكيف أخي وأختي؟ هل بابا معكم؟ أنا رجعتُ وأنتظركم.

فتحت غزال عينيها على وسعهما لدى رؤيتها ليلى. أوشكت على النطق لكن لم تتشكّل الكلمات كما ينبغي، ومع ذلك خرج منها صوت يفوق كلَّ كلام. استحضرت كيف سحب أعضاءُ التنظيم ليلى منها بالقوة وهي تصرخ وتبكي.

أمسكت غزال يد هدلا ووضعتها على صدرها ثم على فمها. دخلت الممرضة الأخرى إلى الغرفة ورأت غزال وهي تقبّل يد هدلا فظنّت بأنها ممتنة جداً للقاح.

خرجت هدلا مع غزال لتعيدها إلى بيت أمير الصحراء. استغرق الطريق ربع ساعة سيراً على الأقدام وخلال ذلك تحدّثت هدلا عن خطة الهروب. شرحتْ لغزال بأن تأتي للمستشفى بعد غد في الساعة العاشرة صباحاً مع ابنتها الصغيرة على أساس أنّ الطفلة تحتاج إلى تلقيح أيضاً. لا يجوز للولد أن يدخل مستشفى النساء. لذلك يجب أن يتنكّر بملابس نسائية يرتديها في الحديقة التي خلف المستشفى. عرفت هدلا طول زيدو من خلال إشارة غزال بيدها إلى حيث كتفها. ستجلب النقاب لزيدو في كيس مسدود. ستخرج غزال وطفلتها من باب المستشفى الخلفي وتكملان سيرهما إلى الحديقة ليلتحق بهما زيدو. ستكون سيارة المهرّب واقفة أمام الحديقة وسيكون صندوق السيارة الخلفي مفتوحاً كإشارة بأن تلك هي السيارة الصحيحة. هدلا أعطت غزال رقم تلفونها لأنها تريد أن تعرف فيما بعد بأنهم وصلوا بالسلامة. أومأت غزال برأسها كوعد منها بأن تخبرها إذا وصلوا فعلاً.

مضت الأمور على ما يرام. أغلق المهرّب صندوق السيارة بعد أن صعدوا ثلاثتهم إلى المقاعد الخلفية، وانطلق بهم إلى منطقة ريفية على أطراف مدينة الرقة. توقّفَ أمام بيت تعيش فيه عائلة من جد وجدة وأب وأم وخمسة أطفال. وبداخل البيت غرفة كبيرة فيها حيواناتهم من أغنام وبقر وحمير. الأب هو قريب لمحشّش وقد وافق، مقابل أجر جيد، بأن يتم استخدام غرفة من غرف البيت مراراً لإيواء أشخاص ليوم أو يومين وأحياناً لخمسة أيام.

شعرت غزال بدفء لذيذ فقد أحاطتهم العائلة بجو مسالم لم يعرفوه منذ وقت طويل. كانت الأم كل ساعة تلّح عليهم بأن يأكلوا شيئاً. في اليوم الثاني، جلسوا كلهم حول زيدو ليروي لهم عمّا جاء بهم إلى بيتهم. بعد أن حكى قصتهم، قالت الجدة: أنتم رابع عائلة نستضيفها ونسمع قصتها. طوال عمرنا لم نعرف شيئاً كهذا ولم نسمع بمثل هذه الحكايات الغريبة ولا حتى في قصص ألف ليلة وليلة. لا نعرف من أين جاء أولئك البشر ولماذا يفعلون هذا بكم.

في الليلة الثالثة حان وقت مغادرتهم. عملت الأم سندويشات بيض ووضعتها في كيس نايلون. قالت لغزال: هذه للطريق.

حضنتها غزال ووقفت تنتظر زيدو. حدّق الأطفال في زيدو وهو يرتدي النقاب. كأن الجد عرف بأن زيدو كان في غاية الحرج فقال له: لستَ أول واحد نراه يتنكّر. الأولاد الذين كانوا مختبئين هنا قبلكم فعلوا هذا أيضاً.

في انتظارهم خارج البيت دراجتان ناريتان. صعدت غزال خلف ابنتها والسائق، وصعد زيدو خلف السائق الثاني. بعد ساعتين وصلوا إلى طريق ترابي معزول. من هناك عليهم ثلاثتهم أن يكملوا سيراً ثلاث ساعات ليصلوا إلى حدود كوباني. سائق الدراجة النارية أعطى غزال كيساً بلاستيكياً أبيض لترفعهُ عندما ترى الحدود من مسافة مئة متر فتلك هي الإشارة المتفق عليها عند الطرف المستقبِل في الجهة الأخرى. يجب أن يتذكّروا بألا يعبروا بأنفسهم تلك الأمتار الأخيرة لأنها ملغومة.

سارت غزال بقلق وهي تفكر: ماذا لو أخطأوا ولم يميّزوا حدود تلك المسافة الأخيرة؟ كلما أسرعَ زيدو في خطواته قليلاً لوحت له غزال بأن يبطئ خشية أن ينسوا أنفسهم ويسيروا نحو الخطر.

تفرّقت الغيوم في السماء ومع بداية الفجر تبيّنت ملامح يوم جديد وتبيّنتْ معه ملامح نساء واقفات على الحدود يؤشرن بأيديهن. حين رفعت غزال كيسها الأبيض، أسرعت إحداهن نحوهم وقالت لهم أن يتبعوا خطواتها بحذر. تفاجأت غزال بالزغاريد التي استقبلوهم بها وبالحلوى التي نثرنها فوقهم. بدأن يغنين أغنيات كردية مألوفة تماماً لديها.

وجدت غزال نفسَها تغنّي معهن. صُدِم زيدو وهو يسمع أمّه تغنّي. صرخ: ماما، ماما رجع صوتكِ!

توقّفت غزال عن الغناء لأنها اندهشت هي أيضاً من نفسها. حاولت أن تقول شيئاً لزيدو ولكن لم تخرج منها سوى حشرجات.

سكتوا كلهم لأن زيدو خاطبهم قائلاً: أمي فقدت صوتها في الأسر وهي الآن تغنّي. هل رجع صوتها؟

غنّي، غنّي، قالت إحداهن وأشارت للباقيات كي يعاودن الغناء. رجعت غزال تغنّي فخرجت كلماتها مفهومة تماماً مما جعلهم يرقصون ويغنون بصوت أعلى. يرفعون أيديهم طرباً وقسم منهم ينزلونها ليمسحوا دموعهم. في نهاية الأغنية، نظروا إلى غزال، ينتظرون أن تقول شيئاً.

حاولت أن تتكلّم مرة أخرى فتعثّرت كلماتها في البداية ولكن حين أعادتها خرجت صحيحة. منذ سنة وفمُها مثل سجن انفرادي يحدث فيه الكثير من الكلام من دون صوت. الآن قالت غزال «شكراً لأنكم حررتموني وحررتم صوتي.»

صعدَ عبدالله إلى حليقي مرة أخرى. كان الوقت بداية تموز 2015 وأشعة الشمس جعلتْ شَعرَهُ الرمادي يلمع. كان أسود اللون قبل سنة ولكن غزا الشيبُ نصفه خلال الفترة الأخيرة. في لحظة وصوله إلى بيت خاله، سأل هيلين «أين ليلى؟»

ذهبت مع يحيى وياسر إلى بستان التين، أجابت هيلين.

أردتُ أن أخبرها بأنَّ أمها وصلتْ مكاناً آمناً وستصل الحدود العراقية غداً، قال عبدالله.

آه، هذا خبر رائع، قالت هيلين، لنذهب ونخبرها.

كانت ليلى تقطف تينة من الشجرة ويحيى يقول لها «دعيني أريكِ طريقة أفضل.» هزَّ يحيى الشجرة فتساقط منها تين ناضج. بدأ يحيى وياسر يلتقطان التين من الأرض بينما استدارت ليلى فقد انتبهت إلى أن هيلين وعبدالله كانا عند مدخل البستان. في لحظة سماعها الخبر من عبدالله، تنوّر وجهها بابتسامة مبتهجة، والتينة لاتزال بيدها.

اتفقت هيلين مع عبدالله أن تنزل معه برفقة ليلى ليستقبلوا غزال. يحيى وياسر أرادا أن يذهبا أيضاً. في فجر اليوم التالي، كانت رمزية مستيقظة معهم لأنها قررت أن ترافقهم.

بعد أن نزلوا من الجبل، ساروا إلى السيارة البيكب التي كان عبدالله قد أوقفها أمام بيت من بيوت المنطقة المستوية. كان الوقت منتصف النهار حين وصلوا أخيراً إلى المساحة الخالية بين الحدود العراقية السورية. جلسوا هناك خمس ساعات في انتظار غزال، فقَدَ عبدالله خلالها الإتصال الهاتفي بالمهرّب بسبب انعدام تغطية النت فلم يعرف حتى المساء بأنّ الطريق إلى الحدود لم يكن آمناً بما يكفي فأجّلوا رحلتها حتى الغد.

عادوا إلى الجبل ونزلوا صباح اليوم التالي إلى مكان الانتظار نفسه قرب الحدود. جلسوا مرة أخرى حتى العصر ولم تأتِ غزال.

تبدو شاحباً اليوم. يخجلني تعبك معنا، قالت رمزية لعبدالله.

في الحقيقة أنا الخجلان لأنكم انتظرتم يومين هنا في العراء والجو حار، قال عبدالله.

هذا لا شيء مقابل قدوم ناجية فكأنها قامت من الموت، قالت رمزية، لكن اخبرني يا عبدالله، كيف أصبحتْ سهام؟

تحسّنت صحة إبنة أختي، الحمد لله، أجاب عبدالله.

كم تألّمتُ حين سمعتُ بأنها عادت من الأسر بأضلع مكسورة، قالت رمزية.

متى عادت سهام؟ سألت هيلين.

قبل شهرين، قال عبدالله.

اخبرني عنها أكثر يا ابن عمتي، قالت هيلين.

بدأ عبدالله يسرد لهم قصة إنقاذ سهام. كانوا كلهم جالسين على الأرض يستمعون:

كانت سهام في الثالثة عشر من عمرها حين اشتراها بِلال الذي كان مدير أمن داعش. وفي يوم رأتْ في مكتبهِ صورة عبدالله. لم تعرف بأنّ خالها بات شخصاً مطلوباً لدى داعش فسألتْ بِلال «من أين تعرف خالي؟»

بلال استغل سؤالها البريء مدبراً حيلة. قال لها «إذا كان هذا خالكِ فبإمكاني أن أبيعكِ له. مارأيكِ؟» طبعاً سهام قفزت من الفرح. إتصل بلال بعبدالله وبعثَ له صورة سهام عارضاً عليه صفقة: إطلاق سراح سهام مقابل تهريب عائلة بلال إلى تركيا. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يجري فيها مثل ذلك الإتفاق، فقد سبقَ لعبدالله أن أجرى اتفاقاً مماثلاً لذلك لم يستغرب من ذلك العرض.

اتّفقَ مع بلال بأن تقف سهام عند دوار الجرّة في مدينة الميادين ليتسلّمها شخص من هناك. ذلك كان الكمين الأول فما أن وصل المهرّب بقرب سهام حتى أحاط بهما عناصر داعش. أعادوا سهام إلى بيت بلال وقتلوا المهرّب. أجبروا سهام على التحدّث مع عبدالله بالتلفون لتخبرهُ بأنها انتظرتْ ولم يأتِ الشخص المنتَظَر. لم يعرف عبدالله بأنهم ضربوها ضرباً مبرحاً لإجبارها على قول ذلك فأجابها بأنه سيبعث لها شخصاً آخر من أعوانه.

في المرة الثانية كان الموعد في حديقة مقابل مستشفى الميادين. نظر المهرّب حواليه في الحديقة فلم يجد ما يوحي بالخطر. لم يجد رجالاً يمكنه الإشتباه بهم، ولم يكن بقرب سهام سوى نساء منقّبات. لكنه حين اقترب من سهام رآها تبكي وترفض الذهاب معه. طلبتْ منه أن يتركها كي لا يقبضوا

عليه. في تلك اللحظة، أحاطت به النساء المنقبات ليكتشف بأنهم دواعش متنكّرون كنساء خصيصاً من أجل الإيقاع به. بعد حين عذّبوه وعذّبوا سهام لأنهم سمعوها وهي تخبره بأنهم على وشك القبض عليه.

كان يوماً فظيعاً على عبدالله ومحشّش فقد اكتشفا بعد فوات الأوان بأنّ بِلال استخدم سهام لصيد المهرّبين. وسط مشاعر الحزن والإحباط التي انتابت عبدالله، قرّرَ محشّش أن يتولى موضوع سهام بنفسه قائلاً: دعني أشفي غليلي من بلال هذا.

لا أريد أن أخسرك أنت الآخر، قال عبدالله، والأمر خطير لأنهم سيتربّصون بكل من يقترب منها.

ما عليك سوى أن تعمل موعداً مع بلال مرة أخرى وكأنّ شيئاً لم يحدث وأنا أتصرّف، قال محشّش، ولكن حاول أن ترتب معه على أن يكون التهريب من منطقة منبج فتلك منطقتي وأعرفها دربونة دربونة.

مضى شهر تقريباً ولم يتصل بلال. حين اتصل أخيراً قال لعبدالله بأنه لم يعاود الاتصال لأنه جُرحَ في المعركة وخسرَ ساقاً ولكنه لا يزال على العهد ومستعد لإكمال الصفقة. قال له عبدالله: لي صديق جاهز لتسلم سهام ولكنه في منبج. إذا أعطيتنا موعداً في منبج بإمكاني أن أكلّفه بهذا.

منبج بعيدة عن هنا، ست ساعات بالسيارة، قال بلال، لماذا لا تأتي أنتَ يا عبدالله وتستلم سهام مني بنفسك؟ أليس ذلك أحسن؟

أجابه عبدالله بأنه سيفعل ذلك إذا لم يستطع صديقه القيام بذلك.

حسناً، سأبعثها مع شخص من طرفي. سأعطيك رقمه كي تتفقان معاً، قال بلال.

بعد ثلاثة أيام، وقفت سهام حسب الموعد في دوار المركبة في منبج. كان الشخص الذي جلبها جالساً في مقهى النت مقابل الدوار. وكان ينظر إلى سهام وفي الوقت نفسه يكتب لعبدالله بأنّ سهام واقفة في الدوار وبيدها

كيس حفاظات أطفال كإشارة حتى يميّزها صديقُه حين يأتي لاستلامها. بعد ساعة كتب لعبدالله: لم يأتِ صديقك لحد الآن.

عبدالله كتب لمحشّش ليطمئن عليه.

هههههها، محشّش كتب له.

لماذا تضحك؟ سأله عبدالله.

أنا جالس في المقهى بجانبه وهو يكتب لك. سلّمتُ عليه ورد عليّ التحية بأحسن منها، وأنا الآن أدردش معه بخصوص أزمة الغاز، أجاب محشّش.

لاحظَ محشّش بسرعة شخصاً يتابع سهام عن كثب عبر نافذة المقهى ولاحظ أيضاً وجود شخصين يتسكعان بقرب سهام وقد بدت متعَبة من الإنتظار. بعد ساعة ونصف من المراقبة في تلك الظهيرة الحارة، دخل الرجلان إلى محل مرطبات قريب.

كتب محشّش لعبدالله: قل للحجي بأني سأصل بعد نصف ساعة.

لاحظ محشّش بأنّ الرجل الداعشي قرأ رسالة عبدالله واتصل فوراً بالشخصين المراقبَين إذ رأى عبر النافذة أحدهما وهو يجيب مما جعل محشّش يتأكّد بأن أولئك هم المكلّفون بإلقاء القبض عليه. كتب لعبدالله: ابعث للحجي أسئلة كثيرة لكي يتلّهى. جماعته يشربون بيبسي والمسكينة واقفة تحت الشمس، لم يعطوا لها حتى شربة ماء.

وقف محشّش وسلّم مرة أخرى على ذلك الشخص بجانبه قائلاً له: أستودعك الله، ادع لي بأن أحصل اليوم على غاز.

وفّقك الله، أجابه الرجل.

ركبَ محشّش دراجته النارية ودارَ في المنطقة، وحين رأى المراقبَين يدخلان المحل مرة أخرى انطلقَ إلى سهام وقال لها: إصعدي بسرعة. أنا من طرف خالكِ.

رمت كيس الحفاظات من يدها وصعدت خلفه. طار بها إلى أول زقاق. تسابق المراقبان الداعشيان خلفه بسيارتهما إلى الزقاق الذي بالكاد يتسع لسيارة. على جانبيه بنايات قديمة مائلة تبدو وكأنها على وشك أن تتهاوى فوق المارة. استدار محشّش بدراجته إلى زقاق أضيق لا يتسع للسيارات، ومن هناك إلى أزقة أخرى ضيقة، وفي النهاية إلى بيت آمن.

في اليوم التالي، اتّصلَ محشّش بعبدالله ليقول له بأنه وصل مع سهام إلى بلدة تل تمر في محافظة الحسكة. أخبره بأنّ سهام بالكاد تمشي وتحتاج إلى مراجعة طبيب. قرّر عبدالله أن يذهب بنفسه ليجلبها بسيارته وأيضاً ليلتقي بمحشّش شخصياً. استغرقت الرحلة إلى المطعم الذي تواعدا عنده أربع ساعات بالسيارة، ولم يدم لقاؤهما أكثر من عشر دقائق. فعلى الرغم من نشوة اللقاء كان لابد من الإختصار من أجل السلامة الأمنية. ثلاثتهم في وضع قد يعرّضهم للاستجواب على أقل تقدير من قبل السلطات. سهام من دون هوية ومحشش يزور مناطق داعش مراراً، وعبدالله الآن في وضع خطير إذا صادف تواجده في المكان والزمان الغلط. ثلاثتهم أبرياء ولكن براءتهم لا تضمن سلامتهم.

كان عبدالله قد تخيّل بأنه سيلتقي برجل ضخم وله عضلات. لذلك تفاجأ حين وجدَ محشّش شخصاً قصير القامة ونحيفاً جداً.

تصوّرتُ بأني سأرى أمامي شخصاً عملاقاً، قال عبدالله لمحشّش.

أنا مثل الذهب، صغير وقيمتي كبيرة، قال محشّش.

أفعالك أكثر لمعاناً من الذهب يا محشّش، وأنا جلبتُ لك هدية، قال عبدالله وهو يناولهُ علبة عسل مغلّفة بشريط لاصق أسود.

هذا غذاء مَلَكي، أضاف عبدالله، فمثلما أنت تنقذ ملكاتنا، هذه هديتهن لك.

عانقهُ محشّش وغادر. لم يستطع عبدالله أن يحضن سهام خشية أن يؤذيها فكسورها لم تلتئم بعد. أعطاها هوية ابنته لتعبر بها الحدود قائلاً: إبنة

خالكِ تنتظرك بفارغ الصبر.

مضى الوقت أسرع قليلاً وهم يستمعون إلى قصة سهام. ولكن في نهاية انتظارهم لغزال، قاموا ليعودوا إلى حليقي فقد تأجّلت عودة غزال مرة أخرى. مسحَ عبدالله جبينه وهو يسأل المهرّب بالتلفون: هل ستأتي غزال غداً؟

إن شاء الله، أجابه المهرّب، تفاءل خيراً.

في اليوم الثالث، بعد ساعتين من الانتظار، هيلين لمحت غزال وزيدو وجوان يعبرون الحدود. قاموا كلهم تأهباً لاستقبالهم. بكت هيلين لمرأى ليلى وهي تركض إلى أمها. لكن حين سألتْ «أين أبي؟ لماذا لم يأتِ معكم؟» تهاوت غزال على ركبتيها وهي تبكي. هيلين ورمزية ويحيى وياسر أحاطوا بها وهي تقول «داعش قتلوهم كلهم. منذ ذلك اليوم وأنا أريد أن أصرخ ولا تخرج صرختي كاملة.»

جلست رمزية كعادتها تغني غناءً حزيناً.

هيلين سألت غزال وهي تعانقها: تتذكّريني؟

أومأت غزال برأسها وقبّلتْ هيلين مرة أخرى.

لمحت هيلين عبدالله واقفاً وحدهُ إلى الجانب ينظر إليهم، فقالت لغزال: تعالي أعرّفك على ابن عمتي. هو الذي دبّرَ رجوعكِ إلى الوطن.

لم تنسَ غزال وعدها لهدلا. لذلك فور أن حضنت عبدالله وشكرتهُ طلبتْ منه أن يتّصل بهدلا لإعلامها بأنها وصلت بالسلامة. عبدالله لم يستجب. انتظرت قليلاً ثم أعادت عليه طلبها. خفضَ عبدالله رأسه وبدا منهَكاً.

أنتَ بخير؟ تريد ماءً؟ سألتهُ غزال.

لستُ عطشاناً. أنا حزين، فوق ما تتصوري، أجابها.

ماذا حدث؟

لم أكن أريدكِ أن تحزني مثلي ولكن هدلا... أمسكوها وقتلوها.

وضعت غزال يدها على فمها وسألتْ: بسببي؟

لا، امرأة أخرى بعدكِ أنقذتها هدلا واكتشفوا بأنها هي التي فعلت ذلك. أعدموها في الساحة العامة أمام الناس. قالوا بمكبّر الصوت بأنها جاسوسة تعمل مع الكفّار. زوجها كان يعمل ضمن شبكتنا أيضاً. لكن حين استجوبوها قالت لهم أنّ زوجها لا يد له في هذا وأنه لا يعرف شيئاً عما تقوم هي به من تهريب للسبايا. تحمّلت المسؤولية كاملة. عرضوا عليها أن يخلوا سبيلها إذا أعطتهم معلومات عن الشبكة التي تعمل معها. لم تنبس بحرف. ماتت وحدها بصمت تام.

كانت هدلا في الأربعين من عمرها وحين بدأتْ بهذا العمل الخطير كان هدفها في البداية أن تجمع المبلغ الذي تحتاجه لعملية زرع طفل لها. تصوّرتْ بأنها ستتوقّف بعد جمع المبلغ المطلوب لكنها غيّرت رأيها بعد أن لمست التغيير الذي كانت تحدثه في العالم من خلال إنقاذ النساء. بعد ساعتين من إعدامها، عُلقت على جدار الساحة صورتُها وهي بثياب التمريض وتحتها كلمة «بطلة» بالخط العريض. داعش مزّقوا الصورة. في صباح اليوم التالي وجدوا على جدار المدينة صورتين لها وتحتهما الكلمة نفسها. حين مزّقوا الصورتين ظهرت لها عشرات الصور على الجدران. تمّ تكليف أشخاص داعشيين بمراقبة جدران الساحة بغرض القبض على مَن يعلّق تلك الصور. نشبت معركة خفية بين فريق هدلا وجماعة داعش. في الليل كانت هناك أيادٍ تعلّق صورها وفي النهار أيادٍ تمزّقها. في النهاية اختفت الصور ولكن ظلّت على الجدار عبارة مكتوبة بالأصباغ بخط كبير تقول «حذاء هدلا يسوى راسكم.»

كلمات السر الثلاث

كانت هيلين واقفة أمام خيمتها حين سمعت بهار، الناجية في الخيمة المجاورة، تصرخ بالأطفال «خرة بشرفكم» لأنّ كُرتَهم وقعت تلك اللحظة في «طنجرتها» الكبيرة التي فيها ماء مغلي. لوّحت بهار يدها بالتحية لهيلين وقالت: اليوم حظّي جيد، وقعت الكرة قبل إضافة معجون الطماطم.

أطفال المخيم يلعبون كرة القدم منذ الصباح حتى المساء في المساحة الترابية أمام الخِيَم، وبالقرب منهم يقوم الكبار بالطبخ والغسل واحتساء الشاي وتبادل أخبار الذين عادوا من الأسر والذين لم يعودوا بعد. يخرجون من خيَمهم كلما تضيق بها قلوبهم وخاصة في وقت الحرّ والغُبار. هم محظوظون لأنهم نجوا، ولكن نجاتهم ليست نهائية، فلهم جميعاً ذكريات عن مفقودين أو قتلى.

ليندا إيزيدية مقيمة في ألمانيا وتعمل في منظّمة إنسانية تابعة للأمم المتحدة. في ذلك اليوم، دخلت خيمة هيلين لتتناقش معها عن احتياجاتها مثلما فعلت مع باقي الناجيات.

أكثر شيء أحتاجه استعادة زوجي وابنتي، قالت هيلين، بسبب تفكيري فيهما لا أستطيع أن أنام.

أين هما؟ سألتها ليندا.

زوجي أسير لدى داعش وابنتي في بيت جارتي في الموصل، قالت هيلين.

يجب أن تعتني بنفسكِ من أجلهما، قالت ليندا، تذكّري قانون الطيران، فإذا أحسّت راكبة بضيق نفس واحتاجت إلى الأوكسجين فإنّ عليها أن تضع كمّامة الاوكسجين على فمها وأنفها أولاً قبل أن تساعد الآخرين.

لم تعلّق هيلين على ذلك لكنها فكّرت بأنّ هذا القانون صعب على الأمهات.

هل ترين كوابيساً؟ سألتها ليندا.

في أحلامي أرى نفسي مختبئة دائماً، أجابت هيلين، ومرّة في حلم غريب كنتُ الزوج بالرغم من أني امرأة واغتصبوا زوجتي أمام عيني وأنا أصرخ بهم وهم لا يرونني ولا يسمعونني.

كانت ليندا تكتب ملاحظات عندما لاحظتْ وجود ثقب كبير على سقف خيمة هيلين فعرضتْ أن تجلب قطعة قماش لترقيع الثقب ومنع تسرّب الماء إلى الخيمة إذا هطلَ المطر. رفضت هيلين متحجّجة بأنّ المطر لا يضايقها. هي فضّلت أن تتركه لأنها من خلال ذلك الثقب ترى النجوم في الليل مما يمنحها إحساساً بالأمل في تلك العتمة التي تلف الخيمة. لا يأتيها النوم بسرعة، بينما تكون ليلى نائمة بجانبها والولدان في الزاوية، فتتأمّل حياةً مستقبلية وهي تنظر إلى تلك القطعة المتلألئة من السماء.

مثل باقي سكان المخيم، هيلين تتابع يومياً «الكروب جات» على موقع نت خاص ابتكروه لأنفسهم تحت إسم «أهل المخطوفات.» فيه تقريباً 900 عضو فعّال بنشر الصور والمعلومات من أجل الإستنفار والتحرّك وجمع التبرعات، من أجل هدف واحد وهو إنقاذ المزيد من المخطوفات. استلهموا الفكرة من موقع «مول الدولة الإسلامية» الذي أنشأهُ تنظيم داعش لعرض المخطوفات للبيع. الدخول إلى الموقع هو لأعضاء المول حصراً، ولكن بإمكان العضو أن يضيف صديقاً إلى الموقع. هكذا تمكّنَ عبدالله من اختراق موقعهم بحساب مستعار بعد أن أضافهُ أحد أعضائهم المزيّفين. يمرّر عبدالله إعلانات المول لشبكته وكذلك لموقع «أهل المخطوفات.»

حين شاهدَ إعلاناً لشخص يعرض للبيع امرأة وحزاماً ناسفاً، كتب له عبدالله: أنا أشتري منك الحزام.

أجابه الرجل: تفضّل إلى هنا يا شيخ كي نتفاهم على السعر.

أخذ منه عبدالله العنوان وأعطاه للمهرّبين ليراقبوا بيته من أجل إيجاد فرصة لإنقاذ الأسيرة. في أثناء ذلك، ظلّ عبدالله يماطل مع الرجل بحجة أنّ القصف جعله يؤجل زيارته. وفي النهاية قال له: جزاك الله خيراً. نحن اشترينا حزاماً من مجاهد آخر واستخدمناه في سبيل الله.

بارك الله فيكم، أجابه الرجل.

بعد اسبوعين من مراقبة بيت ذلك الرجل، تمكّنت شبكة عبدالله من إنقاذ الأسيرة التي كان قد عرضها الرجل للبيع.

كلما تسمع هيلين رنّة «الكروب جات» المميّزة، تفتح الموقع فوراً. هذه المرة وجدتْ رسالة على الخاص من عبدالله: إفتحي الموقع بسرعة. هناك امرأة دخلت الجات وقالت بأنّ معها طفلة عمرها سنة. وذكرت إسمكِ وإسم إلياس قائلة بأنكما والدا الطفلة المفقودان.

شعرت هيلين بدقات قلبها المتسارعة وهي ترى إعلان شيماء ورقم تلفونها. اتصلتْ بها فوراً.

جاءها صوت شيماء ملهوفاً: معقولة؟ هيلين؟ أين كنتِ كل هذا الوقت؟

رجعتُ تواً من يد داعش، أجابت هيلين.

يا إلهي.

ممكن أحكي مع ميادة؟

ميادة؟

إبنتي التي معكِ.

لم أعرف بأنّ اسمها ميادة، قالت شيماء.

أنتِ في البيت؟ سألتها هيلين.

لا، نحن هربنا إلى تركيا. مثلما يقولون البيت بيت أبونا والناس يسحتونا، قالت شيماء بلهجتها المصلاوية.

ظلت هيلين ساكتة، فأضافت شيماء: اطمئني ابنتكِ بخير.

آه يا حبيبتي. كل الكلام لن يكفي لأشكركِ.

أنا تعلّقتُ بها وكذلك مصطفى فهي صارت أخته بالرضاعة ولو أنّ دينكم يمنع القربى من مسلمين.

أنتِ أختي يا شيماء حتى من دون رضاعة.

طبعاً.

قولي لي يا شيماء. حميد معكم في تركيا؟

لا، حميد في تلعفر لأنه وجد شغلاً هناك.

أعرف. يشتغل مع داعش، قالت هيلين.

ماذا تقولين؟

رأيته هناك معهم. وهو ساعدني لأهرب.

هَم زين وهَم شين، بس أبوه يطيّح حظه إذا سمع. ياربي من وين أجت كل هاي المصائب؟

أولادي تعاونوا أيضاً مع داعش ولكنهم رجعوا إلى أنفسهم. أتمنى أن يرجع حميد كذلك.

أخذت هيلين عنوان شيماء وأعطته لعبدالله من أجل تهريب ميادة من تركيا إلى العراق.

الشخص الذي كُلّف بنقلها كان بالأصل سائق شاحنات بين سوريا وتركيا ويعرف كيف يمرّر البضائع الممنوعة. انضمَّ إلى شبكة «الخفافيش» التي يسمّيها عبدالله «شبكة النحل» ويمزح معه محشّش بقوله: الخفافيش صاروا نحلاً. هذه ترقية.

ارتبكت شيماء حين وصل السائق إلى بيتها، فكيف يمكن للرجل الغريب أن يأخذ الطفلة من المرأة التي تتصوّرها أمَّها. لكنه جاء متهيئاً لمهمته فأعطى ميادة دواءً منوّماً، وحين أغلقت عينيها وضعها في خلفية شاحنته بداخل صندوق كرتون ذي فتحات صغيرة، ووضعه بداخل صندوق كرتون أكبر طوله متر وعرضه نصف متر يُستخدم لخزن البيض. رتّبَ فوق الكرتون الصغير وحوله طبقات بيض.

كانت شيماء تنظر إليه بتعجب فأخبرها بأنه لاحظ خلال سفراته بأنهم في سيطرة الحدود لا يفتحون طبقات البيض واحدة واحدة، ربما لأنها متشابهة يملّون منها، بينما يفتشون الأغراض المتنوعة باهتمام أكبر.

صدقَ حدس السائق، ففتح مفتش السيطرة التركية ثلاث طبقات بيض وأرجعها إلى مكانها، وذهب يفتش باقي الشاحنة وحين لم يجد شيئاً، أشار بيده للسائق ليمضي. عبرَ الجسرَ المطل على نهر دجلة. السيطرة الكردية في الجهة الأخرى كانوا ينتظرون قدوم ميادة. التفّ رجال التفتيش في كمرك ابراهيم الخليل في زاخو حول السائق يشكرونه بعد أن أعطاهم الكرتون. تسلّم عبدالله الكرتون منهم ونقله كما هو بسيارته إلى المخيم في دهوك وهو يقول لنفسه: كأنّ ميادة نائمة في عش.

هذه ابنتكِ وفوقها بيض أيضاً، قال عبدالله واضعاً الصندوق أمام خيمة هيلين.

تجمّعَ الكثير من سكان المخيم عند هيلين لتهنئتها بوصول ابنتها بالسلامة، وكان من بينهم صحفيون يلتقطون صوراً للطفلة الصغيرة وهي تفتح عينيها في حضن امرأة لا تعرفها.

لم تبكِ في البداية ولكنها بعد دقائق من دخولها الخيمة صارت تبكي. أخذتها هيلين في حضنها وظلّت تبوسها على رأسها. حين هدأت البنت قليلاً، التقطت هيلين دفتر تخطيطات وعلبة أصباغ كانت ليندا قد جلبتها لها حين عرفت بأنّ هيلين تهوى الرسم. رسمت هيلين طائر القبج ووضعت الورقة أمام ميادة على الأرض مع علبة الأصباغ. بدأت هيلين بتلوين جناح الطائر. تقصّدتْ أن تلوّن ببطء كي تترك مساحة كافية لميادة عساها تلوّن.

التقطت ميادة قلم اللون الأخضر وبدأت تخربش به على الورقة. امتلأت هيلين بالنشوة من ضربة اللون تلك وكأنّ شيئاً يابساً اخضَرَّ كله، والطائر صار حقيقياً، دبّت فيه الحياة وطار أمامها تلك اللحظة. انهمكت ميادة بالتلوين، والدمع لايزال بعينيها.

قصّ ياسر ورقة من الدفتر وعملَ منها صاروخاً ورماه من فوق ميادة، فرفعتْ رأسها لحظة وعادت تلوّن. تمدّد على طوله بجانبها ليشاهد ما تفعلهُ.

كانت ليندا قد سألت هيلين فيما إذا احتاجت إلى طاولة لترسم عليها. هيلين أجابتها بأنها معتادة كباقي ناسها أن تفعل كل شيء على الأرض. هم بكوا على الأرض. غنّوا وعزفوا الموسيقى على الأرض. أكلوا على الأرض. تسامروا وشربوا الشاي على الأرض. مارسوا الحب على الأرض. إنتظروا على الأرض. كانوا فرحين على الأرض. كانوا حزانى على الأرض.

في اليوم التالي، خرجَ يحيى وياسر ظهراً إلى المساحة الخالية خلف الخيمة ليلعبوا كرة القدم. تقافزت حبات التراب بين أقدام اللاعبين الصغار وهم يدوسون على الحشائش المتيبسة من حرارة الصيف. أشرفَ يحيى كحَكَم على المباراة وقد تعلّم من هيلين كيف يضع يده على فمه ويصفر كلما أراد أن ينبّه لاعباً أو يُنهي شوطاً.

ياسر تركَ المباراة وعاد إلى الخيمة لأنّ يحيى طرده بعد أن أنذرهُ مرتين لمخالفته قواعد اللعب. كانت ليندا في الخيمة مع هيلين وقد سمعها ياسر تتحدث مع أمّه بخصوص توّفر فرصة من الأمم المتحدة لناجية مثل هيلين

وعائلتها بالسفر والعيش في دولة من الدول المانحة للجوء. هيلين قالت بأنها لم تفكّر يوماً بمغادرة العراق وأنّ بقاءها في هذا المخيم الآن هو من أجل متابعة أخبار المفقودين فهي تتأمل أن تعود في المستقبل إلى حليقي أو إلى الموصل عند تحرير المدينة كلياً من قبضة داعش. بعد أن خرجت ليندا من الخيمة، حاولت هيلين أن تُصلح سحّاباً على طول الخيمة يستخدمونه باباً افتراضياً.

سألها ياسر: ماما، لماذا لا نسافر؟ لا نريد أن نبقى هنا في المخيّم.

بإمكاننا أن نذهب إلى حليقي، قالت هيلين.

ولكن لا يوجد تلفون ولا تلفزيون هناك، قال ياسر، تعجبني القرية للزيارة فقط.

عندما يرجع أبوك، نعود إلى الموصل، قالت هيلين.

بابا لن يرجع أبداً، قال ياسر.

لماذا تقول هذا الكلام؟

لأنّ الموتى لا يرجعون أبداً يا أمي.

تركت هيلين السحّاب وحدّقت في وجه ياسر. رأت خيبة وخوفاً في عينيه.

أنا رأيتهم وهم يقتلون أبي بالسيف، قال لها.

أين؟

في الفيديو الذي شاهدته مع يحيى.

أخبرها ياسر كيف أنه ويحيى شاهدا إلياس في اليوتيوب. شاهدا على شاشة العرض أعضاءَ التنظيم يقطعون رأس إلياس والدم يتدفق من رقبته. المدرّب الذي عرض عليهم ذلك المشهد بدم بارد، قال «أولئك الرجال خونة وكفّار ويجب محاربتهم هكذا بالسيوف.» وحين رأى المدرب دموع الولدين،

وبّخهما قائلاً «الدولة لا تقوم لها قائمة بالمستضعفين وأنتم رجال، عيب عليكم البكاء.»

ماذا لو كان هذا الذي قطعوا رأسه هو أبي؟ يحيى سأل المدرّب.

إن كان أبوك كافراً فيجب أن تكون أنت أول مَن يحاربه، أجاب المدرّب، أخوك هذا الذي بجانبك ليس أخاك إن لم يكن على الطريق الصحيح. الدولة هي عائلتك ولها الولاء والتضحية أولاً وأخيراً.

مع نهاية كلام المدرب، تشكّلت في رأس الولدين قطيعة مع المنظّمة، نهائية مثل نقطة في رأس السطر. كانا قد تهالكا تماماً لم يقوَيا بعدها على إكمال التدريب ذلك اليوم. كان ياسر متكوّراً في مكانه وهو يحاول التقيؤ ولا يستطيع. وقد ظنَّ المدرّب بأنّ ياسر مصاب بفايروس. سيظل ذلك الفيديو مطبوعاً في ذهنيهما مثل فايروس مزمن، ولكن في الوقت نفسه اشتغل مضاداً حيوياً أدى بالولدين إلى صحوة من موت، ولو بألم لن يزول، هو ألمُ إلياس انتقلَ إليهما.

الآن جلسَ ياسر في زاوية الخيمة يتذكّر ويبكي. تركت هيلين بَكرة الخيط تسقط من يدها. تهاوت على الأرض وصارت تضرب بيديها على البِساط أمامها وعلى رجليها. انهمرت دموعها بقوة وكأنّ كتلة كبيرة من الجليد ذابت كلها مرة واحدة وانهمرت مثل شلال من فوق الجبل. نشيجها أيقظَ ميادة من قيلولتها وحين رأت أمها في ذلك الوضع، بكت هي أيضاً. أمسكَ ياسر يد أخته وخرج معها من الخيمة.

ظلّت هيلين في الخيمة حتى اليوم التالي. كانت في غاية التعب جالسة في الزاوية ويداها على جبينها. أغمضت عينيها. أبقتهما مغمضتين حتى رأت إلياس. في البداية كانت صورته مغوّشة ثم توضّحتْ ملامحهُ تدريجياً. كان مرتدياً ملابس الرياضة التي أشترتها له آخر مرة، قبل اختفائه. ابتسمَ لها فظهرت الغمازتان على وجنتيه. وفي لحظة انتظارها ليقول لها شيئاً، رأت ظلاً

يأتي من خلفهِ. فزعت وهي تلمح سيفاً بيد الظل يرفعهُ ليقتل إلياس. صرخت به ألا يفعل. صرخت بصوت أعلى: لا، لا!

سمعتها ليندا وهي تصرخ. كانت معها في الخيمة منذ نصف ساعة ولكن سرحت عنها هيلين. لم تجد في نفسها الرغبة بأن تجيب عن أسئلة ليندا في ذلك اليوم. لا رغبة لها بأن تتحدّث ولا أن تفعل أي شيء. نادتها ليندا «هيلين، هيلين.» لكنها لم تستجب. كانت في عالم آخر. ربتت ليندا على كتف هيلين، فنظرت إليها هيلين كمن صحا تواً من كابوس.

عندي لكِ حكاية واحدة، قالت ليندا وهي ممسكة بيد هيلين، أقولها وأمضي: هناك ثلاث قرى عليكِ عبورها من أجل أن يلتئم جرحك. لكل قرية منها مدخل ولكل مدخل مفتاح. المفتاح عبارة عن كلمة سر تستخدمينها للدخول. سأعطيكِ كلمات السر الثلاث. القرية الأولى ليس صعباً عبورها. كلمة سرّها هي «الإدراك.» من أجل أن تعبري القرية الأولى بسلام، عليكِ أن تدركي ما حدث وتصدّقي بأنه وقع فعلاً، وعليكِ أن تفهمي بأنَّ ما وقع عليكِ من ظلم وعنف هو جزء واحد من حياتكِ وليس حياتك كلها. القرية الثانية أبعد وتحتاج إلى عناء أكبر. كلمة سرّها «التذكّر.» ربما ستقولين بأنّ التذكّر مؤلم. أعرف، لكن النسيان مؤلم أيضاً. التذكّر والحِداد على مفقوديكِ جزء من الشفاء. أن تتذكّري وتتحدّثي عما حدثَ لكِ يساعدكِ أن تعبري القرية الثانية. ربما تقولين بأنّ الكلام عن الكارثة يفتح الجرح ويجعل الأمور أسوأ، لكن بالعكس، الكلام عنها بصيغة الماضي يؤهلكِ للعبور إلى المستقبل. أما القرية الثالثة فمن الصعب الوصول إليها. هي على قِمة جبل، ولابد أن نلهث قبل أن نصل، ولكن نستريح في النهاية، بل ننجو. كلمة سرّها «التواصل.» يجب أن تعيدي التواصل مع الناس وخاصة الأشخاص الذين تثقين بهم. لا يمكنكِ أن تعبري القرية الثالثة من دون إعادة التواصل مع الحياة العادية. لا يمكن محو ما حدث لكِ ولعائلتكِ بشكل تام، ولكن يمكن العثور على شيء نافع للأيام القادمة. الفترة الزمنية التي تقضينها في كل قرية من قرى الشفاء يتوقف عليك أنتِ. سأكذب إذا قلتُ لك بأنّ هذا سيتحقق بسرعة، ولكنه ممكن. صدّقيني، كل شيء ممكن.

صعدت هيلين إلى حليقي ونزلت أكثر من عشر مرات خلال الأشهر الثلاثة التي تلت سماعها الخبر الفظيع. لكن لا الصعود ولا النزول ولا السير في المناطق المستوية ولا الصحو ولا النوم ولا أي شيء آخر استطاع أن يشغلها عن ألمها بفقدان زوجها. حتى صوت الطيور أثار شجنها. كان طيف إلياس حواليها في كل مكان. مثل خيوط مغروزة في لوحة مطرَّزة، هكذا غُرِزَ لونُ غيابهِ في حياتها.

بعد سنة من إقامتها في المخيّم، هيلين استقبلت ناجين جدداً وودّعت آخرين تركوا المخيّم وعادوا إلى قُراهم المحرّرة. بعضهم غادروا البلد. بهار مُنحَتْ لجوءاً إلى ألمانيا بصحبة ابنها وأختها. داعش قتلوا زوجها وأباها وثلاثة من إخوانها. في الموعد المحدد لمغادرتها المخيم في تشرين الأول 2016، ذهبت هيلين لزيارتها للمرة الأخيرة.

هل ملأتِ استمارتكِ لطلب اللجوء؟ بهار سألت هيلين.

لا، ليس بعد، قالت هيلين.

هذه فرصة قد لا تتوفر دائماً يا هيلين. مَن يدري ماذا سيحدث غداً. هل كنا نتخيّل أن يحدث كل هذا لنا؟ كيف نضمن بأنه لن يحدث مرة أخرى؟

يحيى وياسر كلاهما يلحّان عليّ لتقديم الاستمارة.

حسناً، مستقبلهما ومستقبل ابنتكِ أفضل في الخارج، قالت بهار.

يعني ترين أن أملأ الاستمارة؟ سألت هيلين.

نعم، طبعاً، قالت بهار، ماذا ستخسرين؟ حتى لو غيّرتِ رأيكِ بإمكانكِ سحب الطلب فيما بعد.

خلال زيارة ليندا اللاحقة، طلبت منها هيلين أن تساعدها في تقديم طلب اللجوء. وبعد عشرة أشهر، في اليوم السابع من آب 2017، دخلت ليندا الخيمة وأخبرت هيلين بأنّ الأمم المتحدة قبلت طلبها فمُنحتْ مع عائلتها حق اللجوء

إلى كندا، وليس عليهم سوى إجراء فحوصات طبية خلال الأشهر الستة المقبلة.

بعد ذلك الخبر الرائع، لاحظت ليندا بأنّ ميادة كانت تحمل صحناً عليه سمكة ملونة وملعقة، وياسر يحمل صينية ومِغرفة.

الليلة خسوف القمر، قالت هيلين لليندا، تحبين أن تأتي معنا؟

إلى أين؟ سألتها ليندا.

لاتوجد سطوح هنا لنصعد عليها ولذلك سنتجمّع في تلك المساحة في العَراء، أجابت هيلين وهي تشير بيدها إلى خلف الخيمة.

ماذا ستفعلون هناك؟ سألتها ليندا.

ندقّ على الصواني والصحون ونصيح يا حوتة يا منحوتة هدّي قمرنا العالي، هذا قمرنا نريده، هو علينا غالي.

ثمَّ ماذا؟

لاشيء. فقط نأمل أن نُبعد الشر عن بلدنا.

هذا جيّد، ولكن عندي اجتماع مع زملائي في المكتب وأخشى أن أتأخر، قالت ليندا وغادرت.

لم يكن الغروب قد حلَّ بعد، والقمر مازال في الطريق، ولكن بعض سكّان المخيم تجمعوا تواً هناك في الهواء الطلق. وقفت ميادة مع جموع الناس حاملة صحنها الذي ضربت عليه بملعقتها الصغيرة مقلدةً الآخرين. من المؤكد أنّ الصوت الخافت الذي أحدثتهُ ما كان سيخيف الحوت، إنما أعجبها ذلك الطقس جداً فما أن فتحتْ عينيها في صباح اليوم التالي حتى ركضتْ إلى تلك الملعقة وصارت تدقّ بها على الصحن نفسه بداخل الخيمة.

بس يا حبيبتي، الحوت خاف وهرب، قالت لها هيلين.

رقصة الألم

المطر يهطل بقوة في مدينة تنير شوارعَها أضواءُ سيارات بماسحات الزجاج الذاهبة يميناً ويساراً، وهيلين تمشي بخطى متسارعة لتتوقى البلل. المرأة التي خلفها تسرع أكثر، تلحق بها وترفع مظلتها فوقهما معاً. تشملها بعالمها الصغير الآمن تحت المظلة فتشعرُ هيلين برعشة امتنان لتلك الغريبة الحنون. تتبادلان ابتسامة ستظلُ دائماً في ذهن هيلين، ليس فقط لأنها تأثّرتْ بتلك المبادرة الصغيرة التي عنت لها الكثير وإنما لأنّ المرأة كانت تشبه إلى حد بعيد واحدة تعرفها ولم تتذكّرها تلك اللحظة. ظلّت في بالها ذلك اليوم طوال ساعات عملها في الكافيتريا. بعد أن عملتْ ما يقارب عشرين سندويشة همبرغر تذكّرت هيلين مَن تشبه تلك المرأة. لها ملامح وابتسامة المرأة التي رأتها في ألبوم الصور في بيت عيّاش. هل هي نفسها فعلاً لجأت إلى هنا بعد أن شرّدوها هي وعائلتها؟

مضت عليها سنة تقريباً في بلدها الجديد وقد بدأت تعرف الأماكن وحتى تواريخ العطل والمناسبات. في الشتاء ارتدت معطفاً سميكاً وحذاءً خاصاً يحميها من الإنزلاق في الثلج. هكذا أوصاها الكنديون الذين استقبلوها في المطار مع ولديها وبنتها. استغربتْ من تحذيراتهم من البرد والثلج. أرادت أن تقول لهم بأنّ الثلج هش ومسالم بالنسبة لواحدة مثلها خبرت مصاعب الحياة بأقسى درجاتها. ياسر يتلقى نزول الثلج الكثيف كخبر جيّد فحينذاك تُغلق المدارس. ميادة كذلك تحب أن تصنع رجل الثلج أمام مسكنهم وتضحك عندما تضع جزرة كأنف له. أما بالنسبة ليحيى فالثلج رِزق لأنه اشترى ماكنة ثلج يستخدمها في إزالة الثلج من أمام عدد من بيوت المنطقة مقابل أجر متفَق عليه. لكن غياب إلياس كان حاضراً بينهم. ذكراهُ لم تكن ثلجاً لتذوب. حضرَ بألم

في استدارة ميادة نحو أمّها يوماً وسؤالها «أين أبي؟» لأنها كانت تشاهد فِلم كرتون السمكة ميمو، والسمكة سألتْ عن أبيها.

المرة الثانية التي أوجعتْ فيها ميادة قلبَ أمّها بذلك السؤال كانت لدى عودتها حزينة من المدرسة لأنّ الطلاب رسموا آباءهم على أوراق سميكة مع قلوب وبالونات ولوّنوها كهدايا في عيد الأب، ولكن ميادة لم تعرف كيف ترسم أباها. رسمت قلباً وبالونات فقط. تمالكت هيلين نفسها أمام ميادة ولم تدعها ترى كيف كان قلبها يتصدّع. رسمت إلياس بكل هدوء وأعطت الورقة لميادة قائلة: هذا بابا. أنتِ تشبهينه.

أمسكت ميادة الورقةَ بكلتا يديها وهي تتمعّن ملامح والدها. قالت: هو لايزال في السماء؟

نعم يا حبيبتي، ولكن روحه هنا معنا أيضاً، قالت هيلين.

كيف تعرفين؟ سألت ميادة.

أراهُ في حلمي، قالت هيلين.

هل يتحدث معكِ في الحلم؟ ماذا يقول؟

قال بأنه فرحان لأنكِ شاطرة في المدرسة.

لكن أريد أن أُريه بنفسي كيف عملتُ واجبي المدرسي، قالت ميادة.

عندما يأتي في حلمكِ سيرى ما فعلتِ، قالت هيلين.

ماما، أنتِ لن تذهبي إلى السماء، أليس كذلك؟

لا، ليس الآن، قالت هيلين وأخذت ميادة في حضنها.

كل صباح حين تذهب ميادة إلى المدرسة، تخرج هيلين إلى معهد تعليم اللغة الانكليزية كلغة ثانية. بدأت تحب ذلك الدرس الذي تحضره مع لاجئين آخرين تركوا أوطانهم بأيدي فارغة ولكن بذاكرات معبأة. في معظم الأحيان،

يجلس ماريو على المقعد المجاور لمقعدها، وقد توثّقت صداقتهما منذ ذلك اليوم عندما طلبت منهم المدرّسة أن يعملوا ضمن مجموعات ثنائية ليقرأوا الجُمل لبعضهم البعض ويحزروا معانيها. في ذلك اليوم نسيت هيلين أن تجلب كتابها فوضعَ ماريو كتابه بينهما لتشاركه به. وحين كان عليهما كتابة جُملة باستخدام كلمة «عندي» بدا مبهوراً بجملتها إذ نظر إليها بإعجاب وهي ابتسمت له. كتبتْ «عندي نجمة في السماء.» وقد رسمتْ نجمة بدل الكلمة لأنها لم تعرف كلمة «نجمة» باللغة الإنكليزية. ماريو لم يعرف الكلمة كذلك لكنه بحثَ عنها في تلفونه وشوّفها لهيلين لتكتبها.

في البداية لم تكن تعرف عنه أكثر من اسمه وأنه من غواتيمالا. لكن في يوم من الأيام خلال استراحة الدرس، ماريو أخبرَ هيلين بأنه كان يدير محلاً لبيع السيراميك عند بحيرة أتيتلان في منطقة سياحية جميلة تحيطها الجبال والأزهار البرية في مرتفعات غواتيمالا الغربية. كان يذهب من قريته قاطعاً البحيرة بالقارب ثم يسير إلى محله وأحياناً يركب التك تك الصغيرة. كان المحل رغم حجمه الصغير يدرّ عليه ربحاً وفيراً إذ صار معروفاً بقطع السيراميك المختلفة عن غيرها، لأن عليها آثار كسور. وفي يوم دخل إلى محله رجلٌ كان ينظر حواليه بريبة، وحين خرج الزبائن، اقتربَ الرجل من ماريو وقال «يجب أن تبدأ بدفع المال مقابل الحماية.» حين رفضَ ماريو ذلك، قال له الرجل بنبرة صارمة «إذن ستحدث لك مشكلة،» وغادر.

بعد يومين من ذلك التهديد، دُهست زوجة ماريو، إيفانا، بسيارة هربَ سائقُها تاركاً جثتها على الطريق. ماريو من صدمته مكث في البيت ثلاثة أسابيع مع ابنه لويس ذي السنتين من العمر. لم يرغب بالذهاب إلى العمل وكان مشوش التفكير لا يعرف ماذا يفعل. لم يستطع ماريو استبعاد كلمات ذلك الرجل عن ذهنه. غلبهُ إحساس بالذنب إذ تندّمَ على عدم دفعه المال الذي طلبه الرجُل.

بعد ذلك اليوم الرهيب، صار ماريو يخاف جداً على ابنه، ولم يعد بإمكانه المضي بحياته كالسابق. باعَ محله بسرعة ودفعَ المبلغ لمهرّب ساعده في

الوصول مع ابنه إلى أمريكا. ولكن خوفه من العصابة لم يؤهله للحصول على لجوء. لذلك عبرَ براً من أمريكا إلى كندا بمساعدة منظمة إنسانية.

في الدرس الأول، طلبت منهم المدرّسة أن يعرّفوا عن أنفسهم. حين جاء دور هيلين، قالت المدرّسة: إسمكِ غربي. من أين أنتِ؟

أجابت هيلين: أنا من العراق. الياء الثانية نلفظها طويلة، ومعنى إسمي بالكردي عش الطير.

إذن تتحدثين اللغة الكردية؟ سألتها المدرّسة.

والعربية أيضاً، أجابت هيلين.

رائع، قالت المدرّسة.

هيلين لم تضف بأنها تتحدّث لغة الصفير أيضاً.

كلما كلّفت المدرّسة الطلاب بأن يشتغلوا ضمن مجموعات، هيلين وماريو يشكلان فريقاً ثنائياً. يتعلّمان معاً كلمات جديدة وأشياء أكثر أحدهما عن الآخر. تحدّثا عن مواقف طريفة تعرّضا لها كمهاجرين. منها مثلاً في الكافيتريا التي تشتغل فيها هيلين وكيف أنها في اليوم الأول تعجّبت لدى سماعها سندويشة «هوت دوك» التي معناها حرفياً «كلب ساخن» فظنّت بأنّ الكنديين يأكلون الكلاب!

ضحك ماريو وقال بأنه وقع في مقلب مماثل لأنّ كلمتين متشابهتين اختلطتا عليه حين أراد أن يأكل شيئاً خفيفاً وبدلاً من أن يقول «سناك» قال «سنيك» فتصوّر صاحب العمل بأنّ ماريو أراد أن يأكل ثعباناً.

كل يوم تتعلّم هيلين كيف تضع الكلمات الجديدة مع بعضها البعض لتشكّل جُملاً مفيدة. ولكن هناك أشياء في قلبها تعجز الكلمات عن التعبير

عنها. لقد أمضت وقتاً طويلاً في قرية ليندا الثانية وليست متأكدة من إمكانية وصولها إلى القرية الثالثة. كأنها في الحدود بين القريتين وحارس سيطرة يمنعها من العبور. تتمنى لو تلتقي بليندا مرة أخرى وتسألها «هل كل شيء ممكن حقا؟» حينما أوصتها ليندا بأن «تتواصل» كان قصدها حتماً التواصل مع الأحياء وليس مع الموتى من أجل تحمّل الحياة في القرية الثالثة. ولكن ألّا تتمكن من التواصل مع إلياس شيء فوق قدرة تحمّلها. وهي لن تتواصل مع أمينة كذلك. كيف يمكنها أن تتحمّل فقدان أحبائها، وعواطفها ثابتة وعميقة هكذا كجذور الأشجار؟ وماذا تفعل بالأسى وهو ليس غصن شجرة لتقتلعه؟ ما معنى أن تستعبدها ذاكرتُها بعد أن تحرّرتْ ولم تعد عبدة لأحدهم؟

يوم 8 تموز 2019 تغيّبت هيلين لأول مرة عن درس اللغة الإنكليزية. صحت متأخرة لأنها لم تنم حتى الساعة الرابعة صباحاً ففضّلت أن تبقى في البيت بدل أن تذهب إلى الدرس متأخرة. لم تخرج من الشقة حتى المساء عندما حان وقت ذهابها إلى العمل. وهناك حيث كانت تعبئ خانة الملاعق البلاستيكية في الكافيتريا، لمحتْ ماريو. كان جالساً إلى طاولة بقرب النافذة. تصوّرت بأنه هناك بالمصادفة، ولكن حين ذهبت لتسلّم عليه، قال بـأنه جاء ليرى مكان عملها. قالت «سأنتهي من الشغل بعد 25 دقيقة.»

سأكون هنا في انتظاركِ، قال ماريو.

أكملتْ شغلها وذهبت إلى طاولته. قالت: تشرب شيئاً؟

ما رأيكِ لو نذهب إلى مكان آخر للتغيير؟ سألها.

وافقتْ فتمشيا إلى كافيتريا أخرى.

لماذا تغيّبتِ اليوم؟ سألها.

تحدّثا مثل صديقين قديمين التقيا لأول مرة بعد سنوات. أحياناً يتفاهمان بالإشارات لأنّ الكثير مما يريدان التعبير عنه لم يتعلّماه بعد باللغة الإنكليزية. فهمتْ بأنه عندما كان في الخامسة من عمره فقدَ أمّه في مجزرة جماعية. لم

يستطع أن يفهم آنذاك أنّ بإمكانها أن تختفي عنه هكذا، فظلّ يبكي ويطلبها من أبيه. قال له أبوه بأنّ أمه ستعود إليه إذا استطاع أن يلصق أجزاء آنية مكسورة. كان أبوه يشتغل في محل لتصليح السيراميك. وهكذا منذ ذلك اليوم صار يأخذه معه إلى المحل ليساعده في لصق كِسَر الآنيات. كان يلصق الأجزاء بحماس وينتظر حتى تعود إليه أمُّه.

رسمَ ماريو آنيات فيها شروخ علـى ورقة الطاولة أمام هيلين، ثم رسم طائرات ورقية فوق نعش. حاولت هيلين أن تفهم قصدَهُ فسألته «هل كنتَ تطيّر طائرات ورقية حين ماتت أمّك؟» هزّ رأسه بأن لا. فكّرتْ بأنه ربما قصدَ بأنّ أطفالاً كثيرين ماتوا أيضاً في المجزرة. ولكنها من كلامه وإشاراته فهمتْ أخيراً بأنهم في غواتيمالا يطلقون طائرات ورقية في أثناء الجنازة كطقس احتفائي بأرواح الموتى.

رسمتْ هيلين قلباً فيه شرخ. أرادت أن تقول بأنها تتأسّف لفقدان أمّه، وأنها هي أيضاً فقدتْ أحباء لا قبور لهم لتزورهم. رسمتْ ناياً بجانب القلب. قال: أنتِ تعزفين على الناي؟ اكتفت بنعم. إنما أرادت أن تقول بأنّ جماعتها لم يدفنوا موتاهم ولم يعزفوا على أرواحهم تلك الموسيقى الحزينة التي تبدأ من لحظة رفع النعش لحين الانتهاء من الدفن.

هذا رسم دقيق جداً. أنتِ رسّامة؟ سألها ماريو.

أحببتُ الرسم منذ صغري، أجابت.

هل فكّرتِ بأن تعملي معرضاً لرسومكِ؟ سألها.

لا.

لمَ لا؟ فكّري في ذلك وأنا أساعدكِ بتأطير اللوحات.

شكراً. وماذا عن آنياتك السيراميك؟ لماذا لا تعرضها أيضاً؟

بإمكاننا أن نعمل معرضاً مشتركاً، قال منتشياً، لوحات وآنيات ذات شروخ. مارأيكِ؟

فكرة لطيفة.

لنفعل ذلك!

أوصلها ماريو إلى مسكنها سيراً على الأقدام فهو قريب من مكان عملها.

يعجبني أننا لا نحتاج أن نقرّر ماذا نفعل حين نلتقي، فمجرد الكلام والمشي معكِ يمتعني، قال ماريو.

بعد غد حفلة عيد ميلاد ابنتي، قالت هيلين، أنت ولويس مدعوان.

سنحضر بالتأكيد.

هذه أول مرة نعمل لها حفلة عيد ميلاد.

كم عمرها؟

خمس سنوات.

اتفقت هيلين مع ماريو أن يحضر إلى شقتها قبل حفلة عيد الميلاد بساعة لكي يعملا معاً واجبَ الدرس الذي كانت المدرّسة قد أعطته للطلاب وهو كتابة فقرة عن مدنهم ووصفها بأشكالها وألوانها وطبيعتها الجغرافية.

يحيى وياسر أخذا ميادة إلى مكدونالد لتلعب في قاعة الألعاب التابعة للمطعم قبل الاحتفال في البيت. وهناك التحقت بهم آشلي، صديقة يحيى. كان يحيى قد التقاها في أثناء مباراة كرة قدم في مدرسة ياسر الثانوية. كان ياسر يلعب ضمن فريق المدرسة ويحيى حضر ليشاهد المباراة. كانت آشلي جالسة مثله على المدرّج وقد أثار حماسُها للعبة انتباهَهُ. تلك كانت أول مرة يشاهد فيها بنتاً متفاعلة مع مباراة كرة قدم. وجدَ نفسه في المباراة اللاحقة يبحث عن تلك البنت التي ترتدي ملابس رياضية مريحة وتشد شعرها إلى الخلف

بشريط أبيض. جلس في مكان شاغر بجانبها. تجرأ وتحدّث إليها بلكنته الأجنبية. لم يعرف إن كان كلامه مترابطاً وذا معنى باللغة الإنكليزية، ولكنه كان مرتبكاً وسعيداً بشكل غريب. بعد عدة مشاهدات للعبة معاً، وافقت آشلي أن تخرج معه. حلق يحيى شعره وتعطّر. سأل هيلين رأيها بمظهره قبل أن يذهب إلى موعده. ابتسمت هيلين وهي تقول لنفسها «لا أصدّق أنه كان يوماً يريد أن يقاتل مع داعش.»

بعد أن وصلَ ماريو ممسكاً يد ابنه، إمتدحَ شقة هيلين وهو ينظر إلى البالونة الكبيرة المربوطة بكرسي وعليها كلمات «عيد ميلاد سعيد.» كان لويس ممسكاً بهدية أعطاها لهيلين. ابتسمت له وقالت «آه، شكراً. ميادة ستفرح بها. تبدو بنفس عمرها. هل أنتَ في الروضة؟»

نعم، أجاب لويس الذي بدا ولداً محبوباً بوجهه المدور وسنه الأمامي المفقود.

سألتهما عما يحبان أن يشربا فاختار ماريو القهوة، ولويس هزَّ رأسه بأن لا شيء. حين عادت هيلين من المطبخ بكوبي القهوة، وجدت ماريو يكتب مع لويس على الآيباد. اختلست النظر إلى ما كتباه وهي تقول: كأنكما على وشك إكمال الواجب الدراسي.

لو لا قاموس كوكل لما استطعتُ أن أكتب شيئاً، قال ماريو، أنا أعمل غلطات كثيرة وأنسى بأنّ الصفات تأتي قبل الأسماء في اللغة الانكليزية، عكس الإسبانية.

في اللغة العربية والكردية تأتي الصفة بعد الإسم أيضاً، ولكن أكثر غلطاتي في الأفعال فلا أضع أزمانها بشكل صحيح، قالت هيلين وبدأت هي أيضاً بكتابة درسها.

حين انتهت منه ووضعت قلمها على الورقة، أخذ ماريو رشفة أخرى من القهوة وقال: أقرأ لكِ ما كتبتهُ؟

أومأت هيلين برأسها فبدأ ماريو يقرأ: في غواتيمالا، لا تُغلق المدارس بسبب الثلج وإنما بسبب البراكين. هي مدينة البراكين والجبال والمعابد والأسواق المفتوحة في الهواء الطلق. يُقال بأنّ إسم غواتيمالا مأخوذ من كلمة معناها في حضارة مايا القديمة «الجبل الذي يتقيأ المياه.» وهناك فوق الجبل يوجد طائر جميل إسمه كويتزال ريشهُ أخضر وأبيض وأحمر. هذا الطائر صار رمزاً للحرية لأنهم وجدوا بأنه يموت حزناً حين يوضع في قفص.

ابتسمت هيلين وقالت: هذا يذكّرني بقريتي يا ماريو. غواتيمالا جميلة إذن.

نعم حتى خرائبها جميلة، قال ماريو، ولكن طبعاً لم أذكر الأشياء السلبية فيها.

مثل ماذا؟

المخدرات والفقر. المهم اخبريني عن بلدكِ.

بلدي جميل أيضاً عندما لا تكون فيه حرب، أجابت.

إقرئي لي فقرتكِ.

بدأت هيلين تقرأ: في قرية ليست على الخريطة كانت لي عائلة تحبني. بيوت مفتوحة الأبواب ليل نهار وفي البيوت ناس قلوبهم صافية كمياه الينابيع وفي قلوبهم ناس من كل مكان. لعالمهم لون الطيور وشكل أشجار التين. كل ما تبقّى مكان فارغ هنا في قلبي وهو يؤلمني. يمكن الإشارة إلى ذلك المكان كما لو أنه في خريطة، ولو أنه كالحُب لا يمكن رؤيته على الخرائط.

هذا مؤثر جداً، قال ماريو.

كلمات إنسان مكسور، قالت هيلين.

لستِ مكسورة إنما بكِ أثر جرح، قال ماريو.

إسمعي، أضاف، هناك شيء تعلّمتُه من شغلي بلصق السيراميك المكسور. الآنية التي فيها أثر كَسر لها جمالها الخاص لأنّ الجمال الحقيقي غير كامل. الجمال الكامل زيف. الشيء الذي يعجبني فيك هو أثر الحزن البادي عليكِ.

ابتسمت له هيلين. لمسَ يدها اليسرى وأطالَ النظر إليها قائلاً: حتى وَشْمكِ مختلف.

نظرتْ إلى وشمها وأغمضت عينيها. رأت بقعة ضوء صغيرة سرعان ما كبرتْ إلى وجه أليف. إبتعدَ شيئاً فشيئاً حتى استحالَ مرة أخرى إلى بقعةَ ضوء. إنتظرتْ أن يعود الوجهُ ثانيةً ولكنه لم يفعل. مع ذلك منحتها بقعةُ الضوء تلك في الظلمة إحساساً خاصاً لا تمنحهُ سوى صورة مفقود حبيب.

حين فتحت عينيها، قال لها ماريو: اغمضي عينيك مرة أخرى.

كلما أغمض عيني أرى الماضي، قالت هيلين.

هل يمكنكِ أن تري الحاضر وأنتِ تغمضين عينيكِ؟ سألها.

أرادت أن تقول بأنها بإغماضة العينين ترى حياتها صوراً مطبوعة في جفنيها، وأنّ ألمها لا يميّز بين الماضي والحاضر والمستقبل، فهو ألم فحسب.

لاحظ ماريو الدموع في عينيها.

لا تخافي، كل شيء سيكون على مايرام، قال لها.

هناك شيء بداخلها يتحرّك مع ماريو ولكنها لا تعرف ما هو بالضبط. لو كان حُباً فما بالها لا تريده أن يلمسها؟ وجوده إلى جانبها يمنحها اطمئناناً عميقاً ولكنها لا تريده أن يبادر بأي فعل جسدي معها مهما كان صغيراً. كانت لاتزال خائفة وغاضبة من كل أولئك الرجال الذين اغتصبوها، فأن يلمسها رجل مهما كان بريئاً يستدعي إلى ذهنها غثياناتها وهم يمارسون الجنس معها رغماً عنها. ماريو إنسان مهذّب ولكنها لا تعرف كيف تطرح منه خيالات المغتصِبين الذين يحضرون بينهما.

رنّ جرس الباب فهرعت هيلين لتفتحه. ركضت ميادة إلى الداخل وخلفها ياسر ويحيى وآشلي.

عرّفتهم هيلين إلى ماريو ولويس، وذهبت لتشعل الشموع. إلتفوا حول ميادة وبدأوا يغنّون أغنية الميلاد وهي تطفئ الشموع، وماريو أمامهم يأخذ لهم صورة.

بعد تناول الكيك، قال يحيى: لازم نسرع إلى الملعب لأن المباراة ستبدأ بعد قليل.

شغّلت هيلين أغنية في تلفونها. وضعتْ يديها بيدَي ميادة وصارت تدور معها في وسط الغرفة. بعد بضع حركات عشوائية انتظمتْ الحركات إلى رقصة.

في نهاية الرقصة، صفّق لهما ماريو قائلاً: رقصة جميلة.

حزينة، قالت هيلين.

حزينة؟ سألها ماريو محتاراً.

حزن، لا، فرح، لا، رقص، لا، إسمها رقصة الألم، قالت هيلين وهي محتارة كيف يمكنها أن تشرح له من دون قاموس بأنَّ الناس في قريتها القديمة يحاكون رقصة الطير الجريح فيتمايلون بأجسادهم على نغمات الناي الحزينة. تبدو رقصة جميلة لأنّ هناك جمالاً فعلاً عندما نحاول التعبير عن شيء بداخلنا. حتى الألم يصبح جميلاً عندما نعبّر عنه، تماماً كأثر الكَسر على آنية فخارية.

استدارت نحو ماريو وهي تفكّر: سأحاول.